دار المقطم للصحة النفسية
المكتبة الأدبية العلمية

المشى على الصراط
(رواية علمية) - ١

الواقعة



د. يحيى الرخاوى
أستاذ الطب النفسى . جامعة القاهرة
ومستشار دار المقطم للصحة النفسية

دار المقطم للصحة النفسية
المكتبة الادبية العلمية

المشى على الصراط
(رواية علمية)

الجزء الأول

الواقعة

د. يحيى الرخاوى
أستاذ الطب النفسى . جامعة القاهرة
ومستشار دار المقطم للصحة النفسية

١٩٧٧

الناشر
دار الغد للثقافة والنشر
٤٧ شارع الملكى - القاهرة

الإهداء

إلى النـاس الذين لا أعرفهم ،.. والذين هم على طريقى دون علمى ، يتحدثون بغير لغتى ، . . أهدى هذا السهم ، لعله يشـير إلى ما نسعى إليه . .

« يحيى الرخاوى »

تصدير

تبدأ دار المقطم للصحة النفسية بالاشتراك مع دار الغد للثقافة والنشر فى إصدار مجموعتها الثانية تحت اسم « المكتبة الأدبية العلمية » بعد أن أصدرت كتابيها عن « أعراض الفصام » للمقارنة بين البيئات المصرية والأمريكية والانجليزية للدكتور رفعت محفوظ محمود ، وعن « العلاج الجمعى : دراسة لإتجاه مصرى » للدكتور عماد حمدى غز ، فى « المكتبة العلمية » .

وبصدور هذا الكتاب تعلن الدار تبنيها لمحاولة تأليفية بين العلم والفن : وهى تعنى تقديم حقائق العلم بأسلوب فنى ، أو تقديم روائع الفن بالتزام علمى ، ولهذه المحاولة مخاطر التلفيق وتشويه العلم والفن معاً .. إلا أننا نؤمن أن مسيرة الإنسان التصاعدية مستمرة فى محاولات جدليه دائمة لتأليف أكبر على مستوى أرقى دائما .. والتأليف المتحدى حاليا هو بين العلم والفن من ناحية . . وبين العلم والدين من ناحية أخرى بعد أن نجح التأليف بين الدين والفن ردحاً من الزمن ، ونحن نفتح باب هذه المحاولة من واقع أصالتنا المصرية . . والتزامنا الإنسانى . .

وفى وسط حطام كل شىء

ومن بين أكوام بقايا البشر

ينبعث صوت يقول :

إننا لابد أن نعيش . . وإننا نستطيع . .

دار المقطم للصحة النفسية

« للفن ظاهر مكشوف ، ورمز خبيء

ومن يتجاوز الظاهر ، يجازف بكل شيء »

أوسكار وايلد

مقدمة

مثل العادة ، أقدّم رجلاً ؛ فأجدنى أم بأن أقول كيف حدث كل هذا . . . ؟ وأؤخر أخرى ؛ لأدع الفن لأصحابه يرونه كما يشاؤون . . دون النظر إلى ظروف ولادته ومناخ نشأته . ومابين مقدمات برناردشو التى تفوق أحيانا النص حجماً وتفصيلاً ، وبين صمت نجيب محفوظ الفيلسوف لابس عباءة الراوية (قبل مرحلة يوميات الأهرام) أجدنى حائراً متردداً .

ثم أخضع أخيراً لحق القارىء علىّ ، لأن لى صفة أخرى غير الكتابة يعرفنى بها ، طبيب يمارس المهنة : فعلاً يومياً ، فلا بد أن أفصل بين هذا وذاك حتى لا يختلط الأمر على الناس ، ولا بد بالتالى أن أكتب كيف كان ذلك ، وكيف خرج هذا العمل إلى حيز الوجود .

حقيقة أن مادة خيالى نبعت من واقع مهنتى ومن حياتى الخاصة . . إلا أنها فى النهاية خيال محض ، لا تصف أحداً بذاته ، لا مريضاً .. ولا طبيباً ، وعلى ذلك فهى وجهة نظر ، أتحمل وزرها وأكتوى بنارها ، أو أجنى ثمارها وأسير فى نورها . . ولكنها فى كل حال ليست الحقيقة الدامغة ولا القول الفصل فى أسلوب علاجى بذاته . . . أو منهج حياتى خاص . . . ، ولتكن صيحة عاجز ضاقت به السبل فى لحظة ما ، أو مجرد قصة ، أو رؤية علمية لبست هذا الثوب الروائى ، وعلى من يقرؤها أن يكون مسئولا عما يصله منها . . . كلٌّ بطريقته .

وقد يجد القارىء فيها من التناقض فى الشكل والمحتوى (أو عدم التماثل على الأقل) مايجعلنى ملزما بتفسير ذلك ، فقد كان الفرق بين كتابة الجزء الأول والجزء الثانى أكثر من عام (وإن استغرق كل جزء بضعة أسابيع — بعض الوقت —) مما جعل طبيعة كل جزء وأسلوبه يختلف عن الآخر ، كما أنى لابد وأن اعترف أن الفصول الأربعة الأخيرة من الجزء الثانى قد كتبت قسراً وضد مقاومة هائلة من داخلى ، لأنى أحسست وأنا أنتهى منها أنى أودع الفنان فىّ بعد أن عجز عن أن يخرج عملا فنياً خالصاً ، حيث ظل مكبلا دائما بالإلتزامات العلمية والنظريات . . حتى فى محاولاته الشعرية (« سر اللعبة. دراسة فى علم السيكوباثولوجى » بالفصحى، « وأغوار النفس » بالعامية المصرية) . .

ولابد إذاً أن اعتذر عن إقحام تفاصيل علمية فى الجزء الأول خاصة ، حين اضطررت أن أحكى عن أساليب مهنية شائعة فى علاج الأمراض النفسية ، لا تمثل تخصصاً بذاته . . بقدر ما تمثل مرحلة من مراحل تطورى كطبيب نفسى دون أى تلميح إلى زميل أو أسلوب علاجى خاص . . . ، أما الجزء الثانى فقد نجح أن يتخلص من هذا القيد ، حيث هرب تماماً من وصف أى جلسة علاجية وصفاً مباشراً ، وترك الأحداث تدور قبلها وبعدها باستمرار ، حتى أن شخصية الطبيب لم تظهر إلا فى لقطة سريعة فى الخاتمة . .

وقد حاولت شخصياً أن أقيم هذا العمل بعد كتابته ، لأدرجه تحت صنف بذاته، فعجزت، إذ شعرت أحيانا أنه رواية بما تعنيه الكلمة ، وأحيانا أخرى أنه رسالة طبية لا أكثر ولا أقل ، أو أنه مجرد محاورات عقلية

بلا إبداع فنى . . . ، وخطر ببالى أن أعيد كتابة النص مرة أو مرات كما نصحنى بعض الأصدقاء الذين أثق فى رأيهم ورؤيتهم ، ولكننى وجدتنى سوف ألقى بنفسى إلى التهلكة ، حيث لن أدرى من الذى سيطغى على الآخر داخل نفسى ، الفنان أم العالم أم الطبيب الممارس . . . الخ . وضد كل الحسابات . . غامرت وألقيت بالمسودة الثانية إلى المطبعة .

(المقطم فى أكتوبر ١٩٧٥)

* * *

ومرّ عام ، وعام ، ونجح العالِمُ فىّ — جبنا أو عقلا — فى تأجيل النشر طوال هذه المدة . . . ، وحين عدت إلى العمل أتصفحه — ولا أقرؤه تفصيلا — وجدته يمثل مرحلة سابقة . . . مجرد مرحلة . . . ولو عدت أكتبه الآن فربما ظهر بشكل آخر ، وكان علىّ أن أختار : إما أن أغامر بالظهور هكذا ليسجل تاريخى بعض مراحل تطور فكرى .. وإما أن أعيد النظر فى كل شىء . . . ، ولكنى اخترت السبيل الأول بعد أن أحسست أنه أكثر صدقا . . . وشجاعة . . . وخاصة وأنى لم أعد أنتظر تقييما علمياً ممن أخشى رأيهم ، بعد أن وصلت إلى نهاية المطاف التقليدى ، وعلىّ إذا أن استغل هذا الذى دفعت ثمنه غالياً . . . فأستدرج به الناس لأقول لهم كلمة أعتقد — فى لحظة ما — أنها الحق .

على أن عمق هذا العمل . . . لم يصل — كما كنت أود — لخاصة الخاصة الذين عرضته عليهم ، مما جعلنى أتساءل : إذا لمن أكتب إن كان

هؤلاء الخاصة لم يصلوا إلى لب المشكلة الكيانية ، الكونية ، التى حاولت أن أعرضها فى شكل روائى . . . ؟

ورجعت أقاوم ترددى . . . وأحول دون تشويه العمل بمزيد من الإيضاح . . . أو المباشرة . . .

وهكذا خرجت اليكم . . أطرق بابكم الخلفى . . بعد أن حال عجز العلماء بوسائلهم الحالية أن أصل إليكم مباشرة . .

موجات الفن عاتية ، . ولكن شراعكم ملىء بالحنان . . وأنتم تحتضنون ريح الشمال .

المقطم فى ا كتوبر ١٩٧٧

الفصل الأول

فى البدء كان الكلمة

— الاسم ياسيد ؟ !

قالتها تلك المرأة القابعة وراء الشباك للواقف فى أول الصف ، شىء عادى تماما ، إذ لابد أن لكل واحد منا اسم ، ولابد لنا أن نُسأل عنه إذا كان غيرنا لا يعرفه ، ولكن فى ذلك اليوم لاحت علامات الساعة من خلال هذه الكلمة العابرة التى نسمعها فى اليوم عشرات المرات : «الاسم ياسيد».

الصف الطويل ينتظر ، الموظفة المتلكئة وراء النافذة تراجع الأوراق وتحدث جارتها بين الحين والحين ، وكأنهما يتناقشان فى شىء ذى بال ، شعرها مقصوص للخلف ووجهها خال من أى تعبير خاص ، ملىء بحبوب متناثرة لا هى حب الشباب ولا هى« نمش» الشيخوخة ، ليس لبشرتها لون وإن كان الناس قد اعتادوا أن يقولوا عن مثيلاتها « سمراء » ، لكنها فى هذه اللحظة كانت بلا لون . . أو قل كانت بلون الأرض قبل بدء الخليقة ، أو لون الموت ، إن كان للموت لون . . ولكن لا يمكن أن أنفى أنه كان لها لون فى يوم من الأيام .

طال الانتظار . . الصف يتحرك ببطء شديد ، قوة تجذبنى إلى الخلف حتى حسبت أن الواقف ورائى يشدنى من قفاى ، تلفت حولى فإذا بينى وبينه حاجز طبيعى متكور يدفع بنصف جذعه للوراء ، شىء يطمئن ، قفاى ليس فى متناول يده ، رجعت أنظر إلى المرأة مقصوصة الشعر خيل إلى أنها تدبر

مكيدة يفنى بها العالم حتى تتخلص من عملها هذا ، طردت هذه الأفكار التى كانت تراودنى بين الحين والحين ، وكنت اعتبرها من قبيل الفكاهة ، ولكنها بدت اليوم وكأنها عين الجد ، الوقت يمر ببطء ، بالأمس كان عندى ذلك السباك الطيب ، كان هادئاً وديعاً مستغرقاً فى عمله وهو يصلح الصنبور ، عمل تافه ولكنه كان يؤديه بعناية وإتقان وكأنه يصلح أحوال الكون ، وجهه رائق يشع نوراً لاتعرف طبيعته أو مصدره ، يخرج بعد الإصلاح وكأنه ينسحب خوفا من أن يضبطه أحد فيرغمه على أخذ حق الإصلاح لحقت به عند الباب فى آخر لحظة ومددت يدى بما قسم له ، نظر إلى الأرض قائلا :

— لزومه إيه يا بيه

— حقك ياعم محفوظ

— الحق عند الله

أغاظنى هذا الرجل غير المحتاج إلى شىء ، ستة أولاد ، الأسعار نار والعمل بسيط والأجر زهيد ، ثم ينسحب خجلا من المطالبة بأجره ، شىء يغيظ بحق ، من أين له بكل هذه السكينة والرضا ، من أين له بثمن الخبز إذا هو لم يتقاض منى ومن أمثالى أجره ؟ هذا شىء سخيف لا أفهمه ، وتظل صور أمس تتلاحق ، يحضر جارنا الأستاذ غريب بعد خروج عم محفوظ السباك مباشرة : انسان يعيش فى عالم سحرى هو الآخر ، يبدو عليه الاهتمام المستمر بشىء ذى بال ، أحيانا استطيع أن أفهم اهتمامه بحرب فيتنام ومجاعة بنجلاديش . وأحيانا لا أدرى ماذا يفعل بهذا الاهتمام ، أعتبره من هواة النكد ، لا يكاد يعرف كم قرشا يقبض آخر الشهر ، نظراته جادة وذكية وحزينة فى نفس الوقت ، أحس فيها بإشفاق شديد خال من الاحتقار ،

أحيانا.. أبادله نظرة عدم مبالاة تحميني من اختراق عينيه ، هذا الإنسان الذاهل يحاول أن يستدرجني إلى شيء لا أعرفه ، شيء لست في حاجة إليه .. لا ... لن يحدث «ذلك» مهما كان (ذلك الذي لا أعرفه)، ومع كل هذا حاولت أن أتلطف معه أمس . بلامناسبة — بعد انتهاء المكالمة ، دعوته برغبة حائرة .

— إجلس يا أستاذ غريب .. تفضل .

— أخشى أن أضيع وقتك .

ماذا في رأس ذلك المتوحش ، فيم أضيع وقتي إن لم يكن في الجلوس معه ومع أمثاله ، لا ليس مع أمثاله ، مع أمثالي أنا . قلت له :

— بالعكس .. كيف حالك ؟

نظر إليّ نظرة ما ، هذه نظرة لا أقبلها ، لن أسكت على هذا الوغد ، إن كان يحتقرني إلى هذا الحد فلا بد أن أبدو في غاية السعادة ، هو الذي يحتاجني ، عندي تليفون وليس عنده حتى جرس للباب ، لم يهتم أن يصلحه منذ فسد ، إنه يحضر عندي لتلقي المكالمات في منزلي علماً بأني لست مضطراً لاستقباله ، أنا « أنجح » منه و « أسعد » .

قطع عليّ أفكاري :

— الإنسان مقهور أكثر من طاقته .

يا نهار أسود ، أسأله عن حاله فيقول إن الإنسان مقهور ، ما أغباني إذ أفتح الحديث مع مثل هذا المتوحش الأبله ، إما أنه لا يفهم معنى الكلام أو أنه يستهين بي وبترحيبي وحديثي من حيث المبدأ ، ومع ذلك سوف أريه .

— عندنا قهوة بيتي ، وهي من مزايا الزواج ، تشربها على الريحة أم مضبوطة .

سوف أعدد له كل المزايا التى أتمتع بها زيادة عنه قبل أن يخرج :

ــ شكراً .. أفضل الانصراف .

قالها وهم بالاتجاه إلى الباب ، فزاد إصرارى على الحديث معه وكأنى على وشك الانتصار .

ــ لا يمكن ، ما رأيتك من زمان .

أطرق إلى الأرض وكأنه يفكر فى حل مشكلة الحدود الصينية السوفيتية .

ــ هل حقاً تريد رؤيتى ؟

ترددت فى الإجابة لأنى لا أريد رؤيته إذا كان ذلك ممكناً ، ولكن طالما هو كائن حى له جسم يتحرك فى الشقة المقابلة فلا بد من رؤيته حسب القوانين الطبيعية لبقاء المادة ، أنا لا أطيق وجوده أصلا ، ينبغى أن يباد هذا الصنف من البشر من على ظهر الأرض ، أولئك الناس الذين لا ينظرون إلى وجهك ، الذين تحس بنظراتهم تثقب أحشاءك مباشرة .. ليسوا منا ، يتصورون أنهم يعيشون وغيرهم فى عداد الأموات ، يتلطفون معنا ليستعملونا « كأشياء » ليس إلا ، ثم هم لا يتركونا فى حالنا ، سوف أحطم هذا المتوحش .

ــ طبعاً .. الناس لبعضهم .

هيه ! أفحمته حتى يعرف أنى أعرف انتهازيته ، وأجامله بمحض اختيارى وكنى تظاهراً بالزهد تبريراً للعجز ، قال على غير توقع :

ــ وكيف حالك أنت ؟

حالى ؟ أنا أسأله لأنه مسكين وغامض ووحيد ، أما حالى أنا فهو ظاهر للعيان ، من الذكاء أن أرد عليه فوراً « الحمد لله » حتى لا يظن بى الظنون ، فى نظراته صدق غريب حنون وكأنه يسألنى عن حالى فعلا ، تعودت أن أسمع

هذا السؤال للمجاملة وقطع الوقت ، أما أن يكون سؤالا ذا معنى ووراءه اهتمام جاد فهذا ما لا يمكن السكوت عليه ، ماله ومال حالى ؟ هل يريد أن يتأكد أنى ميت ؟ وهو الذى لا يعرف للحياة طعماً ، هو لم يغير سترته منذ ست سنوات بالتمام ، ماله حالى ؟ أليس عنده نظر ؟ ألم ير قماش « الأنتريه » الجديد ؟ ماذا يريد على وجه التحديد ؟

طال سكوتى أكثر مما ينبغى ، لابد أن أرد عليه بشجاعة حقيقية ، لابد أن أقول له إن تليفونى ليس تحت أمره بعد الآن ، لابد أن يعرف حدوده ، وأن حالى هو هذا المنزل السعيد وهذا التليفون وهذا الأنتريه ، أما غير ذلك فهو خارج عن اختصاصه ، لابد أن يلزم حدوده وإذا كان يريد أن يتلقى المكالمات عندى فليعرف أن هذا وحده نتيجة أن حالى عال العال ، ليس مثل حاله على أقل الفروض ، سأقولها له وما يكون يكون ، لابد أن يشعر بفشله حتى يكف عن اقتحام الناس .

ــ الحمد لله ...

لم يرد هذا المتوحش ، ظل ناظراً إلى الأرض فى تفكير عميق ، ليس فى الدنيا ما يحتاج لكل هذا التفكير ، كل شىء عنده مختلف ، هل يشك فى إجابتى ؟ لا يصدق أن حالى على ما يرام ، لماذا لا يعلن ما بنفسه حتى أرد عليه ؟ جبان ، سوف أحتفظ برأيى فيه حتى أستدرجه ، لماذا يحتفظ لنفسه بحق الحكم على الناس ، إنه هو الذى لا يعرف شيئاً إلا من خلال كتبه ، سخيف تافه يعيش على الهامش ، مغرور يتصور أنه يستطيع أن يعدل الكون ، عاجز غبى ، لن يدخل بيتى بعد اليوم ــ يرتشف القهوة فى شماتة وكأنه وحده الذى يعرف طعمها ــ يدير الفنجان ببطء ويتأمله كأنه لم ير مثله من

قبل ، جار سمج ، لعن الله اليوم الذى قابلته فيه — ينظر إلىّ ثانيـة وكأنه لا يصدق شيئاً لا يعرفه ، ماله بى ؟

قام فى هدوء ومد يده مصافحـاً — يبتسم ، أكاد أبصق فى وجهـه ، أكشر عن أسنانى أرد له ابتسامته الحانية فى غضب ، لست فى حاجة إلى شفقته المهينة ، قال قبل أن يغادر الشقة :

— شـكراً .

— تحت أمرك . .

. . . . . .

انتبهت على صوت المرأة ذات الشعر المقوص والبشرة بلا ألوان :

— الإيصال باسم من ؟

من ؟ باسمى طبعاً ، كان ينبغى أن أستعد أثناء تحرك الطابور حتى لا تحدث المفاجأة ، صحت فى تعجب !

— باسمى طبعاً .

ارتفع حاجباها باشمئزاز ضجر .

— ليس هذا مجال العبث يا أستاذ ، إلزم حدودك أو فسح الطريق لمن بعدك، أخذت أحاول أن أنطق باسمى حتى ينتهى هذا الموقف ولـكن كل شىء كان قد انتهى فعلا ، نظرت إليها فى احتجاج وكأنى أرد على غريب : هل أنت أيضاً أيتها الجثة الهامدة ، هل أنت أيضاً ؟ تسألينى عن اسمى وكأنك تشـكين فى وجودى ، أليست الأوراق أمامك .

— أستاذ ... الناس وراءها مصالح .

اكتشفت أنى لم أقدم لها الأوراق ، ولـكنها تسألنى عن هويتى ، تشك فىّ ، طال صمتى وكدت أعجز حتى عن الحركة .

— أرجوك يا سيد ماذا تنتظر ؟

مرة ثانية تسمع صوتها أذنى ، لكزنى الواقف ورائى متعجلا . بانتقال بصرى بينه وبينها، عيناه تتهمانى أيضاً ، أحسست بالعرق يتصبب على وجهى أكاد أبصر حبات العرق على جبهتى ، كل حبة مثل حرف من حروف الهجاء ، أحاول أن أجمع الحروف لأكوّن اسمى بجهد بالغ ، أكاد أنجح ولكنى لا أتذكر على وجه التحديد لماذا جئت إلى هذا المكان ، وقبل حدوث ما لا يحمد عقباه ، تركت الصف فى صمت ووليت هارباً . .

* * *

ماذا جرى ؟

خرجت إلى الشارع ، رأسى خالية تماماً ، أخذت أنظر إلى المارة وكأنى أراهم لأول مرة ، هؤلاء الناس : أين كانوا قبل اليوم ، من أين جاءوا ، أشكالهم تبعث على التساؤل ، لكل منهم عينان اثنتان ، لماذا لا يستعمل أى منهم ولو عيناً واحدة ، إذاً لرأوا بعضهم البعض مثلما يرى غريب قدح القهوة ، الآن أكاد أتعرف عليه، أكاد أفهمه ، وعم محفوظ أيضاً .. أصبح فجأة مفهوماً لدى لعلى ولجت باب المجهول بلا استئذان... ماذا حدث ؟ من أين تأتى تلك الرؤية الجديدة ؟ رجعت أنظر إلى وجوه الناس رغم أنى لا أكاد أعرف أيّا منهم إلا أنى أعرفهم واحداً واحداً ، أصبح لكل منهم لون حقيقى يختلف عن لون الآخر ، تذكرت المرأة المقصوصة الشعر بلا لون ، لو رجعت لها الآن لعرفت أن لون بشرتها مثلاً هو ٩/٥٧٣٤ أو أى رقم آخر ، لكنه رقم محدد ، لكل إنسان لون خاص به يمكن أن يوضع فى فاتورة البشر ، هناك درجات من اللون الأسمر ومن كل لون ، خضرة الشجر ليست كخضرة الحشيش ليست كخضرة أرقام سيارات

الدبلوماسيين ، هذا شيء رائع : أن يكون لكل شيء لون . ولكن أين اختفت الألوان قبل ذلك ؟ أين كنت أنا طوال هذه السنين ؟ أحس برغبة هائلة فى الجرى إلى المنزل حتى أسأل الأستاذ غريب عن حقيقة ما هو فيه ، وهل هناك شبه بين ما حدث لى وبين موقفه الغامض . .

* * *

ولكن ماذا حدث لى ؟ رأسى الذى كان متصلباً فارغاً بدأ يمتلىء بكل ثروة الحياة ، جمادها وأحياءها ، فيها الوحوش وطيور الزينة جنباً إلى جنب ، أكاد أطير إلى هناك ، ولكنى هنا بينهم لا بد أن أتعرف عليهم أولا .

تقدمت إلى أحدهم لأسأله نفس السؤال الذى سألتنيه تلك المرأة ، من أنت ، أنت تعيش باسم من ، « الاسم يا سيد » الإيصال باسم من ، وقلت فى نفسى إذا تعرف هو على نفسه فلا بد أنى أستطيع التعرف على نفسى ، كيف ؟ لست أدرى ولكنى أستطيع تأكيد هذه المعادلة السهلة دون حاجة إلى برهان : لو أن أى واحد فى هذه اللحظة عرف من هو ، فلسوف أعرف أنا أيضاً من أنا .

تقدمت إليه ، ربتُّ كتفه فى رقة ، فالتفت إلى فى هدوء ، قلت فوراً :

— كم الساعة من فضلك ؟

— آسف ليس معى ساعة .

— شكراً ...

الحمد لله ، انتهى الموقف بسلام ، حصلت على الإجابة بطريقة أسهل : ليس ضرورياً أن يحمل أحدهم ساعة ما دام الآخرون يحملون ساعات

ولكن هل الذى يحمل ساعة يعرف « من هو » ؟ لا بد من تكملة البحث ، تقدمت إلى آخر بعد أن تأكدت من وجود الساعة فى معصمه ، احتك كتفى بكتفه ، نظر إلى نظرة بين التساؤل والاحتجاج ، نظرت إليه نظرة اعتذار ومضيت مرتاحاً وكأنى حصلت على الجواب :

حتى الذين يحملون ساعات ، لا يعرفون من هم !!

ربما كان من سر الوجود — حتى تسير هذه الجموع بهذه الصورة بالغة النظام بالغة التعقيد والاضطراب — ألا يعرف أحد « من هو ؟ » ، إذ ماذا يكون الحال لو حاول كل منا أن يعرف من هو ، سوف تتوقف الحركة مثلما توقف عقلى أمام تلك المرأة منذ قليل ، لا .. ليس ضرورياً أن يعرف أحد شيئاً .. ولا بد أن هذه المرأة لم تقصد شيئاً جاداً ، سوف أرجع لها بأوراقى لأثبت لها أن سؤالها هو الجواب ذاته ، سوف أجيب عليها مثلما فعلت قبل ذلك آلاف المرات ، وبمجرد أن أجيب سوف يسقط السؤال ؟ ما هذه الدوامة التى تدور فى ذهنى ؟ إن ما يزعجنى أنها بالنسبة لى بالغة البساطة والوضوح .. ومع ذلك ! لقد اهتديت أخيراً إلى الحل : « الناس يجيبون على أسئلة بعضهم البعض حتى تثبت أن هذه الأسئلة ليس لها إجابة ، ذلك أنهم لو حاولوا أن يجيبوا على الأسئلة المطروحة فى كل لحظة بجدية حقيقية لاختل توازن الكون ، أو توقفت العجلة مثلما حدث هذا الصباح أو يعم الشذوذ مثلما يعيش الأستاذ غريب ، أو ربما جاعوا مثلما أخاف على عم محفوظ السباك ، يبدو أن ما أصابنى اليوم سوف يهدينى إلى فكرة جديدة أحل بها مشكلة الوجود .

« لا بد من الإجابة « فوراً » على كل سوال ، حتى لا نضطر إلى البحث فضلا عن إجابة له » !

ما أسهل هذا الكلام رغم أنى لا أجرؤ أن أقوله لأحد خشية أن يتوقف نهائياً عن الأسئلة والأجوبة فيموت أو يبعث من جديد ، ياحلاوة أصبحت فيلسوفاً بقدرة قادر ، وسر موظفة الشباك !

ما هذا الكلام الفارغ ؟

* * *

رجعت إلى الموظفة وراء الشباك ، حاولت أن أتبين لونها هذه المرة ، أخذت أبحث عن موقعها من خريطة العالم التى احتلت مخى فجأة، فاكتشفت أنها تعيش فى الصحراء الكبرى وقد اكتسبت لونها من الأعشاب الجافة والرمال الساخنة المختلطة ببقايا زيوت متناثرة من حفار شركة أمريكية تبحث عن البترول ولم تجده ، ما أروع ما حدث اليوم ، بعد أن كانت المرأة بلا لون أصبحت الصورة بالألوان الطبيعية كالحة جافة لزجة فى نفس الوقت ، ولكن الحمد لله ، الآن تتضح الأمور .

لم يبق فى الصف إلا اثنان ، خشيت أن تتذكر وجهى طأطأت رأسى ناظراً إلى الأرض حتى لا ترى عينى ، أسعدنى أنها كانت تدفن رأسها ، هى الأخرى ، فى الأوراق .

رفعت رأسى حين خطر ببالى أنها لا يمكن أن تتذكر وجهى لأنى ساعتها لم يكن لى وجه ، فقدمت لها الإنذار .

— أنا عبد السلام المِشدّ ، أريد أن أدفع إيصال النور قبل أن يقطع عنى . .

قلتها بصوت مرتفع وسريع وكأنى أستظهر آية فى حصة الدين ،

لم أنظر حوالى لأرى وقع ألفاظى على من حولى ، لايهم ، المرأة لم تنزعج ، أخذت الورقة فى صمت ووضعتها على جانب، أخرجت رزمة من الإيصالات، بحثت عن اسمى ، ذكرت رقماً ما من النقود ، أخرجت ما معى ، أخذت الإيصال، لم أنتظر حتى آخذ الباقى ، بضعة قروش فى داهية وأهرب أنا بجلدى، لم تستوقفنى المرأة حتى آخذ الباقى، عادة جديدة فى حضارتنا المعاصرة لإصلاح الكادر الوظيفى بالحلول الذاتية .

* * *

خرجت إلى الشارع ثانية ، لم أحاول أن أدقق النظر هذه المرة فى وجوه الناس ، لهم عينان أو أربعة أو أربعة وأربعون .. مالى أنا . .

أحاول أن أوقف هذا الشىء الذى حدث بالإنكار والإهمال والتفكير فى أى شىء آخر ، مصاريف المدارس للأولاد مطلوبة ... ، سوف أغير التليفزيون ... ، عندى قطعتا صوف بدل وارد الخارج سوف أذهب إلى الخياط لحياكة إحداها ... ، لابد أن أعود كما كنت فوراً ، رأسى تكاد تنفجر ، تضطرب بين الامتلاء بالطبيعة والصخور والمحيطات وخريطة العالم ثم الفراغ حتى من نسمة هواء جافة ، أين المهرب ؟

* * *

اقتربت من المنزل وقد ملأنى الخوف من الدخول « هكذا » حتى لا يكتشف أمرى ، كدت أدق جرس غريب افندى بدلا من جرس شقتى ، تذكرت أن جرسه معطل ، خيّل إلى أن هذا سبب كاف للعدول عن الذهاب إليه ، اقتربت أكثر فسمعت صياح زوجتى فى ابنتى « أخسر دينى إذا لم أقل له » تخسر دينها أو تكسبه مالى أنا ؟ أنا لا أعرف رداً عليها فى الأحوال العادية فما هو الرد الآن ؟ إذا كنت قد عجزت عن الرد على سؤال الموظفة

عن اسمى ، فكيف أرد على ما ينتظرنى من شكاوى وطلبات وتساؤلات، أسترجع ردودى زمان وأحاول أن أحفظ بعضاً منها مما يصلح لكل المواقف ، كما نجحت فى أن أحفظ اسمى منذ قليل .

صوت أقدام على السلم، حدسى يقول لى إنه «هو» ، أتلكأ فى دق جرس بابنا ، يقترب وقع الأقدام ، أخاف أن أنظر إلى خلف خشية أن يكون «هو» أو ألَّا يكون «هو» فى نفس اللحظة ، ولأول مرة أتبين أن الخوف خوفان (على الأقل) بل إن مصدره من داخلى مختلف: كنت أنتظر الأستاذ غريب مثل الطفل الذى سيستأنس بأخيه الأكبر ، وكنت أخاف ألا يأتى فيتركنى وحيداً فى يدَىْ زوجتى التى كادت تخسر دينها منذ لحظات إن لم تقل لى ماذا فعلت ابنتى ، وكنت فى نفس الوقت أتجنب لقاءه حتى لا يعاقبنى على فعلة لم أفعلها — اقتربت الأقدام أكثر ، كان هو فعلا الأستاذ غريب ، حيانى بهمهمة لم أسمعها ، أخرج مفتاح شقته وأدخله فى ثقبه وأداره فى هدوء ، دخل من الباب ، قبل أن يغلقه نظر إلى وجهى وابتسم ابتسامة رائعة لم تكتمل ، يبدو أنه لاحظ شيئاً فى وقفتى أمام الباب ، تردد قليلا حتى تأكد من وجود أصوات الأولاد بالداخل فأقفل الباب فى هدوء ، كاد يسألنى « مالك » قبل أن يحكم إغلاق الباب، ليته فعل، الحمد لله أنه لم يفعل، أصابنى شعور غامر بالكراهية تجاهه حتى كدت أناديه لأقول له إنى ألعن اليوم الذى اصطبحت فيه بخلقته ، هذا التناقض الهائل جعلنى أدرك أنه كما أن هناك خوفان فهناك كراهيتان وحبان وصدقان وكذبان . . . هناك دائماً اثنان على الأقل .

هل هذا هو الجنون ؟

لا.. فما زلت أعرف الأيام والساعات والطريق إلى بيتى وأسماء أولادى ،

إذاً فهى الفلسفة ، ويبدو أن فلسفة هذه الأيام تُعدى مثل الانفلونزا والتيفود ، ولا بد أنى أخذت العدوى من الأستاذ غريب ، هذا هو جزاء مساعدة الناس ، نفتح لهم بيوتنا ويستعملون أشياءنا ولا نأخذ منهم إلا العدوى بالأفكار الهدامة التى تشبه الفلسفة ، حتى ولو لم يتكلموا حرفاً واحداً .

دققت الجرس ودخلت ، انهارت علىّ الكمات الأطفال من كل جانب ، ملت إلى زر الكهرباء لأتأكد أن النور لم يقطع بعد ، اطمأننت أن مهمتى الصباحية قد تمت بنجاح فى الوقت المناسب وأن الحكومة ان تتدخل فى شئونى الخاصة ، كنت أهرب من محاولتى أن أفهم أى شىء مما يدور حولى حتى لا أفشل فشلى السابق ، كان بصرى أحدّ من أذنى ، أخذت أنظر إلى حركة الشفاه المفتوحة المنغلقة تصدر منها أصوات عالية كاللكمات ، تعجبت لهذه القدرات الفريدة التى تتمتع بها هذه الحيوانات الناطقة ، قلت بضعة همهمات ملخصها أن « بعدين بعدين » أى شىء يمكن أن يتم فيما بعد ، حتى بعد أن حدث ما حدث فإنى على يقين من أن شيئاً ما سيتم فيما بعد .

جاء صوت زوجتى من الداخل :

— مين يا بت ؟

جمعت كل قوتى القديمة ومررت عليها أمام المكنة وأبلغتها أنى دفعت النور ، لم ترفع بصرها من على طيات القماش وحركة الإبرة ، حيث كانت الطيات فى وضع حرج ، وكانت الإبرة صاعدة هابطة فى نشاط وثقة تلم شمل الطيّتين ، أحسست أنى فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الحركة ، شيئان فى داخلى انفصلا عن بعضهما البعض ، أريد أحداً يمسكنى « منهما معاً » يلم أطرافهما على بعضهما البعض، يغرز فيهما هذا المثقاب الواثق النشط، ذى الخيط

المتين ويا حبذا لو كان سلكا من الصلب يضمنى على بعضى حتى أعود «واحداً» كما كنت، ولكن هل كنت واحداً أبداً ؟ إذن فلماذا لم أذكر اسمى فوراً عندما سئلت عن هذا الواحد ؟ ومن الذى كان يخاف الأستاذ غريب ويتعجب من عم محفوظ ؟ كيف يحدث ما حدث ؟ أحاول أن أنسى فلا أستطيع ، إما أن أعرف من « أنا » ومن « هو » ؟ وأما أن أبحث عن ورشة تحكم ربط أجزائى بعضها إلى بعضها ، أخبرت زوجتى أنى سأدخل لأرتاح قليلا.

دخلت حجرتى ، طالعتنى المرآة بالرغم منى ، شىء أصفر صفرة الموت ، يقبع بين كتفيه اسمه رأسى، ليس رأسى أنا، وازددت هلعاً ، أخذت أزدرد ريقى وأحاول أن أبتعد عن المرآة تماماً ، كدت أتناول أقرب شىء صلب أحطمها به ، تمالكت نفسى فى آخر لحظة ، ما زال بى شىء عاقل يحسب العواقب، ولكن كلما ظهر هذا الشىء العاقل زاد الصداع فى رأسى ، أكاد أتمزق فعلا . . لم يهدئنى فنجان القهوة السادة ، والأسبرين ولم يعفنى من الصداع .

حاولت آن أنام ، آذهب إلى الأستاذ غريب ، أن أصحو ، أن أقرأ صحيفة اليوم ، لم أستطع أياً من ذلك .

دخلت تحت الغطاء وإذا بجسمى ينتفض وكأن به حمى، لم أسمع فى حياتى أن كلمة عابرة من موظفة أمام شباك إيصالات النور تقلب إنساناً عاليه سافله مثلما فعلت فى تلك الكلمة ،هل أصبت بالحمى؟ ترى هل كانت الحمى بأحشائى منذ زمن ولم أتبينها إلا هذا الصباح أمام هذه المرآة ، وما علاقة الحمى بالفلسفة ، هل هذا هو التخريف الذى يصحب الحرارة أم أن هناك فلسفة باردة وفلسفة ساخنة تماماً مثلما هناك المسقعة والبليلة الساخنة — هل هذا مجال السخرية والقفشات ؟ الرعشة تزداد وزوجتى تدخل على لترانى فى هذه

الحال ، أخاف من شيء مجهول تضع يدها على جبهتى ورائحة المطبخ مازالت تفوح منها ، شوحت بيدها فى طمأنينــة أو فى استخفاف ، قائلة إننى بارد كالثلج ، ورغم نظرات الرفض المصاحبة فقد كان فى عينيها خوف ما ، ولما أكدت لها أنى ارتجف بالرغم منى يداعبها اهتمام نسبى .

لو أن الأمر انتهى بعد كل هذه المغامرة إلى مشكلة طبية لأصبحت أسعد الناس ، عرضت عليها الفكرة ، اتجهت نحو الصيوان تستشيره فى استشارة الطبيب ، فتحت درجاً يتوقف محتواه على السماح بمثــل هذه الرفاهية من عدمه (الذهاب إلى الطبيب عندنا لا يعتمد فقط على درجة المرض المتقلبة) انفرجت أسارير زوجتى إذ يبدو أن الدرج كان يحوى بقايا « جمعية » قبضتها منذ ايام مما يسمح بأن أذهب للطبيب لمعرفة طبيعة هذه الحمى الخبيثة التى أصابتنى إثر « كلمة عابرة » ذات صباح .

الفصل الثاني

إما أن نعود ... أو ... نقتلك

فى قرارة نفسى شعرت بشىء من الراحة حين تصورت أن ما بى يمكن أن يكون حمى أو حتى مجرد مرض يمكن أن يعالجه طبيب ، ولكن جزءاً منى كان يعرف أنى مسام فيما حدث بشكل ما ، فهو لم يأت هكذا مثل القضاء والقدر ، ولكنى أعلم الآن أنى كنت أسعى إليه ، أنتظره ، أو أتمناه بشكل ما ، رغم أنى كنت أخاف منه ، أتحاشاه ، أهرب من مجرد احتماله ـ غيظى من الأستاذ غريب ، ضجرى مما كنت فيه ، تساؤلاتى حول عم محفوظ ، لو قالوا لى ألف مرة ومرة ، قبل أن يحدث ما حدث ، إن الإنسان يمكن أن يسام فى اختلال توازنه لهزأت بهم واعتبرتهم قساة القلوب جهلة ، أما بعد تلك الكلمة ذلك الصباح ، وبعد أن دارت رأسى وفرغت وامتلأت وانقلب عاليها سافلها عرفت أن وراء الأمور أمور ، وحمدت الله أن أحداً لا يعلم هذه الهواجس وإلا اتهمونى بالتمارض والادعاء ، إلا أنى لو كنت أعلم أنها كانت ستكون بمثل هذا العنف والرعب والسخرية والغرابة لما سعيت إليها أبداً ، ولكنى لم أسعَ إليها .. بل هى التى سعت إلىّ .. ولكن يبدو أن « هى » .. ليست إلا « أنا » .

هل من سبيل إلى التراجع ؟

لعلى أجده عند طبيب الحى حين يكتشف المرض بإذن الله ، ولكن ماذا سأقول له . .

شىء عجيب هذا الذى فىّ — كيف يأتى وكيف يذهب ؟ لست أدرى

على وجه التحديد ، أحياناً أشعر بانقلاب السماء على الأرض تتملكنى الرعشة من رأسى إلى قدمى وأحس كأن رأسى كتلة من السحاب أو من القطن المندوف ، أو من الدخان القاتم المتكاثف ، ويقوم بينى وبين النـاس ساتر كثيف وكأنهم يتحركون على بعد لا أعرف مداه ، وأحياناً أحس بصفاء كامل مع تغيير شامل فى نظرتى للحياة وكأنى كنت مسافراً لعدة قرون ثم رجعت فجـأة ، وأحتار بين غربتى ووحدتى وأصاب فى فترة صحوى بميل قاس إلى فـكاهة عابر السبيل الذى لا يعنيه إلا أن يربط بين الأشياء ربطاً خاصاً جديداً وفريداً ، إذ تتشابك فى عقلى العلاقات والرموز بشكل أقرب إلى قفشات الحشاشين ، وأكتم هذه التعليقات فى داخلى خشية أن يضبطونى متلبساً فيصدرون أحكامهم على، إما بالجنون ، أو بالتمارض وفى كلا الحالتين لن أسلم من أيديهم .

يا ويلى لو ذهبت منى الرعشة قبل ذهابى إلى الطبيب ولم يبق عندى إلا هذه السخرية الحشاشة : ربك يستر .

* * *

دخلت عيادته وكلى أمل أن أجد حرارتى مرتفعة حتى بدون رعشة ، أو أن يكتشف فى عقلى جنيناً غير شرعى يمكن أن يخلصنى منه كما سبق أن فعل مع زوجتى حين خلصها من ضيف الصدفة الذى استقر فى أحشائها على غفلة منا بنية إفشال جهود تنظـيم الأسرة وتهديد العالم بالمجاعة ، ما زلت أذكر أن هذا الطبيب الإنسـان قام بعمل اللازم فى أمانة وثقة ، واعتبرته أيامها بطلا وطنياً إذ ساهم فى تخفيف أعبـاء الوطن — وخصوصاً وزارة التموين — بهذا العمل السياسى السرى . إجهاض زوجتى .

كان طبيب أمراض نساء وأطفال أساساً ، وكنا نستشيره فى كل شىء

من أول التخلص من ذلك الزائر المشاغب ، حتى مشاكل كحك العيد ، فجأة ضبطت نفسي متلبساً بهذه السخرية، ارتعشت ، وانزعجت ، وأخذت أبحث عن ذلك الشخص القديم الذى كان يخاف من زيارة الطبيب ويخرج من قبل السؤال عن الميعاد ، ويشغل باله كل الوقت بكل تفاصيل طلبات زوجته غير المفهومة.. فلم أجده ، هدأت قليلا وتجسد أمامي عم محفوظ فوجدتني أنظر إلى اللافتة المعلقة « أخصائي أمراض نساء وولادة وأطفال » وأشعر بسعادة غريبة لأني متأكد بشكل ما — أن مابي لا يتعدى هذه التخصصات الثلاث ، إذاً فأنا الشخص المناسب وهذا هو المكان المناسب ، فهو إن لم يستطع أن يخلصني مثلما خلص زوجتي من الطفل الغريب الذى دخل عقلي دون استئذان ، والذى أكاد أشعر به أحياناً وهو يخرج لى لسانه بين الحين والحين فقد يخمدني حتى أنام بعض الوقت ، أكاد أتذكر أني تخايلت به (الطفل فى عقلي) أثناء ذهابي إلى النوم ليلة أمس وهو يكاد يقفز من مخي بالرغم مني ليجرى فى الحجرة حولي ، وكنت أكذب نفسي وأحاول أن أتناسى هذا الأمر خشية أن يظن بي الظنون ، وقد حاولت أن أتجاهله فى كل مرة ظهر فيها كما حاولت أن أطمسه بالانشغال والتوهان وربما بالرعشة ، ولكنه كان يقفز داخلي دون استئذان بالرغم من كل ذلك ، وفى مرة أخرى ضبطته ينهنه نهنهة مكتومة فى صدرى بالرغم من أنى ساعتها كنت أكلم زوجتي ، وحمدت الله على أنها لم تسمع .

دخلنا جميعاً إلى الطبيب (الرجل الحامل الذى هو أنا والطفل وزوجتي) وأكرمنا الممرض فقدّم دورنا لصداقة قديمة ، بعد أن تأكد من إشفاق الآخرين عليّ لما يصيبني من رعشة بين الحين والحين ، ولكني لا أنسى نظرة الممرض بعد أن أخذ حرارتي قائلا « ستة وثمانية » (وقد كدت أرد

عليه : أربعتاشر) ، ولـكننى خشيت وأنا داخل إلى الطبيب أن تتكرر تلك النظرة على مستوى أقسى ، خاصة وأنى كدت أقفز على كتفه لما نادانى للدخول ، ولـكننى تحـكّمت فى نفسى بسرعة وجهد ، ولم أحاول أن « أنهرنى » أكثر حتى لا تزداد الرعشة فأتعثر وأقع . . توكلت على الله . ودخلنا . .

* * *

ما إن جلست أمامه حتى نسيت كل ما كان ، حتى الأفـكار الخاصة بالأعراض اختفت ، وتركت لزوجتى المجال لتحكى له قصة لا تعرف عنها شيئاً ، وبعد التحيات والسؤال عن بقية الأولاد .. اتجه إلى مستفسراً .

— كيف الحال ؟

شتان بين هذه وتلك ، فليأت الأستاذ غريب ليتعلم كيف يسأل الناس الطيبين عن الحال ، وأجبته نفس الإجابة .

— الحمد لله . .

ولـكن يبدو أنه لم يسمعنى ، كان مجرد تلطف عابر يسمح له بعد ذلك أن يعرّينى ويضع آلاته على جسدى وكأنه يبحث عن شىء يمـكن العثور عليه ، فى حين أنه مشغول — على أحسن الفروض — بعدد الـكشوف البـاقية أو بميعاد زوجته التى تنتظره أمام الـكوافير ، كنت قبل ذلك أخشى التمادى فى مثل هذا التصور وأتهم نفسى بسوء الظن ، أما اليوم فأنا أكاد أقرأ أفـكاره ، أكاد أقسم أنه أصدر قراره بطردى لتفاهة حالتى بعد أن اطّلع على الورقة المـكتوب عليها نتيجة قياس الحرارة ، ورغم أنى كنت على يقين من ذلك إلا أنه كان عندى أمل فى حدوث شىء آخر بشكل أقرب إلى السحر .

— مم تشكو ؟

— لا شيء

« زغرت » لى زوجتى « زغرة » المذعور وكأنها تقول « كسفتينا الله يخيبك » ونظرت إليها بارتباك ، وأحسست أنى فى امتحان ، وينبغى أن أقوم بتسميع ما حدث ، وهى لا تدرى أن ما حدث هذا ما زال حادثاً فعلا ، ولكنه يأتى بمزاجه الخاص ، يفعل بى الأفاعيل ، وينتهى فجأة دون تدخل منى .

أنهى الطبيب الموقف بأن قال :

— على كل حال ، دعنى أطمئن عليك ، هيا إلى الكشف .

حمدت الله على أنه أنقذنى من تحقيق طويل لم أكن واثقاً من نهايته السلمية ، خلعت ملابسى من على نصفى الأعلى وفرحت حتى كدت أضحك لأنى تصورت أنى فى الحمام مثل زمان حين كانت خالتى أم صبحى تدخل معى ليلة العيد الصغير ، تليِّفنى ، وكنت أسعد سعادة غامرة حين أتخلص أمامها من كل ملابسى وصوت وابور الغاز يتماوج ، تحت الطشت النحاس ذى الوسط المخنصر ، وهو قائم فوق الوابور فى شموخ وأنفة ، وبخار الماء والدخان ورائحة الغاز تختلط بغناء أم صبحى فى كتلة واحدة تملؤ جو الحمام ، وأنا سعيد بهذا العرى ، وسعيد أكثر بأنى عريان أمامها بالذات وكنت ألمح أحياناً نظراتها تقول : « والله كبرت وما بقى إلا أن تتزوج »وأحس بفخر الرجال، حتى أكاد أقفز إلى رقبتها وأقبلها ، وأنتظر حتى ينتهى الحمام فتلفنى فى البشكير، وتحملنى فوق ظهرها الطرى فالتصق بها فى فرحة التصاقاً لا يبرره خوفى من الوقوع ، ويدى تحيط بعنقها من خلف حتى أكاد أضعها وتضعنى بجوار أمى مازحة « اسم الله عليه ، بسلامته

عايز يتجوز » ، ويشرق وجه أمى بالفرحة النسائيه الخاصة التى تُرى على وجوه نسوة هذا الزمان حين تصل قفشاتهم إلى تلك المنطقة الخاصة من الحديث التى « تدغدغ » وجدانهم وتهيئهم لأعمال الليل الممتعه فى تسليم وانتصار معاً .

إنتهيت على صوت الطبيب وهو يحدث زوجتى عن اختفاء الصابون ، وكأنهم قد ضبطونى متلبسا بخيالات الحمام ودفء ظهر أم صبحى ، والإشراقة الجنسية على وجه أمى ، تقدم الطبيب ووضع السماعة على أجزاء مختلفة من صدرى ، تلك الآلة السحرية التى ينحنى أمامها وتحتها أعظم عظيم فى تسليم واحترام ، ولم أكن مهتما إلا بقراءة أفكار الطبيب وهو يضع السماعة على صدرى ، رأيته فى خيالى مشغولا بحساب الميكانيكى ، وهو يشك فى أنه قد غيرّ قطعة الغيار كما وعده ، ويتساءل هل ستسير العربة بعد هذه السرقة دون عطل ، أو أنه موّال لاينتهى .

— خذ نفس

ترى : هل يقولها لى أم للميكانيكى ؟ كدت أضحك بالرغم منى وأنا أكاد أمد يدى إلى مطاط السماعة كأنها نرجيلة فى قهوة الفيشاوى آخذ منها نفساً ، نظرت إلى وجهه لاتأكد أنه لا يقرأ أفكارى كما أقرأ أنا أفكاره ، إطمأننت إلى أنه لايصل إليه إلا طاعتى العمياء ، أفكارى وذكرياتى ونزعاتى هذه تتم فى أقل من ثانية ، أحاول أن أقارن بين هذا الطبيب ، وبين الميكانيكى الذى تصورت فى خيالى أنه يتهمه بالسرقة ، فالميكانيكى يتعامل مع مئات الماركات دون أن يسمع شكواها أما الطبيب فهو لايتعامل إلا مع الآلة البشرية ، وهى ذات تركيب واحد ، أعظم ما فى حالتى أنها حالة سرية ، فعلى الرغم من اعتقادى بأنى أقرأ أفكار الناس ، فإنى أصبحت

متأكداً أن أحداً لا يستطيع اختراق أفكارى ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يتابع هذا السيل من الشطحات والمرج العظيم . . خطر ببالى أن أذهب إلى ذلك الميكانيكى أستشيره فى حالتى إذا ما فشل هذا الطبيب فى إجهاضى ، أو علاج طفلى ، أو إكتشاف حمى الفلسفة التى أصابتى .

* * *

أخذت نفساً ونفساً وسعلت ، وتقلبت على الجنبين ، وحين انتهى دور السماعة وبدأ ينقر على ظهرى كدت أسمع ذلك الطفل بين ضلوعى يقول

— مين ؟

ولم يرد عليه أحد .

— مين « اللى بيخبط » .

ولم يرد عليه أحد .

إنتبهت إلى ما يدور حولى بوعى عادى ، وبسرعة اختفى كل شىء فى الداخل ، عاد الغمام يظلل فكرى وانتبهت إلى موقعى من الحجرة ، وإلى وجود الطبيب بجوارى ، وأحسست أنى لا أذكر متى جئت وكيف ، وكدت أعتذر له عن بعض أفكارى ، نظرت إلى وجهه أستفسر إن كان قد وصل إليه أى شىء ، لم أجد إلا هذا الجمود الطبى الباسم فى حرفية حتى يحمى نفسه من شطحات أمثالى .

الصداع يكاد يقتلنى ، إختفت كل أعماقى ولم تبق إلا قشرة جافة داخلها خواء يتردد فيه الصدى ، بدأت أرتجف بعنف وبدا على زوجتى مسحة من فرح حتى يرى الطبيب الحالة بنفسه ولا تضيع أجرة الكشف هباء ، ولاحظت بدورى بعض الاهتمام على وجه الطبيب ، ولكنه اهتمام العارف ببواطن الأمور مسبقاً .

قال فى هدوء .

— إنك ترتجف من البرد ، لست متعوداً على التخلى عن ملابسك فى حجرة واسعة مثل هذه .

لم أرد ، ولكن زوجتى اعترضت قائلة .

— هذه هى الحالة يا دكتور ، وهى تأتيه بنفس الشدة وهو متدثر بكل ملابسه ، وحتى وهو تحت اللحاف .

— لا تخافى ، فهى نوع من الحساسية للجو .

كنت أتابع الحديث عنى فى استسلام وتحد معاً ، إستسلام من لا يملك من أمره شيئاً ، وتحدٍّ لثقتى أن أياً منهم لن يصل إلى داخلى ولو بأشعة الليزر .

ولكن الرعشة اشتدت بى ، وملأ الغيام عقلى حتى أخذت أصر على أسنانى بعنف لأوقف هذه الدوامة من الفراغ التى تلف فى رأسى ، ولم يلاحظ الطبيب شيئاً من هذا كله .

فى الوقت الذى كنت مطمئناً إلى أن أحداً لا يرانى ، كان جزء منى يتمنى أن يرونى بأى درجة فيها ظل مما يجرى ، تمنيت أن يسألنى أكثر ، وألا يدعنى أزوغ منه ، أن يتصور أن ناراً تغلى فى داخلى حتى لو كانت حرارتى صفراً ، كنت أعرف أنه رجل طيب وماهر فى صنعته ، وكم انبهرت بذكائه قبل ذلك ، ولكنه فى هذه المرة لم يكد يلمحنى أصلا .

تناول قلمه وأخذ يكتب بعض الأشياء التى لا بد وأن أتناولها قبل الأكل وبعده ، وأخذت زوجتى تستفسر منه عن بعض التفاصيل ورد عليها بأن كل شىء مبين بالتذكرة .

سألته سؤالا أخيراً .

— والنوم

قال :

— كل شيء سيعود كما كان بعد استعمال هذه المقويات ، ضعف عام وإرهاق ، ليس إلا .

* * *

خرجنا من العيادة وأنا أكاد أحس بنظرات زوجتي تلكزني في جنبي وكأنها تلومني على هذه المصاريف الضائعة ، وعلى ضعف احتمالي ، وربما ضعف شخصيتي .

كدت أنكمش خجلا من نفسي ، وحاولت أن أصور الأمر على أنه كابوس وسينقضي إن عاجلا أو آجلا ، وبدأ الصداع الحاد يحل محله ثقل غريب يكاد يقفل عيني ، وسرت بجوارها وكأني منوم أحاول أن أختبيء في ملابسي عن أعين الناس حتى لا يعرفوا أني متمارض أو بي مس من تحت الأرض .

* * *

أمضي الليل مع الوحوش والثعابين والصقور والحيتان ، أصارع الفهد على حافة البحيرة والزواحف تلتف حولي من كل ناحية والصقور تأكل جثتي في منظر آخر ، وأقوم من النوم فزعاً ولكن في صمت ، أنظر إلى وجه زوجتي وأحمد الله أنها نائمة ، أو أنها لم تكن معي في تلك الغابة التي زرعت في رأسي فجأة وامتلأت بكل أنواع الحيوانات والهوام والطيور الجارحة ، أحاول أن أنام فلا أستطيع ، أذهب إلى زجاجة الدواء وأشرب من فوهتها مباشرة ، بلا فائدة ، أشعل سيجارة وأحاول أن ألتهم دخانها بتلاحق حتى أصاب بذلك الخدر الذي قد يساعدني على النوم ، أنجح أخيراً في أن أغفو بعض الوقت ، أصوات القطارات تتلاحق في غير انتظام ،

تخرج عن قضبانها ، تطير فى السماء ، تصطدم بطائرة جانبو خطفها أحـد الفلسطينيين ، يتساقط الأطفال بالأجنحة من نوافذ القطار والطائرة إلى أرض الجنة ، الموسيقى الخاصة تملؤ أرجاءها حتى تـكاد الأشجار تمايل معها ، الأنهار تجرى من تحتها ، ينزع الأطفال أجنحتهم ويسبحون فى أنهار الجنة ، آخذ جناحين وأحاول تركيبهما فى ظهرى ، أحس أن هذا ممكن ، أصفق بها من خلف مثل الإوز حين يجرى لجأة صائحاً فى جماعات دون هـدف ، يتناثر رذاذ المـاء حول جسدى ، أزيد من حركة الجناحين ، أطير ، يملؤنى الخوف ، أتحسس جناحيّ فلا أجدهما أبدأ فى السقوط ، الرعب من التهشيم يملؤنى ، تبتعد الأرض عنى ، أتمنى السقوط حتى الموت بدلا من هذا الرعب بلا نهاية ، أصرخ أصرخ أصرخ ، تهزنى زوجتى ، أصحو ، أنظر فى عينيها .

— مالك ؟

أخاف منها بقدر خوفى من السقوط إلى الأرض ، أخجل أن أحكى لها الحلم تقول .

— إخز الشيطان وقل باسم الله الرحمن الرحيم .

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم .

تضع يدها فى رقة على جبهتى ، أحس بالراحة لها لأول مرة منذ فترة الخطوبة ، أتمنى أن تفهمنى أكثر ولو قليلا ، أرعب من هذه الفـكرة . . لا . . لا ينبغى أن تفهمنى أو أن ترانى من داخل ، أنظر فى الساعة ، السادسة والربع : الحمد لله جاء النهار وسأذهب إلى عملى ، ولـكن رأسى يصبح فارغاً حين أفـكر فى مشاكلى اليومية ، ويمتلىء حين أسبح فى دنيا الذكريات والأوهام ، كيف سأذهب إلى عملى اليوم ، كيف سأراجع الملفات وأرص الفواتير ، كيف سأواجه هذا الصباح وهو ليس مثل كل

صباح ، فيما مضى كان الذى يخفف من هول الصباح أنه مثل كل صباح ، أما أن يكون جديدا مختلفاً فهذا أمر يحتمل الموت أو الحياة ، وهذه حالة لا نطاق ، ماذا جرى لى يارب ؟ ما هذا الشىء الذى حدث — لماذا يتضخم كلما حاولت أن أستهين به ، شىء ما قد حدث يا ناس ، شىء خطير يهز الدنيا ويفجر البراكين : — القارعة — الزلزال — الحاقة — الواقعة ، أى شىء له هذا الوقع الضخم المرعب ، بدا بسيطا لا معنى له ثم هو يتضخم كل يوم ، انقلبت الأمور تماما ؛ زادت تعقيداً ؛ أتذكر الأستاذ غريب وعم محفوظ السباك فأهدأ قليلا ؛ ولكن الشىء أضخم من كل هدوء ظاهرى ماذا أقول لهم فى العمل أقول لهم أن حرارتى ستة وثمانية ؟ أقول لهم أنى ذهبت إلى طبيب أمراض نساء لأنى حامل فى طفل لا يريد أن يتركنى فى حالى ؛ أقول لهم أنى نسيت إسمى وأنى تعرف على الألوان لأول مرة فى حياتى ؟ .

ومع ذلك ، فليس لى خيار ، عملى هو مصدر رزقى الوحيد وهو فى نفس الوقت المهرب الشرعى من البيت ؟ لا بد أن أذهب اليه حتى لا يموت أطفالى جوعا أو أموت أنا اختناقا ، « كل شىء تغير ، كل شىء تغير » حقيقة لم يعد فيها جدال حتى لم تعد ترعبنى ، ولم أعد حريصاً على مقاومتها أو رفضها ، وعجبت أنى استسلمت هكذا فى خلال هذه المدة القصيرة ينبغى على أن أبدأ من جديد ، أن أتعرف على الأشياء والناس من الأول ، ولكن هناك مشاكل عاجلة لا تنتظر كيف سأقوم بعملى وأنا لا أكاد أتذكر جدول الضرب ، كيف أكتب المذكرات وأنا أجاهد لأجمع حروف الهجاء لأكون كلمة ، ومع ذلك فأنا لا أملك إلا المحاولة والمواجهة والاستمرار . . ياعبء العمل اليومى . . يا ثقل الهواء يا ناس ! !

في نفس الركن من الحجرة جلست أمام مكتبي أحاول أن أختبىء منهم حتى لا يظهر عليّ ما بي — أخرجت الملفات ووضعتها بجوارى وأعدت رصها ، وكنت قد حاولت أن أقرأ تعابير وجوههم وأنا ألقى عليهم تحية الصباح لأختبر فيها أى انطباع غير عادى ، وحمدت الله أنى لم ألاحظ شيئاء الغريب أنى تعرفت بهم هذا الصباح «ككتلة من البشر» مجتمعين بلا تمييز أنا أعرف إسم كل واحد منهم على حدة ، ولكنى لا أستطيع أن أذكره وحده ، كلما ذكرت إسما لاحقه أو صحبه إسمان ، ثلاثة ، عشرة ، الجميع ، وكأن عقلى قد أصبح جهازاً من نوع آخر ، يرفض أن يميز بين الناس و بعضهم البعض ، يحقق بطريقته الخاصة — وفى وقت واحد — جوهر الدين وهدف الشيوعية ، أمّا عواطفى فإنى أحس أن شيئا ما قد استيقظ منها حتى اختلت كل القيم التى ارتبطت بها وامتد الخلل إلى تضارب وتناقض ليس له تفسير ، ففى الوقت الذى تيقنت فيه أنى لم أعد أحب أو أكره أو أحزن أو أفرح مثل زمان ، أدركت أنى لم أحب أو أكره أو أفرح زمان أبدا ماذا حدث ؟ ربما اختلف نوع الحب والكره أو هدفهما أو معناهما ؛ أنا الآن أستطيع أن أحب مثلا ولكنى لا أجد من أحبه، وفى أحوال أخرى أخاف أن أحب بهذه الدوافع الجديدة لأنى أحس أنها من نوع آخر ؛ ربما أكثر صراحة وربما أكثر وقاحة . أما كيف ولماذا ؟ فهذا ما يكاد يطرحنى أرضا بعد أن ينهكنى التفكير فى ما لا علم لى به ، ثم أستسلم فى النهاية إلى الفراغ بلا قاع .

وأحاول ثانية : فأتذكر مشاعرى نحو زميلى أسعد . أو سيادة المدير او الأستاذ نصحى فأجدنى متبلدا لا تهز أسماؤهم شعرة فى داخلى .

وحين أنظر إلى « آمال » بجوارى أجدنى استطيع أن أعترف بحبها

ولكنه حب من نوع آخر ، كأنى كنت أحبها منذ بدء الخليقة ، أو كأنى أحبها هى الآن ولا أحب ما كنت أعرفه عنها ، شىء ما قد تفجر فى داخلى فى هذا الإتجاه أيضاً يدفعنى إلى الاقتراب منها دون حساب ولا استئذان ، ولا يمنعنى عن الإعتراف بحقى فى الرغبة من الإقتراب منها حتى الالتصاق، ليس جنسياً على وجه التحديد ، ولكن له طعم الجنس .

لا أكاد أصدق أن أحداً يمكن أن يتصور هـذا التناقض ، إما أنى أعيش اللامبالاة بكل برودها وجمودها ، أو أنى أتفجر بالحب والصـدق الوقح الذى لا يستبعد الجنس مع امرأة فاضلة ومتزوجة وحامل وفى شهورها الأخيرة ، أفليس هذا هو العجب العجاب !!

كل الناس تعرف أشياء أخرى غير الحقيقة التى أعيشها هـذه الأيام ، كنت مثلهم ، وكنت أحس أن حبهم هو الحب وأدبهم هو الأدب . . ولكنى الآن أعيد النظر وأنا فى رعب الوحدة ودهشة الغريب .. تأكدت أن شعورى نحو آمال ليس شاذاً ولا بشعاً ، إنه مجرد تفجير شىء موجود منذ عهد سحيق ، قبل ذلك كنت أتجنبها وأعاملها بشىء من الجفاء . ولم أكن أميز ذلك الشىء المختبىء بين أحشائى نحوها وإن كنت دائماً أخشى نظراتها الثاقبة التى تتخطى حدودك الظاهرة لتستقر بين ضلوعك مباشرة ، قبل ذلك كنت أحتمى من هـذا الفيض المقتحم بمزيج من الحيـاء والتبلد والجفاء ، ولـكن يبدو أن هذه النظرات والذبذبات تتراكم على مر السنين فإذا اختفت المشاعر القديمة إنطلقت من عقالها بلا توجيه .

نظرت إليها من وراء الصحيفة ، فوجدتنى مثلما كنت زمان .. زمان قبل هذا الزمان ، لقد كنت أيقنت أنى نسيت هذه المشاعر تماماً ، أو أنها كانت من خداع الطفولة والمراهقة ، مشاعر تغمر خلايا جسمى قبـل قلبى

أو عقلى وتدغدغ أعمق أحاسيسى ، قد يظهر على سطحها شهوة ما ، ولكنها ليست بالضرورة شهوة .

وحين فتح الباب المجاور فجأة إختفت كل هذه المشاعر فى جوف مثلما يغلق التلميذ الصغير درجه فجأة على قصة غرامية أثناء دخول والده عليه — لم يبق على وجهى إلا بقايا تقلصات جمدت مكانها من سنين — وإن كانت الآن قد أصبحت عبئاً لا أحتمله ، ما أسخف أن تشعر بعضلات وجهك أو أن ترصد حركاتها وكأنها تتحرك « بالسرعة البطيئة » .

ما هذا كله ؟

أريد أن اختبىء أنا نفسى تحت المكتب ، لم يكف أن أخفى مشاعرى فى الدرج مثل القصة الغرامية ولكن أخشى أن يرانى هؤلاء الناس من حيث لا أدرى ، أن يروا مالا أراه أنا مثلا ، لست واثقاً من حدودى ولا من مداخل ذاتى ، ملقى صريعا بين الامتلاء الغامر والفراغ الدائر إلى أسفل ، ما بين ما يدور فى رأسى بسرعة خمسة آلاف كيلوسيكل فى الثانية وما بين هذا الفراغ الهلامى المائل .. لا أتبين خيط وجودى .

هل أنا أحب آمال السيدة الفاضلة الزميلة المتربعة الحامل ؟ هل هذا هو الحب ، هل هناك مخلوق يعرف معنى الحب ، هل يمكن أن أحب وأنا أعرف أن مشاعرى كلها قد اختفت ؟ فإذا لم يكن هذا حباً فماذا أسميه ؟ هل لابد من لغة جديدة تتجح فى وصف هذه المشاعر الجديدة ؟ ولكن هل هذه المشاعر خاصة بآمال فقط ؟ هل أشعر بالتعاطف معها لما أتصوره أحيانا من أنى حامل مثلها ؟ ولكنى أشعر بهذا الطفل غير الشرعى يجوس خلال دروب عقلى فى السر أما طفلها فوجوده معلن مستقر . ولكنى أحسست بمشاعر مشابهة تجاة أخريات على وجه التحديد وآخرين أحيانا

« أمانى » مثلا ابنة جارتنا ، لمحتها هذا الصبـــاح فى الشرفة فكدت أقفز إليها ألقى لها بتحية الصباح بشعور مغاير لشعور الأبوة والجيرة ، قبل ذلك كنت لا أعير وجودها فى الشرفة اهتماما إلا بقدر اهتمامى ببائع الصحف يجرى فى الشارع أو قدر الفول على الناصية ، حتى مشاعرى تجـــاه الممثلات تغيرت ، سعاد حسنى التى كنت أستثقل دمها حين أراها وكأنها تتحدانى بحيويتها بدأت التعرف عليها من جديد ، وبدأت أحس نحوها بنفس هذه المشاعر الحية المقتحمة ، وفى الأتوبيس غمرتنى نفس المشـاعر نحو تلك التى كانت تجلس بجوارى ونحو العجوز التى كانت تمسك بحفيدتها ، ونحو حفيدتها ، وسائق الأتوبيس ومع كل هذا الفيض الذى لا أعرف اسمه فأنا فى قمة اللامبالاة إذ أنى على يقين من أنى لا أحب ولا أكره مثل زمان ..

* * *

أنتزع نفسى من بين سطور الصحيفة التى كنت أختبىء وراءها لأفكر فى حرية ، أحاول أن أنظر فى وجوه زملائى فلا أجد عليها إلا أثار فول الصباح أعظم مضاد للتفكير الخلاق ، مالى أنا وما « للتفكير الخلاق » ، لا أتذكر متى سمعت هذه الكلمة من قبل ولكنى ألاحظ هذه الأيام أن كلمات تقفز إلى ذهنى لم أكن أتصور أنها مرت علىّ فى يوم من الأيام ، ربما دخلت إلى عقلى من وراء ظهرى ثم ها هى ذى تقفز إلى سطحه وكأنها تتحدانى ، بل إنى ألاحظ هذا الصباح أن قراءاتى للصحيفة قد اختلفت ، ففى اللحظات التى استطعت أن أتعرف فيها على الحروف مرة ثانية وأنجح فى تكوين الألفاظ ، لم أتمكن من قراءة الأخبار العـــادية التى كانت تجذبنى قبلا (البخت والإعلانات والوفيات وأخبار الإصلاح الوظيفى) ينجـذب نظرى إلى المواضيع التى كنت أضعها تحت بند الكلام الفـارغ والضحك على الذقون « انتحار الفكر الجديد » ، « المد الثورى فى العالم

الثالث » ، « مخاطر المجاعة وانقراض الإنسان » ، كانت هذه العناوين تصيبنى بالإعياء ، أما الآن . . ؟

ماذا حدث لى دون إذن منى ؟

هل أنا أخدع نفسى بالترقى مباشرة إلى « كادر المثقفين » بعد أن تخطانى الإصلاح الوظيفى ، ما هو سر صداقتى السرية مع الأستاذ غريب ، وفى نفس الوقت مع عم محفوظ السباك ؟ ما هو وجه الشبه بينهما ؟ الأستاذ غريب بكل علمه وفكره وصمته وكتبه وغموضه — وعم محفوظ بكل أمانته وأمنه وبساطته وزهده وخجله وأسراره ثم أنا : عبد السلام المشد ؟ حتى إسمى له وقع غريب على ، عندما أنجح فى استرجاعه وسرعان ما أقسمه إلى أجزاء ، عقلى هذه الأيام متناه فى صفاته : إما أن يستقبل كل شىء مع كل شىء ، وإما أن يفصل كل شىء عن أى شىء ، حتى يكاد يقسم الحرف الواحد إلى قسمين ، اسمى يرعبنى حين ينفصل إلى أجزاء : عبد . . السـ . . لام . . المشـ . . ـد « أنا » ، ربما كان هذا هو السبب الذى حال دون تذكرى اسمى أمام تلك المرأة الكالحة ذلك الصباح .

ولكن من « أنا » فعلا ؟

وأكاد أقوم من على مكتبى أسألهم من أنا ، حتى أتأكد أنى إن لم أكن عبد السلام المشد فلا بد أن أبحث عن هوية أخرى أستطيع أن أقضى بها أبسط حاجاتى وألزمها من أول صرف شيك البنك بالمتأخرات حتى تموين السكر والزيت .

— الملفات يا أستاذ . . صباح الخير .

وأصاب بالفزع ، دخل صوت عم نجمه البسيونى إلى جسمى مباشرة غير

مار بأذنى كأنه ناقوس يأتى من عالم آخر يعرض على اختياراً فرعياً « إما أن تعود أو نقتلك » ونظرت إلى بسمته الآمرة وعينيه الواثقتين ، وفهمت لماذا يصورون الجلاد معصوب العينين ، قلت له على الفور .

— حاضر عينىّ الاثنين ، صباح النور .

ما زلت قادراً على العودة بسرعة لا يلحظها أحد ، ورغم الصـــداع والتوهان والانفجارات المتلاحقة ، يعقبها الصمت الميت فإنى ما زلت قادرا على الاختباء وراء المدعو « عبد السلام المشد » . .

* * *

لبست قناع اللامبالاة وأخليت رأسى وصــدرى وخلاياى من أى إحساس معوّق وحاولت الاختباء ، بدأت أقلب فى الملفات ، واكتشفت أنى أستطيع ، لبست نفسى وتركت القلم يتحرك على الأوراق ، يجمع هنـا ويطرح هناك . ويؤشر على هذه الصفحة ويشطب تلك ، وبعد فترة وجدتنى قد انتهيت من هذه الأوراق ، وأخذت أقلب فيها وأعجب كيف قمت بهذا العمـــل دون أن أعرف حرفاً أو رقماً ، أحسست أن مخى ما زال قادراً كما كان ، على شرط ألا أضبطه متلبساً بالعمل ، إذ ينبغى أن أظل بعيداً عنه ولا أحاول التعرف عليه ولا إدراك قدراته ، وحمدت الله أنى أستطيع أن أنسحب بين الحين والحين تاركا ورائى ذلك الجزء الفعـال يهيىء فرص كسب العيش ، والرد على التحيات الصبـاحية ، وارتداء الملابس وخلعها ، وعمل « زى الناس » من أكل وشرب وخلافه ....

ولكن إلى متى يدوم هذا الحل ، .. وآه لو فشل .

* * *

كدت أتعرف على ما جد بحياتى ، فاختفت الرعشة بعد بضعة أيام ، وكدت أنظم عملية فض الاشتباك بين أجزائى حتى صرت قادراً على أن أواصل سعيى فى الحياة دون أن يلحظنى أحد ، وفيما عدا تلك الأوقات التى تضبطنى فيها زوجتى متلبساً بالتفكير العميق ، أو الصداع الذى ينتابنى عندما أقابل الأستاذ غريب على السلم أو صعوبة ما قبل النوم مع زوجتى ، فيما عدا هذه المشاكل الداخلية — كنت أتحايل حتى لايبدو علىّ شىء ظاهر ، وحتى أنجح فى الاستمرار فى الحياة العادية وكأنى أسرق الأيام والساعات من أصحابها — أو كأنى كائن من كوكب آخر يتخفى فى ثوب إنسان ليجمع المعلومات عن هذه المخلوقات العجيبة التى تسعى فى غرور متناه لإثبات أن هذا العالم البشرى كيان حى له هدف ما ؟ .

أصابنى شىء من « الفلسفة التلقائية » التى أضفت على تفكيرى نوعا من الحكمة دون أسباب ، ودون جهد ، حتى أصبحت أشاهد الناس فى الأتوبيس والشارع والمكتب والبيت يؤدون أدوارهم بإتقان سطحى ، وتكرار ضرورى ، لزوم غياب المخرج الذى ذهب يبحث عن المؤلف الذى مات فجأة قبل أن يضع نهاية للمسرحية الكبرى ، فترك المخرج فى هذا الحرج العظيم ، وبدلا من أن يسدل المخرج الستار فى استسلام العاجز الذى ركبه العناد وأمر كل واحد أن يستمر فى دوره كما هو حتى يعود المؤلف ، وهو لم يعد بعد ذلك أبدا ويبدو أنه لن يعود أبداً ، والممثلون كل منهم يؤدى دوره ، أو يأتى بشبيهه الذى أعده فى ليالى الشتاء أو نشوة أجازة صيف ، وقام بتمرينه خلف الكواليس ليكمل نفس الدور بنفس الحركات ، وتلك الضجة فى الكواليس نتيجة ازدحامها : فالأطفال الزينة والطلبة وصبية الورش وعيال الفلاحين يتدربون على الأدوار البديلة ويستعدون للظهور

على المسرح فى الوقت المناسب ، كل ذلك فى انتظار المخرج الذى ذهب يبحث عن مؤلف مات فى السر قبل أن يتم الرواية .

ما هذه الحكمة التى حطت على دماغ أهلك بدون مناسبة .. ياسى عبد السلام ياسبع الليل؟ ماأروع اللعبة الجديدة! ولكنها هى هى مشاعرى الخاصة والله العظيم دون تأليف أو خيال ، إذاً أنا جدع .. وعندى فهم !!

وكنت أتعجب وأنا القادم من الكوكب الآخر من هذا الإخلاص الغريب والوفاء الذى يتصف به هذا الكائن البشرى ، ولكن بعد أن طالت فرجتى بضعة أسابيع علمت أن المسألة ليست مجرد إخلاص فحسب ، بل إن أى واحد يتوقف عن أداء دوره أو يحاول أن يسأل المخرج أو ينعى المؤلف لا بد وأن يرسل فوراً بأمر شيخ الممثلين ليبحث بنفسه عنه ، ولا أحد يعرف مصيره لأنه لايعود أبداً كما كان ، حتى لو تاب واستغفر فإنه يعود بشكل آخر يؤدى دوراً آخر ، دوراً ثانويا بكفاءة ميتة ، وحماس فاتر ، وخوف أكبر ، ونظام أدق ، وكل همه ألا يرسلوه ثانية إلى الخارج .. ليبحث عن شىء لايعرفه .

وقد خطر ببالى بلا مناسبة أن المخرج اسمه : «حسن» ، «أين حسن» ؟

أما أنا ، فقد تعلمت بعدما جرى الذى جرى أن أرسل شبيهى الانسانى يؤدى دورى على المسرح بعض الوقت مما أتاح لى أن أجلس أغلب الوقت فى مقاعد المتفرجين لابساً طاقية الإخفاء ، وكنت أتعجب منه وأتساءل لماذا لا أصبح إنسانا مثلهم ما دام شبيهى الانسانى شاطر هذه الشطارة ؟ .

ولكن ماذا لو اكتشفونى ؟ قد ظنوا أنى أتيت للتجسس عليهم لصالح مواطنى من الكواكب الأخرى ، وأتذكر نظرات عم جمعه البسيونى وهى

تهددنى « أما أن تعود أو نقتلك ، إما أن تعود أو نقتلك » حتى تصنعت العودة ، ثم اهتديت إلى هذا الحل السرى المتجسس .

وأنجح فى معظم الأوقات أن أستمر راسماً على وجهى الآخر بسمة الناقد الذى يتظاهر بالفهم ، وأفشل أحيانا فى خداع نفسى حتى تساورنى رغبة غبيه فى الذهاب للبحث عن المخرج ، ورغبة أغبى فى البحث عن المؤلف ربما تكون إشاعة موته خدعه ليس إلا ، وأحيانا أخرى يبلغ غبائى أن أحاول أن أضع نهاية لهذه المسرحية ، أو أن أقوم أنا شخصياً بدور المخرج الهارب الجبان ... الذى تركنا دون ضابط أو نص أو أن أكمل المسرحية وأضع النهاية بنفسى .

* * *

طرقت باب الأستاذ غريب دون سابق موعد ، كنت قد تأخرت بعض الوقت عن ميعاد عودتى إلى البيت دون سبب ، فقد تعودت فى الأيام الأخيرة أن أترك قدماى تنفصلان عن جسمى وتتصرفان بوعى خاص ، أما أنا فقد كنت أنتهز الفرصة وأواصل الفرجة على هذا العرض المستمر بلا ملل ، وأتذكر أيام الطفولة حين كنا نختبىء ، فى دورة مياة دار السينما بعد انتهاء حفلة الماتينيه ، وذلك حتى نحضر حفل السوارية وبدون مقابل : نفس الفيلم ، نفس الأحداث ، لا مفاجآت ولكن مجرد الفرجه مرتين أو ثلاث كان ضربا من شطارة الفلاحين التى اصطحبتها معى من القرية إلى المدينة ، وفى بعض دور العرض الأخرى كان مسموحا « بالعرض المستمر » دون حاجة إلى الاختباء فى دورات المياه ، وحين كانت قدماى تسوقانى إلى حوارى سوق السلاح ، والسيدة زينب ، والمغربلين كنت ألاحظ أن التمثيل هناك من النوع « الواقعى » جداً : الأدوار مسبوكة والحركة طبيعية حتى تكاد تظن أنها ليست تمثيلا أصلا بالمقارنة بما يجرى داخل الشقق ووراء المكاتب

التى تتطلب بعض الفكاهات البذيئة وأحاديث السياسة الدائرية حتى تكسر الملل من المسرحية المعادة بلا نهاية .

فى تلك الساعة المتأخرة من النهار طرقت باب الأستاذ غريب بدلا من بابنا ، وأحسست بقرون استشعارى تسعى إليه تحاول البحث فى موقفه : ترى هل هو ممثل فى مسرحية لا أعرفها أو أنه متفرج مثلى ؟ أشعر أنى بإقدامى على هذه الخطوة أدخل دنيا جديدة علىّ تماماً ، دنيا تختلف عن تلك التى كنت أعيشها فى حالة التنويم السابقة وعن تلك التى أحاول أن أعيشها هذه الأيام ، ولو أنى أدركت أنى لا أعيش هذه الأيام ولكنى فقط ، أحاول تأجيل مصيرى الذى لا أعرفه بالفرجة والمكر وادعاء الحكمة واختراع نظريات جديدة — فتح لى الأستاذ غريب الباب بعد فترة وكان يبدو عليه آثار النعاس — يبدو أنى لم أنظر فى ساعتى لأتبين أننا بعد العصر .. وقت القيلولة — نظر إلىّ فى دهشة رغم أن جزءا منه بدا عليه وكأنه ينتظرنى منذ عهد بعيد ، مرت فترة صمت كادت تفسد علىّ توازنى ، هذا الرجل لا أستطيع أن أعامله مثل سابق علاقتنا ، ما العمل ؟ ترى ما الذى جعله يختلف عنهم إلى هذا الحد ؟ هل جاء من كوكب آخر غير كوكبى ؟ هل له شبيه إنسانى مثلى ؟ هل هو دائم الفرجة مثلى ؟ وهل هو سعيد بذلك أم شقى ؟ ولماذا هذا الشحوب الحزين ؟ أنا متأكد أنه كان يتفرج علىّ فيما مضى من أيام فهل يستطيع الآن ؟ قطع علىّ تساؤلاتى بقوله :

— خير يا عبد السلام أفندى ، اتفضل

كدت أدخل إلا أنى سمعت آخراً « فى داخله » يقول من خلال عينيه (أخيراً جئت !!) ورفضت التحدى ، وملكنى عناد طاغ حتى

لا أستجيب لتحديها لأخير ، وكأنى أقول له «لا.. لم أحضر بعد» ، وسوف أتمتع بالفرجه وحدى كما لن اسمح لك بالفرجة علىّ بعد الآن ، وسوف نلعب مع بعضنا البعض ، «كيكا عا العالى» كلما صعدت درجتين لتنظر من فوق صعدت أنا أعلى درجتين لأنظر لك من فوق الفوق ، أنا الآن — مثلا — استطيع أن أعرف أنك وحيد تماما ، وأنك خائف مثلى ، وأنك تبحث عن شىء لا تعرفه وأنت بدورك قد تعرف عنى مثل ذلك ، ولكن ما الفائدة ؟ لم أحضر بعد » .

ولكن صدر منى كلام آخر دون إعداد :

— آسف لإزعاجك ، ولكن النور انقطع لدينا فأردت أن أعرف هل عندكم نور أو لا ، حتى أبلغ المصلحة . .

— دقيقة واحدة

ذهب إلى الداخل كأنه يلتقط أنفاسه لإكمال المباراة ، غير أنه حضر بادى الامتنان وقال :

— نعم . . ليس عندنا نور أيضاً . . شكراً ، لقد نبهتنى قبل دخول الظلام .

— لا شكر على واجب ،الناس للناس، عندى التليفون وسوف أقوم باللازم .

* * *

هذا عجب ، والمصحف الشريف هذا عجب، جاءت هذه المرة سليمة ، بل ورائعة أيضاً ، ليس عنده نور !! مجرد صدفة ، ولكن أنا ؟ من أين لى أن أعرف أنه ليس عندنا نور أيضاً ؟ هل هذه هى آخر أخبار الزلزال ؟

هل كشف عنى الحجاب ؟

دخلت إلى حجرتى مباشرة بعد أن تخلصت برفق من ابنتى التى تعلقت برقبتى هاتفة لمجيئى ، أخذت أقلب فى بقايا الكتب التى علاها التراب فوق الصيوان ، تعجبت أنى فى يوم من الأيام اقتنيت مثل هذه الكتب ، أخذت أنفض عنها التراب وأعجب لأسمائها وكأنها لم تمر علىّ من قبل ، أو كأنى ودعتها منذ عهد بعيد ، رفعت الحشية عن الأريكة العربى التى تستعمل مخزنا فى نفس الوقت ، فتحتها ، وأخذت أخرج محتوياتها من كتب وأوراق ، ما هذا كله ؟ هل أنا أمتلك هذه الكتب فعلا ؟ متى نقلتها من بيت أمى ، أرادت أن تتخلص منها رداً على زواجى ، أخذت أقلب فى العناوين: «الحيوان » « سقوط الدولة الرومانية » « الوجود » « الأبله » « من هنا نبدأ » ، أين ذهبت هذه الأشياء جميعاً من عقلى طوال عشرين سنة ، ماذا حدث لى وأين كنت طوال هذه المدة ، كيف نسيت تماماً كل شىء ، كيف غفوت حتى نمت عشرين سنة ؟ لا بد أن هناك مسحوقا تضعه الحكومة فى الماء مثل الكلور يقفل مسام عقول الشباب رويداً رويداً حتى لا يفكرون إلا فيما «يفيد»،وينساب هذا الغاز السائل فى خلايانا لنكف عن التساؤلات السخيفة التى تقضى على فترة من شبابنا دون مبرر ، ويبدو أن خلاياى قد استجابت لهذا المطهر بطريقة قصوى حتى لم أعد استطيع — حتى — قراءة الصحف . ثم جاء هذا الزلزال ليشكك فى مفعول هذا المطهر العظيم ، آه لو علمت الحكومة تأثير هذه الزلازل على التفكير إذاً لطهرت جوف الأرض جميعها من كل الطاقات والحمم ، ولكن ماذا حدث لى حتى انتهيت إلى تلك الحال قبل الزلزال ؟ .

جاءنى شعور خاص أن شخصاً ما سرقنى ، وبدلا من ضياع الوقت فى البحث عن « حسن » ينبغى أن أبحث عن هذا السارق لأنتقم منه أو

أشكره ، أو حتى أسأله عن الطريقة التى تمت بها السرقة لإعجابى الشديد ببراعته : سرقة من أحدث طرق التحايل ، عملية نصب عالية تمت وراء ظهرى ، والمصيبة أنها لا تتم مرة واحدة ولكنها عملية تزيف مستمر ، شىء يشبه الاختلاس المنتظم الذى لايكتشف أمره إلا حين تخرب عقولنا تماما ، وأحاول أن أتذكر شيئاً معيناً فلا أستطيع .

أرجعت كل شىء مكانه بعد أن احتفظت ببضعة كتب قد أحتاجها فى المبارزة مع غريب ، وإن لم يكن لدىّ نية قراءتها ، كما أخرجت كومة من الخطابات عثرت عليها وقد علاها التراب وهى مربوطه بخيط من الدوبارة ، وما أن قلبت فيها حتى تذكرت أنها الخطابات المتبادلة بينى وبين زوجتى فترة الخطوبة ، وضعت كل ذلك على المنضدة القديمة فى ركن الحجرة وجلست بجوارها ويدى على خدى ، حتى فى زواجنا كانت تحيطنا آمال وأحلام بلا حدود ، كنا نتحدث كثيراً ونتحمس كثيراً وتمتلىء خطاباتنا بأفعال نابضة مثل « نقرأ .. نحاول .. نعمل .. نغير .. نتألم » هذه الأفعال الخمسة كان لها بريق ونبض يدل على أنها صالحة للاستعمال ، نتبادلها على الورق أو حول قرطاس ترمس على الكورنيش ، ثم حل محلها الأسماء الخمسة « الأولاد .. الأسعار .. الحسد .. الستر .. حسن الختام ».

ماذا حدث تماماً ؟ وماذا يحدث ؟

كيف تنقلب الأفعال إلى اسماء ؟

والمصيبة أن ما حدث لى هو نفس ما حدث لسعيد عبد الراضى (شاعر اتحاد الطلبة) وعبد المهيمن المنقبادى (قائد المظاهرات) وسعاد زهران (راكبة الدراجة محطمة التقاليد) وسميحه عبد الوارث (الحالمة بالجنة على

الأرض) وسناء وفتحى وعبد الودود وحتى سميّة رمضان (الشابة الحاجة ذات الإيشارب والحماس لإرجاع السكون إلى أصله) كلهم استبدلوا الأسماء الخمسة بالأفعال الخمسة ، ولم يبق منهم إلا « التهامى محمود » الذى يبدو أنه احتفظ ببعض الأفعال حية فما زلت أسمع بعض تعليقاته بالصدفة على برامج الموسيقى التى لا أفهمها .

— « الله يخرب بيتكم » .

قلتها بصوت مرتفع وأنا أنظر إلى الخطابات ، ولكنى لم أكن أوجه إليها السباب ، ولم أكن أوجهه إلى أحد على وجه الخصوص ، استمررت غارقاً فى دهشتى لما يحدث ولما حدث ، هل أذهب ثانية لسؤال الأستاذ غريب عن السر ، ولكن يبدو أنه ليس فى الأمر سر لأنها القاعدة ، ويبدو أن السؤال ينبغى أن يقتصر على حالتى ، ما الذى أعادنى ثانية إلى تلك الفترة ، ما الذى يحاول أن يوقظ فىّ الأفعال الخمسة ؟ كيف أهرب ثانية إلى « الأسماء » ، كنت أعيش ، وهم جميعاً ما زالوا يعيشون ، فلمصحة من أرجع وحدى وأفيق من خدر الأسماء لأواجه أفعالا تتحدى وأنا لا أفعل شيئاً ، وماذا سيكون مصيرى حين أعجز عن الاستمرار فى لعب هذا الدور المزدوج ؟

دخلت زوجتى علىّ وأنا ما زلت أنظر إلى الخطابات ساهماً ويبدو أنها سمعت صوتى دون تمييز . .

— هل كنت تنادى ؟ . لقد تأخرت اليوم ، . هل أعد الغداء ؟ .

إنتبهتْ إلى الكتب على المنضدة فَعَلاَ وجهها الدهشة ، ولكنها حين التفتت إلى كومة الخطابات ابتسمت ابتسامة حنون وكأنها التقت بعزيز

غائب ، غير أنها لم تستطع أن تنادى فى هــذه المشاعر ، وكأنها خافت هى الأخرى من أن يتحرك شىء فى داخلها . .

نظرت إليها فى بله

قالت فى تساؤل

— ما الذى ذكرك ؟

— كنت أبحث عن أوراق خاصة .

— كنا أطفالا ، ولـكن مشاكل الدنيا أكبر من الآمال والـكلام .
قالتها وكأنها تحاول أن تقنع نفسها بما تقول أو أن تبرر شيئاً مفروضاً عليها فرضا .

لم أصدق أنها ما زالت تستطيع أن تحس هذه المشاعر ، وحين تصورت أن هذا محتمل ارتبكت .. ، حاولت أن أتجاهل الموقف برمته ، هل هذا محتمل ؟ ارتبكت غاية الارتبـاك وداخلنى رعب خفى ، لقـد استرحت فى وحدتى ومكانى بين المتفرجين ، حتى غريب أفنـدى ذاته لن يستطيع أن يدخل إلىّ أو يشاركنى مقعدى ، ولـكن إلاّ هذا . . إلاّ هذا ياوليـة انت !! حذار !

« أن أنشق من داخلى » هذا محتمل .

« أن أنسى اسمى » هذا أمر جائز .

«أن أمضى طوال النهار وجزءاً من الليل أحدث نفسى» فى حدود الطبيعى .

« أن أعالج عند طبيب نساء وأطفال » على قدر فلوسى .

أما أن أحس بأن هناك من يشاركنى فى هذه اللعبة الخاصة أو يحاول أن

يعيشها معى فهذا هو الخطر بعينـه ، لقد اطمأننت أن غريب من كوكب آخر ... ولـكنى الآن أشعر بالتهديد بأن أجـد كوكبى مسكون بمخلوقات أخرى غيرى ، والمصيبة الـكبرى أن تـكون زوجتى من بين هذه المخلوقات ، زوجتى الصورة التى أعدمت أصلها منذ زمن سحيق ولم أقرأ نعيها إلا بعد أن زلزلت زلزالها .. وأخرجت أثقالها .

زوجتى ؟

تلك المرأة التى اغتالت خطيبتى (صاحبة الخطابات) تأتى الآن لتشاركنى فى تأبينها ، أو لتمثل شخصيتها ، لا .. لا أستطيع الاحتمال ، سوف ألغى من عقلى ومن جسمى كل ما رأيت ، إذا كنت أنا قد أصدرت عليها حكماً بالإعدام فلأنها اغتالت الأخرى ، وحين قرأت نعيها بعد الزلزال تأكدت من أن القصاص يأخذ مجراه ولو بعد حين ، أما الآن ، فلماذا تأتى لتطل علىّ فجأة من بين كومة خطابات ؟

لا بد أن فى الأمر خدعة .

— خدعة خدعـة .

قلتها بصوت عال . وقد حسبت أنى أكلم نفسى ، لـكن يبدو أن زوجتى قد سمعت .

— نعم خدعة ، ولـكنها كانت خدعة لطيفة ، كنا أطفالا وكان لا بد أن ننخدع فى الألفاظ الحلوة والآمال الـكبار .

الآن أستطيع أن أهدأ ، رجعت الأمور إلى نصابها وتأكدت أنها حفلة تأبين .. لا طقوس إحياء الموتى ، كل ما خطر ببالى أو لمحته سواء

بين الخطابات أو بين ملامح وجهها هو من وحى أرواح الضحايا التى تحوم حول القتيلة فى هيئة الذباب الأخضر ، ولكن هذا الذباب ليس ضاراً ولا يحمل إلا معنى الرمز والذكرى .

* * *

الآن أستطيع أن أرجع إلى مقعدى بين المتفرجين مرتدياً طاقية الإخفاء أكمل المسرحية التى ليس لها نهاية ، وأنا فى أمان أننى الكائن الوحيد من كوكبى الكونى الخاص .

الفصل الثالث

يمامتان

من ذلك اليوم وأنا فى أسوأ حال ، أصبحت حذراً من لقاء زوجتى أو مبادلتها الحديث ولم أعد أطيق العيش تحت تهديد الاقتحام ، وحتى دورى الآخر على خشبة المسرح أصبح يرهقنى حتى كدت أفضح فى بعض المواقف حين أتوقف عن التمثيل وأنا ما زلت على خشبة المسرح ، هذا الخلط بين التمثيل والفرجة يكاد يفضحنى ، هنا يظهر الخطر ، فإذا ذهبت لأقابل المدير فى عمل جاد نسيت ما ذهبت إليه وجعلت أتفرج عليه وأعجب من هذا الإنسان اللامع وأحاول أن أتتبع حركة يده وهى تقترب من شعره دون أن تلمسه أو حركة أصابعه وهى تمر على رباط عنقه ، وأتساءل عن الوقت والجهد اللذين أنفقهما لينتقى هذا الرباط النادر ، وأكتشف السبب فى أن الناس تحب اقتناء الأشياء النادرة جداً مهما بهظت أثمانها حتى لا يشاركهم فى اقتنائها إلا القليل ، ذلك لأنهم عجزوا أن يكونوا من كوكب خاص مثلى ، فعوضوا عجزهم بهذه الأشياء الخاصة . ضبطنى المدير غائباً عما يقول .

— مالك يا أستاذ عبد السلام .

— تحت أمرك يا افندم .

— هل أنت معى أو أن هناك ما يشغلك ؟

— آسف ، إننى مصاب بحمى لم يعرف الأطباء تشخيصها ، وأنا محتار بها بينهم ، والحالة تزداد سوءاً .

(هذه مزية من مزايا المرحلة ، الكذب التلقائى الفلسفى) .

— لا بأس عليك . . ولكن هل الحرارة لا تزال مرتفعة ؟

— لا حرارة ولا يحزنون .

— ماذا تقول يا عبد السلام أفندى ؟ حمى بدون حرارة .

— هذه هى المصيبة يا افندم .

أين تذهب بى ألفاظى ، أكاد أصرح له بكل شىء ولم يبق إلا أن أكلمه عن حلمى الكاذب وطاقية الإخفاء .

— لا عليك ، إن الأمراض هذه الأيام تغيرت عن أمراض زمان ، حمى بدون حمى ، وفقر دم بدون دم ، وحساسية بلا إحساس وكل هذا يسمونه اضطراباً فى الأعصاب . أنصحك أن تستشير أحد المختصين فى الأعصاب .

— أطال الله عمركم ، إن شاء الله خير .

— ربنا يطمئننا عليك يا عبد السلام أفندى ، هموم الدنيا أكبر من احتمال الناس !!

. . . . . .

— جاءت سليمة !!

منذ ذلك اليوم وأنا أمضى أكثر حذراً ، ولكن توازنى كان يختل كلما تذكرت احتمال عودة الروح إلى زوجتى ، وبالإضافة إلى الذهول الذى كان يصيبنى بين الحين والحين رجع إلىّ الصداع بطريقة بشعة ، ورجعت

الوحوش والهوام تشاركني مخدعي، والصقور تنهش جثتي ، وزادت نوبات فزعي الليلي وصراخي المكتوم ، وقد لاحظت أن زوجتي تستيقظ إثر هذه النوبات ولكنها لا تحاول إحراجي بأن تعلق على ما سمعته ، ما أقسى هذا الشعور البشع ، أن تخفي شيئاً عن شخص يعلمه ، أويمكن أن يعلمه، هي السبب في كل ما جدّ على حالتي، فقد كنت قد استرحت إلى وحدتي وفرجتي بعد فض الاشتباك بين أجزائي ، ثم جاءت هي لتشعر بي ، لماذا تشعر بي ؟ إني أعلم أنها غير قادرة على شيء ، ولكني أحياناً أرتاح لاحتمال أن يكون هناك رائحة بشر على بعد آلاف الأميال ، واحد فقط يمكن أن يحس بي ، إذ لو سقطت لعبة التمثيل والفرجة فقد يسمح وجوده أن ألتقط أنفاسي قبل أن أجن ، إن الوحدة محتملة إذا أتقنتَ الدور وأخذت تقفز بين الكواليس تسجل الملاحظات وتندس وراء الستائر تداعب الأطفال وتشاهد الممثلين وهم يحفظون أدوارهم في حماس أقرب إلى تبلد الشعور ، ثم تلعب أنت بعض أدوار الكومبارس في خفاء لا يلحظه أحد ، هذا هو الحل الوحيد لهذا الوضع الجديد الذي وجدت نفسي فيه .

ولكن يا ويحي إن فشل .

سوف أدفع حياتي ثمناً لهذا الفشل ، وسأرفض أن أفقد سيطرتي على الموقف بكل وسيلة ، وهذا الإغراء الذي تلوح لي به روح خطيبتي التي تخايلني وراء ملامح زوجتي وهي نائمة سوف أقتلها — قبل أن تهددني بالفشل وتشككني في قدرتي على أن أستمر في لعبتيَ الرائعة .

في البدء قتلَتْ زوجتي خطيبتي، واستولت على جسدها ، والآن عليّ أن أقتل أنا روحها التي تهدد أمن وحدتي الرائعة ، وما عليّ الآن إلا أن أذهب أبعد من متناول يدها ، سوف أقتل احتياجي لها ، سأخفي هذه الخطابات

بين قامة الذكريات ، سوف أطرق كل الأبواب التى أتأكد مسبقاً أنها لن تفتح لى ، سوف أبحث عن بديل لهذا الخطر المحدق بى ، على شرط أن أمسك كل الخيوط بيدى .

سوف أبدأ بآمال ...

. . . . .

— صباح الخير يا آمال .

— أهلا عبد السلام .

من أين لى بهـذه الشجاعة ، آمال ! هكذا بدون مدام ، ولـكنها هى أيضاً قالت عبد السلام فقط ، هل تنوى أن تخترقنى هى الأخرى ، لا أكاد أذكر أن امرأة نادتنى باسمى منذ سنوات طوال ، بل منذ الأبد ، حتى أمى لم تنادنى باسمى أبداً ، كنت « الولد » أو « المغدور » أو « اللى ينخفى » أو « اللى ينحش فى وسطه » ، أما زوجتى ـ فبعد فترة الخطوبة التى تـكاد تنمحى من ذاكرتى لا أعرف بم تناديني إن كانت تناديني أصلا .

إنى أهرب إليك يا آمال خوفاً من روح خطيئتى التى تطـل من وراء وجه زوجتى وهى نائمة ، هل ستهدديننى أنت الأخرى بأن تطرقى كوكبى الخاص وتقلبين المسألة جـد ، سـوف لا أطمئن إلى وحـدتى إلا إذا غامرت بفشلى معك ، وساعتها سأتأكد من أن كوكبى هُو لى وحدى، ومع ذلك فأنا أحبك .

— آمال .

— نعم .

— الله ينعم عليـكى .

عيناها تلمعان ، ترانى هذه المرأة كما أنا ؟ هل ترانى كما لا أعرف نفسى ؟ لماذا كل هذه الطمأنينة فى عينيها وهـذه اللمعة السحرية من حولها ؟ هل هو إشعاع خاص بى وحدى أم أنها هى هكذا، أنا ألمحها تفيض على كل الناس، كل الناس من أول عم جمعه . . حتى سيادة المدير ، مَن هـذه المرأة هى الأخرى ؟ هل هى من فصيلة عم محفوظ السباك أو الأستاذ غريب ؟ ولـكنها امرأة وأحاسيسى تجاههـا الآن مختلفة تماماً ، لا أستطيع أن أستبعد منها الجنس ولـكنى لا أستطيع أن أقول إنها جنسية ، أريد أن أقترب منها إلى آخر خلية فى جوفها أريد أن أرى طفلى فى أحشائها هل هذا هو الجنس ؟... ليس تماماً ، ليس هو الشىء القبيح الذى أتذكره إذ نتبادل قفشات المباهاة بالفحولة ولا فى النكات البذيئة ، هو شىء آخر لم يسبق لى أن عرفته فى حياتى، ماذا لو قرأتْ أفكارى هذه المرأة ، أكاد أحس أن الموقف لن يتغير، أكاد أموت غيظاً من ترحيبها الجرىء غير المشروط، أحس أن شيئاً مطلوباً منى، كيف أطلب أنا ما أريد ؟ لست فى محل بقالة أو صيدلية ، أحس أنى أركب قارباً يتماوج فى نهرها العذب ، أميل على جانب من جوانب القارب حتى تلمس شفتاى الماء ، أعب منه مباشرة دون حاجة إلى أن أصطنع وعاء بكفى ، ولـكن الغريب أن بقية الناس حولى بالمـكتب يشربون من هذا الماء العذب، ربما يشربون بطريقة أخرى غير هذه الطريقة الطفلية الخطرة ، وهى لا تبخل على أحد مهما كانت الطريقة .

أفقت من كل هذا على صوتها العذب .

— خيراً يا أستاذ عبد السلام .

الحمد لله دخلت « أستاذ » فى الموضوع، وعلىّ أن أقفز على الشاطىء إلى الأرض ، وكأن لفظ « الأستاذ » ، هو السقّالة التى أخطو عليها من القارب ،

ولو أسعفتنى قدماى لأخذت أجرى بعيداً عن النهر وعن القارب وحتى عن الشاطىء ذاته خوفاً من الغرق .

— كنت أريد الاستفسار عن الملفات التى لم أستطع أن أتبينها أمس .

— لا عليك ، أنا أعرف ظروفك هذه الأيام وسوف أقوم باللازم .

ويثور فى نفسى نمر مفترس ، ماذا تعرفين عن ظروفى فى هذه الأيام ؟ من أنت أيتها الحسناء المغرورة حتى تتصورى أنك تعرفين الظروف التى لا يعرفها أحد حتى أنا .

— أريد أن أراك بعد العمل ..

هكذا ... قلتها دون تفكير وبصوت مثل طلقات المسدس الصامت .

— وأنا أريد أن أراك على انفراد ..

— . . . .

— إنتظرنى على الناصية .

— أنا أحبك .

— أنا أعرف .

— ولكنى أحب أخريات .

— أنا أحبك .

— سأنتظرك .

— سأحضر .

. . . . .

مضى اليوم عادياً واستغرقت دون مناسبة فى العمل وكأنى نسيت ما حدث تماما أو كأن ما حدث هو حدث كل يوم، ولكنى كنت أحس فى فترات

فجائية وصارخة وموقوتة أن حدثا هائلا وشيك الوقوع ، أو كأنى أحاول تسلق جبال الموج دون طائل وألف كرسى المكتب رأسيا حتى أستعيد توازنى ، وأتطلع حوالى فلا أجد أحداً قد لاحظ شيئا .

انتهى الهدوء الظاهرى فجأة قبل ميعاد الانصراف بنصف ساعة ، وأحسست بالكرسى من تحتى يشتعل ناراً ، لم أعد أستطيع الجلوس عليه ، حاولت أن أصنع أى شىء حتى لا أحترق ، ذهبت إلى دورة المياه وإلى البوفيه وكدت أدخل حجرة المدير دون مبرر وصعدت إلى إدارة المحفوظات ونزلت حتى البواب، وكان نفسى يلهب جوفى مثلما كنا ننفخ «فى الراكية» ونحن نشوى الأذرة ، تزيد النار اشتعالا وتكاد تلفح وجهى أو تصل إلى خلايا مخى وأخشى أن تسيح منى ، ولكنى أكاد أتمنى ذلك حتى أرتاح من هذا التفكير المتناقض المستمر ، ماذا فعلت بنفسى ؟ أين تلك الرغبة التى كنت أشعر بها فى داخل أعماق سراً ، كنت أحس أنى أحمل كنزاً رائعاً من المشاعر اكتشفته بمحض الصدفة ، وحتى لو ثبت أنه من زجاج فهو يبرق أمامى فى أصالة لم أعرفها قبلا ، سوف آخذه معى لأعرضه عليها ، هذا هو كل ما أملك ، ثم يحدث بعد ذلك ما يحدث ، ولكن أين هو الآن ؟ وماذا أفعل بلقائها إذا لم آخذه معى ؟ والناس ؟ وهل ستسعفنى الألفاظ ؟

. . . . .

خرجت قبل ميعاد الانصراف بخمس دقائق ، وفى همس واضح مررت عليها واعتذرت لها عن الميعاد .

ولم ترد ..

إنتهت القصة قبل أن تبدأ، أخذت حقيبتى بسرعة ووقعت فى ساعة الانصراف وأخذت أقفز السلالم رُباعَ رُباعَ . .هربا وفرحا ، لا يمكن أن تصلح الألفاظ

فى وصف المشاعر ، ماذا تقولون علىّ لو قلت لـكم إنى كنت أقفز إلى أعلى وأنا أهبط الدرج ، كنت أهبط الدرج صعوداً ، صـدقونى أو اتركونى وحيداً على قارعة الطريق .

بمجرد أن استنشقت هواء الشارع أحسست بمشاعرى الفياضة ترجع إلىّ ، كنز الجواهر يعود ليشع بريقه فى كل خلية من خلايا جسمى ، يا خسارة ، لو كنت أعرف كيف يأتى وكيف يذهب .

لم أتجه إلى محطة الأتوبيس ولـكنى وقفت على الناصـية التى كنا تواعدنا على اللقاء عندها وكأنى لم ألغ الميعاد ، ربما ، من يدرى؟ لعلها تصر ، لم تخرج أمامى ، انتهى خروج الموظفين وما زلت أنتظر . . ربما تلـكأت حتى لا يلحظها أحد ، ما أغرب هذه المرأة ، المدير أيضاً لم يخرج مع الموظفين ، ليس هناك عمل يستدعى وجوده حتى هذه الساعة ، وهى ؟ أين هى ؟ فى مكتبه ؟ ما أروع قضاء هذا الوقت فى ذلك المـكتب المـكيف الهواء ، كل شىء يتم فى هدوء ودفء ، كم كنت أتسـاءل عن السبب الحقيقى فى وجود تلك الأريكة العريضــه فى حجرته ، لم تتملـكنى الغيرة بل ارتسمت على وجهى ابتسامة بلهاء ، مر أمامى بائع عناقيد الفل ، نظر فى وجهى ويبدو أنه رأى بريق الـكنز ، تعاطف معى بحب حقيقى ويبدو أنه كان يتتبعنى منذ فترة طويلة ، ناولنى عنقوداً من الفل وهو واثق من أنى سوف أشتريه . استسلمت ليقينه وأعطيته عشرة قروش بأكملها ، ابتسم منصرفا وهو يقول .

— إن شاء الله ستحضر حالا ، ربنا يخليها لك .

ابتسمت بسعادة لا مبرر لها .

شعرت برغبة فى أن أصعد إلى الحجرة حاملا عنقود الفل أنثره عليهما فى لحظة النشوة ، أين مشاعرى العادية مثل بقية البشر؟ ، ينبغى فى مثل هذه

الظروف أن أحس بالحقد أو بالغيظ أو بالغيرة ، رويدا رويدا زاد يقينى أن مابى شيئا خطيراً إلا أن له وجهاً طريفاً ، تحسست جبهتى لأ تأكد أنها خالية من أى بروز ، اتسعت ابتسامتى ، وعرفت السبب فى أن خيالهم يرسم مخلوقات الكواكب الأخرى بقرون صغيرة لطيفة ، والآن فقط عرفت معنى قفشات أولاد البلد حين يصفون أمثالى ممن ينثرون الفل على سكان الجنة بأنهم من ذوات القرون ، زادت ابتسامتى اتساعا حتى كدت أقهقه ، تقدمت إلى الباب ، حيانى البواب وتساءل عن سبب عودتى ، ادعيت أنى نشلت فى الأتوبيس وأنى احتفظ ببعض النقود فى درج مكتبى ، تأثر الرجل تأثرا حقيقياً وعرض علىّ كل ما معه (ستة وثلاثون قرشا) معتذرا بأن المكاتب أغلقت ، وأن عم جمعه السيوفى قد انصرف ، شكرته ذاهلا وتناولت منه عشرة قروش فقط وهممت بالإنصراف ، نظر إلى عقد الفل فى يدى فى دهشة وادعة .

سألته فجأة

— والبيه المدير ؟

أجاب فى دهشة

— انصرف منـــــذ الصباح ، عنده لجنه

— والسيدة آمال ؟

زادت دهشة البواب ولكن وداعته وبشرته اللامعه شجعتنى أن اتمادى معه فى الإبتسام ، قال ومازال مبتسما فى حسن نية مفرطة .

— ألف سلامة يا سعادة البيه، عقبال أولادك الست آمال وضعت منذ ثلاث أيام، رزقها الله بنتا كالقمر، مثل أمها تماما . . زرتها امس وأعطتنى

الحلاوة ... أسمها « نهى » .. الخالق الناطق الست آمال ... ناس طيبين ، ربنا يخلى الناس الطيبين . .

شكرته وانصرفت كالصاروخ ، أهكذا تتطور الأمور بهذه السرعة ؟ آمال التى حدّثتها اليوم وتبادلنا ألفاظ الحب، وتواعدنا على اللقاء واعتذرتُ لها فى آخر لحظة لمافقدت مشاعرى ، لم تحضر اليوم من أصله ؟ آمال فى أجازة وضع منذ ثلاثة أيام ؟

وأتذكر فجأة أنى أنا شخصياً الذى وقّعت إقرار القيام بعملها حتى تعود ؟ ؟

ما هذا الذى يحدث ؟ ماهذا الذى يحدث ؟

خيال ؟ أوهام ؟ مرض ؟ جنون ؟

لم تزعجنى فكرة الجنون ذاتها بقدر ما أزعجنى أن يكون البواب أو أحد من الزملاء قد لاحظ علىّ شيئاً ، بل إنى أعجبت بنفسى حين اكتشفت فيها هذه الموهبة العظيمة على تحقيق الخيال بهذه الحنكة الواقعية ، هكذا يمكنك أن تحصل على ماتشاء بمجرد التفكير ، شيء مثل الجنة ، تجلس على الآرائك وتتمنى تفاحا فيأتى لك ماتتمنى على أصص مرصوصة ، وإن كنت لاأعرف معنى كلمة أصص ، وقد حاولت أن أجرب هذه المقدرة فى تجسيد الأفكار ، فتمثّلتها أمامى جالسة على مكتبها وأنا واقف بجوارها أناولها ملفا ، ونهداها تحت مستوى نظرى وقد برزا من أعلى فتحة الرداء ، متلاصقان فى وداعة دافئة ، لايفصل بينهما إلا ذاك الشق الرائع ، يمامتان بيضاوان تصدران هديلهما فى نغم هادىء يختلط فيه الحزن بالغناء بالتسبيح « اذكروا .. ربكو » وأترك نهى ترضع من الثدى الأيمن واحتفظ لنفسى

بالثدى الأيسر ، يقطر الثدى فى فمى قطرات اللبن مثلما تضع اليمامة حبات القمح فى فم صغارها .

دخلتها من أوسع أبوابها ، كنت دائماً أتساءل أين ستكون الجنة ؟ قالوا فى مصر ، وقالوا فى عدن وقالوا فوق السماء السابعة ، ولكنى الآن قد تيقنت أنها لن تكون إلا فى كوكبى الكونى الخاص .

لا مرض .. ولا جنون .. ولا يحزنون .

هى الجنة ..

* * *

شهر كامل وأنا انتقل بين الجنة والمسرح ومؤخرة الصالة دون أن يلحظ أحد علىّ شيئاً ، حتى زوجتى بدأت توارى نظراتها المتسائلة عما يجرى بعد أن اكتشفت أنى اضطرب لمجرد سؤالها عن حالى ، لا أطيق أن يدخل أحد على كوكبى حتى ولو استأذن ، بل إن مجرد الاستئذان يخلّ توازنى بضعة أيام ، لم أجد صعوبة فى أن أخفى عليهم أىّ شىء ، فلا أحد يهتم بأحد إلا بمقدار مايسمح له هذا الأحد ، وقد عرفت مفاتيح أسرارى وحذقت إدارة كونى الخاص بشفرة لا يعلمها إلا أنا ..

حضرت آمال بعد أجازة الوضع أكثر نضرة وأكثر إشراقاً ، يبدو ان المرأة الخالقة بطبيعتها تتوازن مع خلاياها كلما اتمت صنع كائن بشرى جديد ، صافحتها باليد حتى أتأكد أنها هى بلحمها ودمها ، وقد عرفت منذ ذلك اليوم أن الفرق بين الحور العين وبين مخلوقات هذه الأرض هو الملامسة الجسمية ، ولم أخدع بعد ذلك ابدا ، وحتى أتأكد أن يدها فى يدى ضغطت عليها ، لم تحاول ان تسحب يدها منى ، حلوة دافئة مثل ملمس البطاطا الساخنة أمام

المدرسة الإبتدائى فى أيام الشتاء ، إتّسعت ابتسامتها وأحسست بقطرات اللبن تنساب من منقار ثديها وأنا فاتح فمى فى انتظار رحيق الحياة .

ـــ كيف حالك يا أستاذ عبد السلام

ـــ الحمد لله ، وكيف حال نهى

ـــ مثل القمر ، هيّا أحضر لها العريس

ـــ هذا الجيل لم نعد نعرف طبيعته ، لم يعد للأهل حل ولا ربط فى أمور أولادهم .

ـــ لكنهم أسعد منا بلاشك

ـــ بل هناك دائماً شك

ـــ أنت تتفلسف هذه الأيام يا أستاذ عبدالسلام

ـــ اعيد النظر .

ـــ لاتفكر كثيراً ، انتهى عهد التفكير بالنسبة لنا ، أنا لااسمح لنفسى بالتفكير بعد أن كاد يطيح بى

ـــ لا تفكرين ؟ إذا كيف تيّريرين أمورك

ـــ أثق فى إحساسى بلاجدال

ـــ أنا أشعر بك يا أستاذ عبد السلام وكثيراً ماخايلتنى صورتك أثناء إجازتى ، فقد تركتك وأنت على أبواب شىء ما ، لون بشرتك .. نظراتك.. بريق عينيك ، والآن تأكدت من أن شيئاً ما يحدث فيك هذه الأيام ، أكاد أحب هذا الشىء .. ولكنى أخاف منه . .

وقعت الواقعة ؛ خافضة رافعه ، هذه المرأة تخترقنى دون استئذان، سوف أجمع نفسى حالا بعد أن كدت أتبعثر .. لأهرب عند أول منحنى . .

— من أدراك كل هذا ؟

— قلت لك كاد التفكير يطيح بى يوما ، ولكنى أنقذت نفسى باحترام إحساسى وتغليبه ، خطرٌ خطرٌ سبحان المنجى .

(استمرت فى حديثها رغم تحذيرى)

— ولكن الله سلم ، لم تتعب عنى طوال هذه الفترة .

إلى اين تستدرجيننى ياأيتها المرأة ؟ لابد أن أبدأ بالهجوم .

— لقد حلمت بك أنا أيضاً حلماً رائعاً .

امتلأ وجهها بالحياة أكثر ، وتوهج بالدماء على مافيه من نضارة .

— خير .. اللهم اجعله خير

— أظن أن هذا ليس مكان تفسير الأحلام

— ماذا تعنى ؟

— أحس بقرب شديد منك ، وكنت اتمنى ألا تفتحى لى بابك ، ولكنك أنت التى بدأت ، وأقترح أن نقفل هذا الباب إلى غير رجعة .

— ولكنى لاأخاف لهذه الدرجة ولامفر من أن أحترم إحساسى وحدسى

— ماذا تريدين منى ؟

— أقف بجوارك هذه الأيام

— والناس ؟

— معنا

— ماذا تعنين ؟ عيون الناس لاترحم

— قلت لك أنا لاأخاف .

— نلتقى فى مكان أهدأ لنكمل الحديث

— وهو كذلك . . .

الحمد لله أنى لم أشعر بتلك المشاعر التى غمرتنى فى تجربة خيالى ، أحسب أنى لو اطلقتها فسوف توردنا التهلكة ، وحتى ثقة هذه المرأة بنفسها ليست كافية لطمأنينتى .

* * *

فى ركن قصى من ذلك المطعم الخالى تقريبا وجدتها قد سبقتنى إلى هناك ، انطلق وجهها بالبشر حين رأتنى ، لا أذكر أنى شعرت بمثل هذا الإحساس قبل الآن لذلك لا أستطيع أن أسميه ، ولا أحسب أنى سأشعر به بعد الآن . .

تعجبت من نفسى فهذه أول مرة فى حياتى أخرج فيها مع امرأة غير زوجتى ، لم أكن خجلا ولا متردداً ولا خائفاً وكأنى ملك الحلبة منذ دهور ، كنت دائما أحسد زملائى فى الجامعة على نجاحهم فى هذا العمل البطولى المجيد أو ما كنا نسميه حينذاك «تعليق النساء !» وها أنذا أفعلها وحدى ، أمضى فى سبيلى إليها مثل السكين فى عجين مختمر ، بعد أن بلغت هذا العمر ولى امرأة وثلاث أولاد ، فعلتها دون تردد ، أين أصدقاء الجامعة ليرونى الآن ؟ ولكن ما أفعله الآن شىء آخر لايدخل تحت هذا البند ، هو شىء أقرب للعبادة ، ولكن ما أدرانى وأنا لم أعرف الشىء الأول حتى أسمح لنفسى بالمقارنه ، لعل مثل هذه الأمور جميعها تبدأ بالعبادة وتنتهى بالتحيات .

أقبلت عليها فى خشوع ، لم أنظر إلى يمامتى اليسرى ، لم أكن فى حاجة

إلى قطراتها العـذبة فقد كنت مرتويا من داخلى ، مضت فترة صمت حلو تغلفها نظراتها الحانية من كل جانب ، نصـل السكين يختبئ أغلبه داخل العجين ولمس الفقاعات النـاتجة عن الاختمار تدغدغ جانبيه ، أخشى أن يذوب نصل السكين من تأثير هذا الغاز السحرى ، أسحبه بسرعة .

— كيف حال نهى

— تزداد جمالا

— يسعدها الله

— وأنت ؟ وأولادك ؟

الحمد لله لم تسألنى عن « المدام » .

— شكراً .

— لم نأت هنا لنتبادل المجاملات

— ماذا تريدين منى

— لاشىء على وجه التحديد ، ولـكنى أحس بك

— إحساسك هذا يروينى ، يكفينى وليس عندى مطلب آخر

— وحلمك ؟

— لم يكن حلماً على وجه التحديد

— حدسى قال هذا

عندك !! لابد من إضاءة النور الأحمر

— وماذا قال لك أيضاً

— أنك وحيد

يانهار أسود كيف المرب

— وماذا أيضاً ؟

— وخائف

— إذا كنت تعرفين كل شيء فلماذا الـكلام ؟

— هل تصر على ما أنت فيه ؟

— أنا لا أملك من أمرى شيئا . هذا أمر يحكمه غيرى .

— من ؟

— لا أدرى ، ولـكننى أكاد أعرف أن غيرى هو أنا فى نفس الوقت ، ولا أعرف من يدلنى علىّ .

— اسأل مجرب

مجرب ؟ لايمكن أن يكون هناك من مر بتجربتى ، خل عنك ، ولا تسمعى كلام القصص .

مزيد من الهجوم واجب

— وكيف حال زوجك .

— أحبه وأرعاه ، وهو يعرف أنى معك الآن .

مزيد من الرعب ، الفضيحة على الأبواب

— معى أنا شخصياً ؟

— ليس على وجه التحديد ، ولـكن مع زميل فى أزمة .

من أنت يا آمال ، من أى طينة أنت ؟ ثقتك تكاد تفقدنى توازنى

مضت فترة من الصمت انتهينا فيها من احتساء قدحى الشاى ، استغرقت فى النظر إلى قدحها الفارغ ثم قالت :

— زوجتك سيدة فاضلة ورائعة وتحبك ، لماذا لاتحاول معها ؟

الحمد لله ، خاب أملى فيك حتى لو كنت صادقة ، دخلنا فى باب النصح والإرشاد .

— من أين لك بكل هذا اليقين ، الناس تقرأ فنجان القهوة ، وأنت تفتحين البخت وتقرئين من قدح الشاى ؟!

— قلت لك إن حدسى يهدينى

— أنت ترعبينى دون أمل

— قلت لك لا بد من المحاولة ، ولا تسرع بقفل الأبواب .

أحسست بدوار عنيف يكاد يقسم رأسى إلى نصفين ، أريد أن أذهب ، أريد أن أذهب ، لاحظت علىّ اضطرابى ، لم تحاول تهدئتى ، قالت مكملة .

— لن أتدخل فى حياتك بعد الآن ، ولكننى سأكون دائما بجوارك .

أفقت من الدوار وشعرت برغبة عارمة فى قتل هذه المرأة حالا ، إما القتل أو الاختفاء .

ناديت الجرسون بعد نظرة مستأذنه ، دفعت الحساب ، خرجنا صامتين كدت أن أتجنب مصافحتها خوفا من انتقال موجات لا أعلمها إلىّ ، لم أستطع ، يدى باردة كالثلج ويدها مثل قطعة الخشب نجحت فى أن أقضى على أى نبض للحياة فى أى منا ، إستطعت أن أتهرب من نظراتها العاتية المتسامحة ، نظرت إلى الأرض ولكنها اخترقتنى بلا هوادة .

* * *

انصرفت وكل همى أن يطلع علىّ الصباح لأطلب نقلى إلى إدارة أخرى أو مصلحة أخرى .

لا أستطيع — ولا أريد — أن أنظر فى وجهها بعد الآن .

ولكن كيف السبيل إلى النسيان ؟

الفصل الرابع

اللهو الخفي

كلما حصلت على درجة من التوازن ، أو عقدت صلحاً خفياً بين شخوصي ، أو حاولت أن أكمل ما بقي لي من حياة بطريقة سرية ، انقلبت موازيني فجأة بمجرد اقتراب مخلوق بشرى منى اقتراباً صادقاً خطراً ، ولو أني كنت أملك القدرة على فعل شيء آخر غير الفرجة والتخفي والمخاطرة غير المحسوبة لاستمر توازني — بشكل ما — لفترة أطول ، ربما أصبحت فيلسوفاً ، أو ممثلا في فرقة مجهولة ، أو على أسوأ الفروض « مثقفاً » مثل الأستاذ غريب ، ولكنى كنت خلواً من المواهب — رغم فترة المراهقة العنيدة التى أمضيتها فى البحث والقراءة التى انتهت بفرمان سلطانى بالكف عن إضاعة الوقت فى الكلام الفارغ ، بعد أن تكرر رسوبى فى شهادة « الثقافة العامة » وقد قاومت هذا الفرمان بعض الوقت إلى أنى استسلمت له لما لم أجد جدوى من كل هذه القراءة ، وكأنى أصدرت أنا الفرمان الفعلى من داخلى ، وأتعجب حين أذكر كيف صدر هذا الفرمان فجأة ، فانتقلت من النقيض إلى النقيض ، والظاهر أن كل التغيرات الحقيقية فى حياة البشر تحدث فجأة ، إما إلى أعلى أو إلى أسفل ، ولكن من المؤكد أنها تحدث دائماً فجأة ، أو على الأقل تبدأ فجأة .

. . . . .

منذ لقائى الفريد مع هذه المخلوقة العجيبة التى وضعتها بين السماء والأرض : قدماها على الأرض بلا جدال ورأسها فى السماء بلا تفكير ،

وأنا فى دوامة أكاد لا أفيق منها ، نجحت فى الانتقال إلى مكتب آخر ، واستقبلنى الزملاء الجدد بالترحاب وحب الاستطلاع أول الأمر ، ولكن سرعان ما تغير الحال ، حيث لم أحاول أن أبدو طبيعياً طول الوقت ، فهم لا يعرفوننى قبلا ولا مجال للمقارنة بين ما كنته وما هو أنا الآن ، تصرفت بتلقائية نسبية حتى يحسبوننى «هكذا» ويقبلوننى «هكذا» : صمتى المفاجىء وحديثى البعيد عن اهتماماتهم وتعليقاتى الساخرة أحياناً ، الشاذة أحيانا هى أنا ، حتى عرفت بينهم « هكذا» إنساناً غريب الأطوار ، وكأنى طول عمرى «هكذا» ، أحسست أن من حقى أن أفرض عليهم بعض أطوارى التى أصبحت جزءاً من وجودى هذه الأيام حتى أتمكن من الاستمرار ومع ذلك فأنا غير قادر على الاستمرار ، الهمس يزداد ، وأحوالى الداخلية لا تهدأ ، تذكرت كلما ت المدير فى ذلك اليوم البعيد « كل هذا يسمونه اضطراب فى الأعصاب أنصحك أن تستشير أحد المختصين فى الأعصاب » .

وماذا فى ذلك ؟ خلق الله الطب والمرض ، ولكنى سأذهب هذه المرة خفية من وراء زوجتى ، يبدو أن حياتى كلها قد أصبحت حلقات فى مسلسلة سرية ، بل ربما نحن نعيش جميعاً لأسباب سرية ، وغاية ما يمكن عمله هو أن ننقل هذا السر من جيل إلى جيل لنحافظ عليه من الضياع حتى يتوصل الجيل الأخير إلى حل اللغز ، أو لا يتوصل أبداً ، وكل من يحاول أن يكتشف هذا السر يصيبه ما أصابنى هذه الأيام ، فما بالك بإفشاء هذا السر .. يكفى أن أعيش وحيداً بطريقتى الخاصة فى كوكبى الخاص حتى أكفر عن جرأتى فى أن أقتحم المنطقة الخطرة ومحاولتى للأكل من الشجرة المحرمة حين جرؤت ذات صباح أن أبحث عن معنى لما يقال لأجيب بصدق عن سؤال تلك المرأة عن « هويتى » .

• • • •

ومع ذلك سوف أذهب إليه ، ربما وجدت عنده بعضاً من هذه الوصفات الكيميائية التى تتزايد مع عــدد الأتوبيسات ومسلسلات التليفزيون ، دخلت إلى عيادته المزدانة حوائطها بأشيـــاء كثيرة ، شهادات عظيمة ، وعضويات فى جمعيات عالية ، عليها رموز علمية لا أفهم منها شيئاً ، إلا أنى أعرف أنه كلما زادت الحروف المرصوصة بجوار الاسم كلما زادت كميـة العلم المرصوص فى الدماغ ، كما يوجد على حوائط العيادة عدد من المعلقات الشعرية التى ذكّرتنى بمعلقات الكعبة فى الجاهلية ، وهى تحوى قصائد مديح تطمْئِن كل من يبحث عن العون من أهل العون ، واسترعى نظرى من بين هذه القصائد المعلقة قصيدة تبدأ هكذا :

« أتيناك وقد شُلّت أيادينا　　خرجنا من لديك وقد شفينا »

أى والله ، إذاً فأنا أمام ساحر عالم قادر والحمد لله ، يبدو أنى أخيراً اهتديت إلى ضالتى ، وتلفّت حوالىّ أرى الزملاء فى المحنـة فوجدت عدداً لا بأس به ممن شُلّت أياديهم أو أرجلهم ، وقلت فى نفسى « إن شاء الله سوف يخرجون من لديه وقد شفوا بإذن العليم العلى القدير » ، وأخذت أنظر إلى أعضائى أبحث عن عجز مشابه حتى أشارك فى هذا الأمل الأكيد ، ولكنى لم أجد شللا قد أصاب عضواً بذاته ، فتعجبت وخشيت أن أكون فى المكان غير المناسب ، ولكن طمأنى أن هناك آخرين مثلى لا يبدو عليهم علامات الشلل الخفى ، وسمعت صوت أمى زمان وهى تدعو علىّ غاضبة بأن أصاب « باللهو الخفى » ، ربما يكون هذا هو مرضى الحقيقى ، أو ربما يكون الشلل قد أصاب مخى دون أطرافى ، فكثيراً ما يخوننى فجـــأة ويعجز عن مواصلة تتبع فكرة معينة كنت ألاحقها بإصرار ، وكنت أتعجب من هذا الذى يحدث : الفكرة فى متناول يدى ، ألمسها وأتركها تبتعد قليلا

لألاحقها بثقة القط يلاحق الفأر ولكن المطاردة تنقلب فجأة لتصبح بين غزال جامح ودينصور غبي ، يركض الغزال ويختفي بين غابة من المشاعر المتضاربة ، والدينصور فاتح فاه فى دهشة الأبله متجمد من هول المفاجأة ، أليس هذا هو الشلل بعينه أن تنقلب المطاردة بين القط القادر والفأر العاجز إلى مطاردة بين الغزال الهارب والدينصور الغبي ؟ هذا هو المرض بلا جدال : شلل فى العقل .

« ولكن كيف كنت أفكر قبل ذلك ؟ لماذا لم ألاحظ هـــذا الانفصال العجيب بين الفكرة والمفكر قبل اليوم ، ما أروع أن يسألك أحدهم سؤالا فتجيب على الفور ، عمل تلقائي يفرز الأفكار فى كتل متراصة بطريقة آلية مثل ماكينة الجيلاتى فى ليالى رمضان ، فى سيدنا الحسين أو على شاطىء الاسكندرية ، يُضغط عل الذراع فيخرج قمع الجيلاتى متعـدد الألوان فى كتلة مخروطية متماسكة ، هكذا يعيش إنسان اليوم دون حاجة إلى تفكير آخر ، يبدو أن المرض يبدأ حين تضطر إلى تقليب أرشيف مخك للبحث عن إجابة مناسبة ذات معنى لسؤال ليس له معنى ، وهنا فأنت معرض أثناء تقليبك الأرشيف أن تقفز إليك أسئلة لا حصر لها ولا لزوم لها ، وكأنها مجموعة من الكلاب الضالة الصغيرة التى التقت بصاحبها بعد طول هجر ، ثم تمضى فى تقليبك للأرشيف تبحث عن معنى حتى تقترب من الطبق الأوسط المنطى منذ الأبد ، والمحرم رفع غطاؤه كشرط لإكمال الوليمة ، فإذا كنت أهوج أحمق فسوف تفعلها ، وهنا يقفز الفأر من تحته ويجرى على المائدة يقلب الآنية ثم يقفز ليختبىء فى ركن من أركان الحجرة وتبـــدأ المطاردة بين القط والفأر النشط ، وحتى هذه اللحظة فأنت ما تزال متمكناً من اللعبة تترك الفأر وقتما تشاء لأنك واثق أنك ستلحقه كما تشاء ، ثم تثور

عاصفة المشاعر الموجاء لتجد نفسك فى غابتها ، وتنقلب المطاردة إلى لعبة الغزال والدينصورو يحدث الشلل المرعب » . .

يا نهار أسود . . كيف تتوارد هذه الأفكار بهذا التسلسل الغريب العميق ..؟ على كلٍّ.. شيء يقطع ملل الانتظار! فلأستمر فى التفكير وكأنى أستطيع ألا أفعل « لست أدرى إلى أين تجرنا تلك الحماقة التى حذرتنا منها كل الأديان والأساطير القديمة « لا تأكل من الشجرة المحرمة » « لا تسأل عما لا يعنيك » ، « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » « لا يغلبك حب الاستطلاع حتى تكشف غطاء الطبق الأوسط « أو » تفتح الحجرة المقدسة فى سرداب سكة الندامة » كل هذه النصائح الأزلية إنما تحافظ على ماكينة الجيلاتى حتى لا يصير الإنسان إنساناً قبل الأوان ، ولكن متى الأوان ؟ وأنا ؟ أنا مالى بكل هذا ؟ لم يخطر فى بالى أن أكون « إنسانا » فى يوم ما لأنى لا أعرف معنى الكلمة ، وقد تُبتُ إلى الله من بعد خيبتى فى المراهقة ، فما ذنبى الآن فى كل هذا ؟ أتكلم الحكمة وأبحث عن الحقيقة وأدعى المعرفة دون قصد واع ، والمصيبة أنى لا أكف عن التفكير فى هذه المسائل وأتناولها بجد وحماس لا يتناسب مع إدراكى بأنى مقحم فيها دون إرادة كاملة ، ترى هل سأجد عند رب الطب هذا أجوبة لهذه الأسئلة ؟ هل سيعيد حبك الغطاء على الفأر الهارب ، وإذا فعل فكيف أستجيب له ؟ يبدو أن المحظور قد وقع بغير رجعة ، وحتى لو عاد الغطاء إلى مكانه فإنى أعلم أن تحته فأراً ، هذه الخدعة لا تصلح إلا للمواطنين المسالمين الذين لم يرتكبوا هذه الحماقة ، أما من فعلها مثلى ... فماذا يكون مصيره ؟ »

أفقت من ذهولى الظاهرى على صوت الممرض يسألنى هل أخذت ميعاداً سابقاً ؟ ، لماذا ؟ هل هو موعد غرامى لابد من الاتفاق عليه مسبقا ؟

ولـكن النظام هو النظـام لا يُستثنى إلا بنفحة سخية لإقناع ماسك مفاتيح خزائن الحـكمة .

- حالة مستعجلة .. الله يستر عرضك .

— ربنا يشفى ، ولـكنك ... ... والحمد لله ..

— الله لا يوريك ، تعبت من الجرى وراءه وأريد من يمسكه معى .

— آه ...!!

قالها بشفقة حقيقية وكأنه وصل إلى التشخيص المبدئى لحالتى ، حمدت الله أن حالتى لها تشخيص سهل يمكن أن يدركه رضوان من جملة أو اثنين، ومع ذلك فقد وقف فى هدوء حـذر وعيناه تقولان شيئا آخر ، ناولته ما قسم ، وأصبحت بقدرة قادر من الحاجزين .

الوقت يمر ببطء ، لا أحاول أن أتبادل الحديث مع أحد ، يقتر بـمنى بنظراته شاب خجول من المنتظرين ، يهم بالـكلام ثم يعاود الصمت قبل أن يبدأ ، أحمد الله على أنه لم يبدأ ولـكنى أمتلئ شعوراً به ، أكاد أقول «لا» دون أن أعلم على ماذا أعترض .

. . . . . .

دخلت إلى غرفة الـكشف ، واستقبلنى هــذا النطاسى العالم بابتسامة بشوشة مرحة ، الغليون فى فمه والدخان الرمادى يتصاعد منه فى هدوء الواثق الذى يشبه هدوء صاحبه ، والمـكتب بينى وبينه يبـدو كبيراً جداً ، يزداد حجمه فى نظرى بسرعة هائلة حتى أتخيل أنى أحتاج إلى بضعة شهور لو حاولت أن ألف حوله لأصـل إلى الجانب الآخر ، عقلى لا يتركّز فى حالى ، دائم التخيل والشطح، دائم السخرية ، نظرت إلى عينيه وراعنى ذلك المنظر المهيب

وخاصة فوديه اللذين صبغا باللون الرمادى لمـّا غزاهما الشيب على استحياء ، أحسست أنى أمام مخلوق بشرى « خاص » صحيح أنه من كوكب الأرض ولكن لابد أن موطنه الأصلى فى قارة أخرى ، أحسست أنى أجلس على شاطئ الإسكندرية وهو على الشاطئ الآخر ، وأن المكتب هو البحر الأبيض المتوسط .

أخذ يسألنى عن اسمى وعنوانى ووظيفتى وعدد أولادى وأخذت أجيب عليه بما سمح له أن يقوم بتسجيل أشياء محددة فى سجل أمامه ، وبما سمح لى بمواصلة محاولة تحديد موطنه الأصلى عبر البحر المتوسط ، فسمرة وجهه تقول إنه من جنوب إيطاليا ، وتلك الراء اللدغاء تقول إنه من فرنسا ، يسألنى :

— ماذا يقلقك الآن ؟

كدت أقول أن ما يقلقنى هو تحديد موطنه الأصلى ، ولكنى سارعت فى آخر لحظة بالإجابة .

— النوم .

— ماله النوم ؟

ما أدرانى ماله ، لو كنت أعرف ، لما جئت هنا .

— صعب علىّ هذه الأيام .

— بسيطة .

بسيطة ؟ ! ما هى البسيطة ؟ طريقة العلاج أم صعوبة النوم ؟ لماذا لا يأخذون المسائل جداً ؟ وكيف يصلون إلى هذه الأحكام بهذه الثقة والسرعة ؟ أم هو نوع من التشجيع الطبى ؟ بسيطة بسيطة .. أنا مالى .. أنا عملت ما علىّ ، ولتعالجنى البساطة ، « عالبساطه البساطه » ، كم أحب هذه الأغنية فعلا ، لابد أن

موطن هذا النطاسى هو فرنسا لأن العلاقة بين فرنسا ولبنان مثل العلاقة بين صباح والبطاطة ، طال صمتى وإن كان وجهى قد أشرق بهذا الاكتشاف ، نظرت إليه فوجدت أن وجهه قد أشرق هو أيضا بهذا البشر البادى علىّ، لعله اطمأن من ابتسامتى أن الحالة فعلا بسيطة وأنه استطاع أن يطمئننى، ظهر البشر علىّ أكثر لمّا أيقنت أن الهوة بيننا تتسع، مضى يسأل فى اهتمام ظاهر .

— وماذا أيضا ؟

— تغيرات لا أعرفها ولكنى أصاب أحيانا بدوار ويقل انتباهى عما حولى ، ولا أتذكر أسماء الأشياء جيداً فى بعض الأحيان .

— وماذا أيضا ؟ مم تشكو غير ذلك .

أشكو ؟ أنا لا أشكو ولكنى أتعجب من الذى يحدث ، أريد تفسيراً، أحس أنى بعيد جدا ، وهب أنى شكوت فهل تسمعنى وأنت على الشاطئ الآخر فى هذه الحجرة ، أحسست بإشفاق شديد عليه مشوب بالاحترام لقدرة هذا الإنسان على التخيل ، رددت عليه فى هدوء أقرب إلى اليأس .

— أبداً .

طلب منى أن أخلع حذائى وتذكرت ذلك الموقف مع طبيب الأطفال ولم أسمح لخيالى أن يرجع بى إلى هذا العهد القديم فوق ظهر أم صبحى أثناء حمام ليلة العيد ، فقد تغير الحال ولم يعد خيالى ساذجا مثل الأول ، الآخر كان طبيب أطفال ، وكنت بادئا فى السكار ، أما هنا فإن تطور الأمور يلزمنى بالتركيز والمحاولة الجادة ، رغم البساطة المطروحة كحل سعيد .

حيرة عجيبة تلك التى مررت بها مع هذا الإنسان العظيم الصبور العالم ، لم يترك فى جسمى شبراً إلا وشكه بدبوس أزعجنى فى أول الأمر ولكنى رويداً

رويداً أخذت استمتع باللعبة الجديدة ، وحاولت أن أتعاون معه إلى أقصى مدى ، كلما شك شـكّة وطلب منى أن أقارن بين هذه المنطقة وتلك كلما ازداد احترامى لإتقانه عمله ـ ولـكن يبدو أنى خيّبت ظنه فى أغلب الأحوال لأن اســتجابتى للدبوس كانت تتوقف على أفـكارى الخبيثه لا على مدى إحســـاسى ، وحين وجدت وجهه يعبس ، خفت وقررت أن أجامله بأن أصطنع فرقا بين إحساساتى حتى أعطى لعمله معنى .

— لا . . . هنا أكثر

— طيب . . . وهنا أكثر أم هنا ؟

— أكثر قليلا

— وهنا أم هنا ؟

— لا هنا

وفشلت مرة أخرى فى إرضـــائه فقد «زغَر» لى «زغرة» طبية محترمة ألزمتنى حدودى ، وأعادتنى إلى أفـكارى السابقة تاركا له جسدى يفعل به ما يشاء من ثنى ومد ومحاورات أشبه بتدريبات الرياضة البدنية ، وحين طلب منى أن أرفع حواجبى وأصَفِّر ، كدت أظن به وبنفسى الظنون ـ واستمرت اللعبة حتى هرش أسفل قدمى بمفاتيحه وقلت بدأ بالزغزغة والله يسـتر ، وانفجرت فى الضحك ولم يسكتنى إلا إطفاء نور الحجرة ، أحسست بهدوء غريب ، وقدرت أننا نقترب من اكتشـاف الحقيقة ، أحسست به وكأنه قفز إلىّ فى صـاروخ عابر القارات ليقترب منى فى هذا الظلام المريح ، نور مستدير يصدر من جهاز بيده أيقظ الأمل فىّ بشـكل لم أعرفه من قبل ، هل يأتى النور أخيراً من جوف الظلام ، اقتربت الدائرة أكثر ثم اختفت حين غمر عينى شعاع ساطع ، إقترب هذا العالم الذكى من وجهى وأحسست

بلفح أنفاســه تغمر وجهى ، الآن فقط تبينت أنه من لحم ودم مثل ســائر البشر فهو يتنفس —مثلا— مثل الآخرين ، انتقل النور من عين إلى عين وأنا فى حالة من الانتباه والانبهار والأمل معاً ، كنت أحس بجديته وهو يبحث فى عينىّ عن كنزخفى ويأمرنى أن أنظر إلى إصبعه وأن أثبت نظرى حتى يتمكن من الرؤية ، ذكّرنى بمصباح ديوجين وهو يبحث عن الإنسان فى وضح النهار — هل يبحث هذا العالم فى عينى عن الحقيقة ، يبدو أن الطب الحديث قد عثر أخيراً على طريق مباشر لاكتشاف الحقيقة فى أعماق العين ، كان ينبغى أن يعلن هذا فى كل مكان حتى يستريح الناس « الحقيقة فى قاع العين . . يا خلق يا هوه !! » لو علم ذلك الاســتاذ غريب لتوقف عن الغوص فى كتب الفلاســفة بلا طائل ، ولتوقف كثيرون غيره عن الشقاء والضياع والتساؤل ، وأخيراً عثر العلم على صورة جديدة لمصباح علاء الدين الســحرى .

ملأ النور الحجرة فجأة وأفقت من سرحتى فاذا بالإنسان العالم قد انتقل بقدرة قادر إلى الناحية الأخرى من المكتب واستغرق فى أوراقه بوجه حازم وأخذ يكتب أشـياء واضحة باهتمام بالغ ، هل هذا هو نفس الرجل صاحب الأنفاس الدافئة تلفح وجهى ؟ هل هو نفســه الباحث عن أصـلى وفصلى فى قاع عينى بمصباحه السحرى ؟ أكاد أحس بأنهما شخصان تماما ، هل هى مجرد خيالاتى التى صورته لى إنسانا دافئاً جاداً يحاول مســاعدتى وهو فى الحقيقة ذلك الإنسان الآخر العالِم ذو الغليون واللـكنة الأوربية ؟

قال لى بوجه حازم .

— فعلا بسيطة

رجعنا إلى البساطه ثانية ، ذهبت أوهامى عن الحقيقة مع رياح البر والبحر

عبر الأبيض المتوسط ، كتب لى بضعة أقراص بعد الأكل وأخرى قبل النوم وأمرنى بالامتناع عن مأكولات عزيزة على منها الجبن والزبادى والفول والطعمية والسلمون والسردين، ما علاقة هذه الأشياء بمرضى العصبى؟ أم هو تسمم غذائى ؟ عادت إلىّ أغنية البسـاطة والبطاطة على ذكر الجبن والزبادى وسألته .

— هل امتنع أيضاً عن الزيتون والبطاطة

نظر فى دهشة ولـكنه قال فى علم أكيد

— لا . . . هذه المـأكولات التى منعتك عنها لا تتناسب مع بعض الأدوية التى ستأخذها .

وفوق كل ذى علم عليم ، ماعلاقة الأقراص بالاعصاب بالجبن بالبساطه بالبطاطه ، ما أعظم العلم الحديث !! وما أجهل الجير فى علوم الزنجبيل .

خرجت من لديه شاكراً محترماً كل ماحدث وإن تملـكتنى شفقة غريبة عليه ، هذا الإنسان الذكى العالم : ماذا عرف عنى ؟ من أنا ؟ أين ذهبت به ظنونه ؟ أيهما أقرب من الواقع ، خيالى المريض أم خياله العـالم؟ خرجت وأنا شاعر بالامتنان وأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، ولقطت بعينى أثناء مرورى بالصالة تلك الأبيات التى لحتها فى القصيدة التى مطلعها «خرجنا من لديك وقد شفينا » وكان نهاية المعلقة :

« سنبقى شاكرينك ماحيينا   وأنتم رب طب العالمينا »

ملأنى شـعور بالخجل أن أخرج « هكذا » بلا عرفان حقيقى بالجميل لرب طب العالمينا ، وأن كل ماأحمله له هو نوع من الشفقة ، وبضعة علامات استفهام تتراقص أمامى فى تحدٍّ ، وشىء فى داخلى يخرج لى لسانه .

ورغم كل هذا الجحود وتلك الشقاوة والشك والتردد تناولت الأقراص كما وصفها لى ولم أستطع أن أخفى عن زوجتى هذه الزيارة حتى أجد مبرراً لهذا النظام الغذائى الخاص ، ولم تخف زوجتى فرحتها بأنى عقلت أخيراً وذهبت لأستشير أصحاب الرأى ، واطمأنت إلى أن ما بى عارض يمكن أن يزول بأقراص بعد الأكل ، وأخرى قبل النوم وممنوعات فى الطعام .

* * *

ليال وأيام لا أعلم كيف تمضى ، أحس أن كابوساً هائلا يكتم انفاسى ، أصحو وكأنى نائم وأنام وكأنى مستيقظ تماماً ، ولكنى مقيد الحركة فى الحالتين ، وأحاول أن أتخلص من هذه الأقراص اللعينة التى نجحت فى تجفيف ريقى بقدر ما كادت تطرحنى أرضاً بلا حراك ، كانت عملية إعطائى الحبوب تذكرنى بشربة زيت الخروع التى كانت مقررة علينا ونحن أطفال، كل شهر — لتغسل الجوف وتجلى الذهن وتعالج الدمامل ، ولم نكن نجنى منها إلا هذا الشعور بالقيء ، وكنت أحاول رشوة أبى ليعفينى منها لو أنى طلعت الأول فى امتحان الفترة ، والآن ماذا يعفينى من هذه الأقراص اللعينة ؟ أنا مستعد لأى شيء حتى لو وضعوا فى عينى « ششما » فإنه أرحم من هذا الكابوس اللعين ، لماذ لم يفكر هذا الطبيب فى ذلك بعد فحص عينى بمصباحه السحرى ، أنا طول عمرى أفضل الششم الأسبوعى على زيت الخروع الشهرى حتى لو كان كالشطة ذاتها .

بدأت فى التحايل على إخفاء الحبوب ثم إلقاء بعضها خفيسة من وراء زوجتى حتى انتهت بحمد الله .

* * *

أحسست كأنى كالطائر الحبيس الذى أطلق سراحه فجأة — ولن ألوم إلا نفسى على هذا السجن الكيميائى الذى دخلت فيه برجلى ..

الآن : رأسى صاف وأفكارى تطير بأجنحة من نور فى كل مكان، لم يعد يقيدها هذا الثقل الكيميائى ، إستعدت حريتى فجأة وعرفت قيمتها ولن أفرط فيها ثانيـة تحت أى وهم من أوهام العلاج ، حتى لو اقتضى الأمر أن أعيش فى السر بقية حياتى ، سوف أخفى كل شىء ، سوف أحذر كل نصيحة بعد الآن ، المدير لا يفهم إلا فى الإدارة ، والطبيب لا يفهم إلا فى الطب ، ما عندى ليس طباً ولا إدارة. إنها أشياء لم تدخل بعد قاموس عالمنا الأرضى ، لا يوجد فى الدنيا أغلى من الحرية .

* * *

خرجت إلى الشرفة ووجدتنى أستنشق الهواء بعمق طال شوقى إليه ، لعلى كنت أتأكد أنى طليق بعد إزاحة هذه الأحجار الملونة عن خلايا مخى، كنت أرى العربات وكأنى أشاهد لعب الأطفال تتصارع للوصول إلى هدف غامض ، كنت أحس بخلايا جسدى تتحرك تحت جلدى فى يقظة حديثة لاذعة لا أكاد أعرف لنشاطها هدفاً معيناً ، يبدو أن مجرد محاولة البحث عن هدف هو شىء سخيف ليس أسخف منه إلا محاولة البحث عن معنى ، ماذا يقول لى هذا الإحساس الجسمى تحت جلدى ؟ لا شىء إلا أنه يشعرنى بالحياة فعلا كما هى .. ربما دون هدف ، ترى هل كل هؤلاء الذين يتحركون فى الشارع يشعرون بهذا الشعور الخاص ؟ وإذا لم يشعروا بشعور الحياة هـذا فهل هم أحياء ؟ وكيف ؟

تحول نظرى إلى الشرفة المقابلة فلمحتها، « أمانى » عصفورتى، وروح قلبى، لوّحت لها بيدى، كادت تقفز من الشرفة وهى تلوح لى هى الأخرى بعينيها ويديها ووجهها .. وصدرها .. وكلها، تذكرت إحساساً مشابهاً غمر جسدى قبيل إعلان الرجولة .. ذلك الإحساس اليقظ الذى يعطى لنسمة الهواء معنى، كنت فى سن أمانى، ولكنى لا أعلم متى وكيف اختفى، ثم إنى لا أعلم لم عاد هذه الأيام ؟ لم أشعر أنى فى سنها وربما أصغر ؟ لم أحس بنبض كل خلية فى جسدى وعقلى حتى أظافر رجلى ؟ يبدو أن هناك ما ينبغى أن يسمى « لغة الخلايا » وهى أعظم وأصدق وأبهج من لغة العيون أو لغة القلوب، ناهيك عن تلك الألفاظ التى دخلت قاموس الإنسان لتفصل بين عواطفه وعقله وجسده . ربما كان هذا الشعور الكامل هو الذى أشعرنى أن أمانى تلوح لى « بكلها »، خلاياها تقفز من تحت جلدها وخلاياى كذلك، لم تعد مثل ابنتى الصغيرة، أحس أن خلايانا يمكن أن تلعب سوياً، تقفز الحبل تتدحرج على الشاطئ، تطير فى السماء، تذوب فى البحر .. لا . لم تعد أمانى ابنتى، ماذا أصبحت لى؟ حبيبتى ؟.. أختى؟ أمى؟ صديقتى.. لا، « أنا »؟ يجوز..

اختفت من الشرفة، لحتها بعد لحظات فى الشارع ، نزلت دون تفكير، تسقط كل حسابات الأرض، .. ابنتى ؟ عشيقتى ؟ لوليتا ؟ عفريتا ؟ هذا آخر ما يمكن أن أفكر فيه، نزلت هكذا والسلام .

كانت تمسك بشىء ما بين ذراعيها ضاغطة بهما على صدرها — كتب أو حقيبة — وكان هذا الوضع يجعل جسمها يتحرك بأكمله فى نعومة متماوجة تتناسب مع توقف حركة المجدافين عن ضرب الهواء، كانت مثل السفينة الشراعية تسير حسب الريح رافعة رأسها لتلتقط موجات النسيم فتنساب فى سحر هادئ، أيام الثانوى كنت أعجب من هؤلاء الطلبة الذين يتناوبون توصيل

الطالبات إلى المنازل من المدارس وبالعكس ، محتفظين ببعد ثابت منهن مثل الكلاب الأمينة ، وكنت أتساءل عن جدوى كل هذا ، يبدو أن فى الإنسان قوى جاذبة للمادة الحية لاتظهر إلا إذا ترتّبت أجزاؤه مثلما كنا نمغنط الدبابيس فى حصة الأشياء والصحة ، لازالت خلاياى نشطه تخاطب أمانى فى صمت ، ضجرت من هذا الصمت وأصابتنى شجاعة ليست فى الحساب ، قفزت إلى الرصيف الآخر بعد أن سبقتها ببضعة أمتار ثم تمهلت حتى اقتربت منى ، كادت تتخطانى وهى لاترانى ، تلفت إليها حتى لاتضيع الفرصة ، أية فرصة يا أكبر عيل ؟ ، فرحت بى فرحة حقيقية ، تحدثت معى بلاتردد وهى تكاد تتعلق برقبتى مثل ما تعودت مذ كانت طول ركبتى ، أطلقت فرحتى أنا الآخر دون خجل ، مشاعر قريبة من المشاعر التى مرت بى مع آمال فى خيالى إلا أنها أعمق طفولة وأكثر جــرأة أيضاً : لاتستطيع أن تسميها « جنسية » كما لاتستطيع أن تستبعد منها الجنس ، شىء جديد أقرب إلى تفتح الزهر أو اهتزاز البطة لحظة خروجها من الماء ، أو نشوة رذاذ المطر تحت الشمس ، سألتها عن دروسها وعن واجباتها وعن ميعاد عودتها ، أجابت فى فرحة غامرة عن كل سؤال ، وكأنّ فى إجاباتها البسيطة إجابات لكل الأسئلة الحائرة فى الكون ، عرضت عليها خدماتى فى الجبر والهندسة فسعدت بذلك سعادة بادية ، ووعدتها بالمرور عليها لبدء الدروس التعاونية بعد إعلان والدتها الحاجة .

* * *

فى اليوم التالى مباشرة ذهبت إلى منزل أمانى فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، ولم أعن بأن أخبر زوجتى عن وجهتى أو لعلى تعمدت ذلك ، لاعلاقة بين العائلتين إلا تحيات الشرفات المتقابلة ..

طرقت الباب وفتحت لى « الحاجة » مرحبة داعية شاكرة، إتجهت إلى حجرة « الجلوس » : أريكتان عربيتان متقابلتيان مرتفعتان عن الأرض بشكل ملحوظ ، أمامهما منضدة مستديرة ، عليها قرص من الرخام مشقوق من جانب وقد عض على المفرش القديم الملقى عليه فى إهمال عضة يبدو فيها الإصرار وعدم الأمان بعد الكسر ، جلست وحدى أنتظر تلميذتى ، وابنتى وصديقة رذاذ المطر فى لهفة يقظة ساخنة .

ماذا جرى لى .. وماذا أفعل ؟

منذ أطلقت سراح عقلى بالكف عن تعاطى هذه العقاقير وأنا أتجنب مثل هذه الأسئلة خشية أن تؤدى بى مرة ثانية إلى إحدى هذه العيادات التى يديرها علماء جداً ، ولكنى لم أكن أستطيع أن أوقف مخى عن التساؤل فى مثل فترات الانتظار هذه حيث تقفز الأسئلة دون استئذان ، ولم يكن ذلك يخلو من فائدة على أى حال .

ماذا جرى لى .. وماذا أفعل الآن ؟

لم تمهلنى « الحاجة » إذ دخلت وقد وضعت على رأسها طرحة بيضاء تظهر بياض وجهها مشوباً بذلك الضوء الأحمر الحى ، كانت ملامحها تشبه ملامح ابنتها ولكن على بعد من السطح ، كأنما هى ملامح مختبئة وراء حجاب صنعه الحج ، وزيارة الرسول ، وسنوات العمر ، والتفكير فى مرض زوجها وجنون الأسعار معا ، كنت لاتستطيع أن تتبين عمرها : إما طفلة لم تتعد العاشرة وإما عجوزاً تكاد تتخطى الستين ، والوجهان يتبادلان فى حذر وراء الحجاب الشفاف .

سألتنى :

— قهوة أم شاى ؟

تباطأت فى الإجابة عن عمد ، ولـكنى قلت فى النهاية

— أريـد أن أحدّثك

كنت أريد أن أكتشف شيئاً لاح لى من بعيد ، كما كنت أريد أن أتعرف على حالتى أكثر .

قالت

— لقد قالت لى أمانى كل شىء وشـكراً ...

كل شىء ؟ ومن أدراها بكل شىء

— ولـكنى أريد أن أطمئن على حضرتك أيضاً

— الحمد لله ، صابرين على قضائه ..

— أنا تحت أمرك

— أكثر الله من أمثالك ، أنت تعـلم ظروفنا منذ مرض الحاج ، والمدرسون أصبحوا ندرة ولابد من الحجز السابق مثل الأطباء هذه الأيام .

— أمانى ابنتى وأنا أحبها منذ كانت تحبو

— فيك الخير يابنى

إبنها ؟ أنا ابنها وابنتها ابنتى ، وهى بنت من ؟ ضاعت منى معالم الزمن ، أحس أن كل الناس فى مثل عمرى ، لاأرى فى الناس إلاذلك الجزء من العمر الذى ليس له عمر . نحن الثلاثة أبناء بعض .. هيه !

نظرت إلى الحاجة بعمق لاأعرف معناه ، ولـكنى تصورت أنه يحمل دعوة للعب بشكل ما ، إلتقت نظراتها بدعوتى ، عادت تلتقط منها هذه

الدعوة ، احمر وجهها فجأة تراخت العضلات وتباعدت التجاعيد عن بعضها أشرقت من وراء نفسها ، أحسست برغبة فى الاقتراب منها أكثر ، عاودت النظر إلى عينى ، امتقع وجهها هذه المرة فى رعب لامثيل له ، ماذا فعلت بهذه العجوز الوديعة ، ماذا أحمل هذه الأيام فى عينى ؟ ماذا أريد ؟ وإلى أين ؟ عاودها بعض الهدوء بعد أن كادت تهرول خارجة دون حساب ، قالت فى براءة خائفة .

— ماذا ؟ ماذا ياعبدالسلام أفندى .. ماذا تريد ؟

أطرقت بسرعة وقلت بحنان

— لاشىء يا حاجة .. كل خير

— خير يابنى اللهم اجعله خيرا .. سأذهب أنادى لك أمانى .

انصرفت وأنا مازلت أتعجب مما جرى لى ، سمعتها تهمس قبل أن تغلق الباب ناظرة إلى ربع عين « ياساتر استر على الولايا » .

* * *

جاءت أمانى بعد قليل كالوردة النضرة ، فرحانه (لأول مرة أجد أن وقع هذه الكلمة له رنين خاص ، فهى أكثر تغلغلا فى الجوف من كلمات مرادفة مثل « سعيدة » أو « مبسوطه ».إنها تخرج من الأعماق مارة بكل خلية حتى تملؤ الحلق فى وداعة نشطة ، جاءت فرحانه ، كل خلاياها فرحانه، ليس فى كيانها كله خلية واحدة ضجرة أوصامتة ، إذا تحدثت رقصت عيناها حتى تحس بتيار الرقصة يصل إلى لون ساقيها ، وإذا ضحكت خدودها بغمازتيها ضحكت أحشاؤها وأصابع قدميها ، بل إنى رأيت التآلف ينتقل إلى الجماد من حولها ، كانت تجلس على الكرسى وتضع يدها على المنضدة

فتدب الحياة فيهما ويصبحان جزءاً من نغم الحياة الغامر ، مددت يدى أربت على خدها متظاهراً بأمور غير موجودة ، كنت أريد أن أتأكد أنها من نفس المعدن الذى صنع الله منه البشر ، كنت أريد أن أتحسس خامتنا فى صورتها الأولى قبل أن تتراكم عليها طبقات الصدأ والخوف والجشع ، وضعت يدى على خدها ، لم أربت عليه ، لم تجفل أو ترتعش ، سرت فى جسدى رعشه رائعة وكأنى نهلت من مادة الإنسان الخام جرعة تكفينى أن أفخر أنى كنت يوماً ما من نفس هذا النوع من الكائنات ، الآن تأكدت أن هذه العواطف التى تجيش بصدرى ليست جنساً ، وهذه الرغبة فى الاقتراب ليست شهوة ، شعرت براحة هائلة وتمنيت إذا عدت بشراً مثل البشر ، لو يعاد صنعى من الأول بهذه المواصفات ، ولكن هل تقدر هذه الطيبة مهما كان لها من وهج أن تواجه هذا العالم البشع ، لا يمكن أن تكون هذه الإنسانه من طين إلا إذا كان هناك نوع من الطين المشع ، وربما توجه البحث العلمى لإعادة اكتشاف هذا النوع حتى يعاد صنع الإنسان الذرى الذى يتناسب مع العصر ، غير أن هذه المادة غير قابلة للتحطيم أو الانفجار إلا إذا انفجر العالم كله يوم القيامة ، ربما أكون أنا هو حطام هذا التفجير الخفى ، ولكن إشعاعاً أمامى يعيد تجميع أجزائى .

قالت فى دلال

— أستاذ عبدالسلام . أين أنت

— هنا معك

— أنت تنظر إلىّ كأنك ترانى لأول مرة ، هل بى شىء غريب

— نعم

— نعم ؟ ماذا ؟

— أنا أحبك

— أنا أعلم ذلك ، أنتَ طول عمرك تحبنى

— وأخاف عليك من الصدأ

— من ماذا ؟

— من التفقت

— من ماذا ؟

— من الناس

— ولكنى لا أخاف . فاطمئن

— لا أعنى ماتعنيه أمك « الحاجة » أو أبيك شفاه الله . لا أعنى أنى أخاف عليك من الغواية أو الفساد ولكنى أخاف عليك من خوفهم

— أنت خائف يا أستاذ عبد السلام ، أنا أحبك أيضاً .

كدت أحتضنها حتى أذوب فيها ويتبخر رذاذ المطر تحت جلدى فى دفء حبات النور التى تشع من كيانها كله على شرط ألا أعود أبدا

فتحت الحاجة الباب ودخلت تحمل فنجان القهوة فى الوقت المناسب .

— على الريحه ، حسب طلبك .. حصلت البركة

— الله يبارك فيك ويحفظك ياحاجة

لم أشعر بالحرج أو الذنب ، لم يكن بداخلى مايشين ، ياحلاوة ! هل يوجد فى العلاقات الإنسانية شىء مثل هذا : بلا جنس ولا ذنب ولا خجل وبكل الجنس والطمأنينة والثقة ، شىء لم نسمع عنه أو نقرأ عنه فى الكتب لأنه ليس

فى متناول الوصف حيث هو أغنى من الألفاظ، وأكبر من مجموع الأجزاء ، نظرت الحاجة بجانب عينها إلى الكتب التى لم تفتح بعد ، وانصرفت دون أن يبدو عليها الرفض أو الخوف ، غير أنى سمعتها تتمتم هذه المرة «يامنجى من المهالك يارب » .

بدأنا الدرس مباشرة وتبينت أن أمانى لاتحتاج إلى جهودى الحسابية، بل إن حضورى يمكن أن يكون مضيعة للوقت ، أصابنى نوع من السكينة يجعلنى أقول الصدق بلا حساب ، حضرت الحاجة وأخبرتها ببساطة عما يجول بخاطرى .

— أمانى شاطرة ، وأخشى أن أضيع وقتها فى الدرس دون داع

قالت الحاجة بانزعاج

— هل تتركنا ياعبدالسلام أفندى ونحن ما صدقنا .

صدقتم ماذا ؟ أتركم ؟

— أنا تحت أمركم

قالت أمانى بواقعية لا انزعاج فيها

— تحضر لتراجع لى وترى مستواى كل أسبوعين .

قالت الحاجة

— وتسأل عنى يا ابنى

— أنا تحت أمركم ، ياليت كل الناس مثلكم

— أكثر الله خيرك يا ابنى

ما هذه الدوائر التى تلف فى عقلى ، كادت الدائرة أن تكتمل: أنا ابنها وهى ابنتى ، وابنتها ابنتى وربما تكون هى ابنة ابنتها كذلك ، من منهما

أكبر من الأخرى شتان بين جوع الأم وجزعها وبين واقعية الابنة وثقتها، الدنيا تكاد تكتمل فى دائرة أنا أضعف حلقاتها .

لم أنس أن أسأل عن الحاج ، دخلت حجرته فوجدت وجهه قد ازداد بياضاً من طول بعده عن الشمس ، أحسست بنفس الشعور الغامر من السكينة والنشوة مما أكد لى أن الأمر كله مشاعر إنسانية جديدة — ليس إلا — ولا داعى لتشويهها بالذنب أو حتى بمحاولة التفسير ، انحنيت على يده أقبلها وأطلب منه الدعاء ، همهم بأصوات غير مفهومة — فهو فاقد النطق مع الشلل ، أخذت من المريض الأبكم المشلول أكثر مما أخذت من الطبيب المختص فى الشلل ، استطاع أن يغمرنى بعاطفته وأحسست به وكأنه يعالج شلل عقلى ، يا سبحان الله .

خرجت إلى الشارع وكأنى اكتشفت كنزاً فى هذا العالم ، شيئاً نفيساً جداً ولكنه ليس مثل الجواهر النادرة التى أحسست بها زمان ، لأنه عادى جداً ورائع جداً ، ولو أن أى واحد رأى رؤيتى فى هذا اليوم لوجد أن الحياة تستأهل أن نعيشها بكل وسيلة وبلا هدف .

إذا كان هذا الشىء موجوداً فى عالمنا فلا بد أن الله موجود .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء ، وقدماى تقتربان من منزلنا ، لمحت « الزاوية » فى الشارع الجانبى المؤدى إلى بيتى والتى تقع فى بدروم إحدى العمارات وكنت أتعجب وأنا أمر بها يومياً كيف يعبد الله فى بدروم تحت الأرض ؟ دخلتها دون تردد أحسست أنى أدخل غار حراء ، لم أجد بها إلا رجلا واحداً ملتحفاً بعباءة تغطى رأسه ووجهه يجلس فى ركن من أركانها ، يهتز هزات رتيبه إلى الأمام والوراء ، كأنه بندول السكون ، اتخذت مكانى على بعد منه وجلست القرفصاء انظر فى حجرى « أحسست

أن جسدى قد بدأ يهتز بنفس النظام فى هدوء ذى نغم ، ابتدأت النشوة تنساب تحت جلدى إلى كل أجزائى ثم إلى كل ما يحيط بى ، نظرت إلى أعلى المنبر المكون من درجتين خشبيتين متآكلتين ، وخيل إلىّ أن المكان أصبح أكثر إشراقاً ونوراً . . صليت ركعتين دون أن أتأكد من وضوئى . . أحسست بالخشوع الحى . . طال سجودى حتى كدت أستوى بالأرض .

تسحبت فى هدوء إلى الخارج دون أن ألقى السلام على الإنسان المجهول القابع تحت عباءته يحسب الزمن السكونى باهتزازه المنتظم .

ما علاقة هذه الأشياء بعضها ببعض : أمانى ، بالجنس ، بالصلاة ، بأمها بالشلل ، بالله ، بالجنون ؟

هل تتآلف كل هذه الأشياء فى كيان واحد ؟

حين اقتربت من منزلنا لم أشعر بالرهبة مثل كل مرة ، لم أشعر أنى غريب ينبغى أن أتردد فى الطرق على الباب وكأنه ليس له حق الدخول ، لم يزل التآلف بين كل الأشياء يملك علىّ كيانى ، وجدتها نائمة ، قبّلتها على جبينها ابتسمت وهى نائمة وكأنها تحلم ، أحكمتُ وضع الغطاء حول ظهرها . . زادت بسمتها ، أطفأت نور الأباجورة حتى لا تستيقظ ، التف ذراعها حول عنقى ، أحسست بالعالم يتجمع بين يدى وكأننا عدنا إلى أيام الخطوبة ومن ثم إلى بدء الخليقة حيث لا جنس بالمعنى المادى ، وحين التحمت بها أحسست بخشوعى فى الصلاة ونشوتى حين وضعت يدى على خد أمانى .. ومشاعرى حين قبلت يد والدها المشلول .. ورغم أن استجابتها فى الأول قد خالطتها الدهشة إلا أن فيضانى أغرقها وسرى فى عروقها حتى حطم ترددها ، وأسكت تساؤلاتها قبل أن تطرحها حتى على نفسها .

ونمت كطفل غلبه النعاس بعد أن شبع ، وحلمة الثدى لا تزال فى فمه :

* * *

فتحت عينى فى اليوم التالى وحاولت أن أتذكر الحلم الذى كنت فيه فلم أستطع كأنه كان شيئاً كالواقع ، اختلطت به أحداث أمس ، وأخذت أبحث عن المشاعر الغامرة التى ملكتنى طوال أمس بين منزل أمانى وزاوية البدروم وحضن زوجتى فلم أجد شيئاً من ذلك كله ، نظرت إلى وجه زوجتى وهى نائمة فوجدتها لا زالت تبتسم ، لم أستطع أن أستجيب لابتسامتها بسكينة أمس ، أين ذهب كل ما حدث ؟ لم يكن حلماً وأستطيع أن أقسم ، فأنا أستطيع أن أفرق بين الحلم والواقع بوعى كامل وحذر غير محدود ، ومنذ ذلك الحادث الأول وأنا لا أسمح لخيالى بأن ينفصل عنى ولا ثوان معدودة ، إذاً أين ذهبت مشاعرى ؟

عقلى مازال يعمل بنفس النشاط ولكن جسدى هامد مثل كيس الرمل ، كأن شيئاً أطفأ حبات النور حتى انقلبت حجارة من سجيل ، رذاذ المطر قد أصبح كتلا من كثبان الرمال المتماوجة المتحركة التى يمكن أن تغمر قافلة بأكملها فتقضى على كل نبض للحياة فيها .

إلى متى سأظل أعيش بالصدفة ، تأتينى المشاعر دون إنذار فتدب فى الحياة وتغمرنى وأغمرها حتى أحس أنه فى قدرتى أن أسوى بشراً مثلى ، ثم تذهب عنى دون استئذان فتتركنى مثل عود أذرة جاف فى مواجهة ريح الخريف ينتظر من يخلع جذوره . ويهرس خواءه .

متى يأتى اليوم الذى أضع فيه يدى على مفاتيح هذه المشاعر ؟ آتى بها وقتما أريد وأختزنها حين ترهقنى الحياة العادية أو حين يغمرنى خدرها بما

يفوق احتمالى أو يعوق حركتى ، ولكن كيف يعيش بقية البشر ، هل يعيشون بهذه المشاعر أو بدونها ، إذا كانوا يعيشون بها فكيف يتحملون تقلباتها ، وإذا كانوا يعيشون بدونها فلماذا يعيشون ؟

كان اليوم يوم جمعة بمحض الصدفة ، واعتبرت ذلك عبئاً ثقيلا لا قبل لى به ، إذ كيف أمضى كل هذه الساعات تحت كثبان الرمل المتماوجة ، وكيف أواجه زوجتى طول النهار ؟ تُرى هل تتوقع تغيراً فى معاملتى ؟ وإن كنت حتى الآن لم ألاحظ شيئاً فى تصرفها ، يبدو أنها اعتبرت الأمر كله مجرد حلم عابر ، وعزمت ألا أفاتحها فى شيء كالعادة .. ولأبحث لى عن مهرب حتى المساء .

. . . . .

لبست ثيابى بسرعة وخرجت وليس فى نيتى وجهة نظر معينة ، أقفلت الباب خلفى وقبل أن ألتفت إلى الدرج لأهم بالنزول توقفت نظراتى على باب الشقة المقابلة ، ذهنى يستطيع أن يفكر بالرغم من انطفاء شعلة أمس ، هذا وقت الأستاذ غريب .. سأذهب لأبحث عن بعض مفاتيح هذه المشاعر، حتى لو كان هو بلامشاعر فقد يعرف مفاتيحها ولا يحسن استعمالها، لن ألعب معه « كيكا عا العالى » ، لن أسمح لتصورى الشماتة الصامتة أن يحول بينى وبينه ، لن أقرأ فى عينيه « أخيراً جئت » فقد تقدمت فى « الكار» وتمركزت على قاعدتى المقامة فى كوكبى الخاص الذى لا أتركه إلا لأحتوى الأرض بلا تمييز مثلما حدث يوم أمس ، الآن أستطيع أن أعرف من هو على وجه التحديد ، ولماذا ، حتى لو لم أعرف من أنا ، قدرتى على الحكم على الأشياء قد شحذت وتطايرت الأقنعة القديمة وأصبحت قادراً على البحث من جديد ، أتذكّر أيام المراهقة وأحس بوجه الشبه ، إلا أنى هذه الأيام

لست متحمساً لأن أهـدى أو أهتدى ، ولـكننى قادر على المواجهـة .

طرقت باب الأستاذ غريب وفتح لى مرحباً فعلا وكأنه كان ينتظرنى فى نفس اللحظة ، لا شماتة ولا تحـد كما توقعت ، ربما كانت الشماتة فى المرة السابقة مجرد تصوراتى أنا .

— تفضل .

دخلت دون تردد وجلست فى الصالة وبقايا قطعة جبن أبيض منزوية فى ركن طبق من البلاستيك على المنضدة ، ونصف رغيف جاف يرتجف بجوارها من البرد ، وأربعة كتيب متناثرة بجوارهما وكراسة مغلقة على قلم مختبىء فى طياتها فى استحياء ، أحسست كأنى رأيت هذا المنظر قبل ذلك رغم أنى لم أدخل شقته أبداً ، بدا وجهه طيباً ومرحباً وإن لم يخل من بعض الدهشة .

— تشرب شيئاً ساخناً فى هذا البرد .

— شاى لو سمحت .

— ليس عندى شاى ؟ عندى ينسون أوحلبة .

لم أتردد فى طلب شىء ماحتى تتاح لى فرصة التأمل والتفـكير والاستعداد لشىء لا أعرفه بالتفصيل ، رغبة فى الاستـكشاف يصاحبها خوف من الامتحان ، كنت أشعر أنى أفتح على نفسى باباً كنت أغلقته واسترحت ، ولـكنّ ماوراءه ظلّ كامناً نفسى كالشقة المقابلة ، حتى آن الأوان ..

ولـكن .. هل حقيقة آن الآوان ؟

يا ليته يحدث ... ويا رب لا ..

ذهب يعد المشروب الساخن .

من فرجة باب الحجرة المقابل لمحت سرير الأستاذ غريب وقد تـكور

عليه لحاف قديم هو للبطانية أشبه ، وقد مال لون الملاءة البيضـــاء — تاريخاً — إلى السواد ، وعلت وجهى ابتسامة وأنا أتذكر القرداتى يسأل قرده « نوم العازب ازاى » لم لا يتزوج الأستاذ غريب ؟ كيف يصرف أموره ؟ ؟

— تفضل يا أستاذ عبد السلام .

— شكراً ..

جلس بجوارى فى وداعة طفل وأخذنا نرتشف هذا السائل الذهبى فى هدوء ، وانتظر كل منا أن يبدأ الآخر بالحديث .

— لماذا لا تتزوج يا أستاذ غريب ؟

انزعج قليلا ولكنه سرعان ما استعاد ثقته وهدوءه .

— هل عندك عروسه ؟

(واحد صفر)

. . . .

. . . .

سخيف هذا الصمت ، لا .. لن أدخل المباراة بهذه الصورة ، سوف أغامر لأكتشف ورزقى على الله .

— أنا أمر هذه الأيام بشىء جديد ، تصورت أحياناً أنك تعرف عنه أكثر منى .

— خير يا أستاذ عبد السلام .

— الأسئلة عندى زادت عن الأجوبة ، ولا أكاد أمسك بخيوط تفكيرى ، أشعر أحياناً أن كتلة تفكيرى مثل لفة الصوف التى تشابكت خيوطها بلا أمل فى سلسلتها مرة ثانية .

— أنا سعيد بلقائك .

لا ... ليست شماتة .. ولن تكون صحبة ، هو مجرد لقاء ، أنا لا أحتمل المشاركة الحقيقية لأى درجة ، أنا لم أقفل باب زوجتى لأفتح هذا الباب ، ليقف كلٌّ فى مكانه .. « كما كنت » .

— لماذا نعيش ؟

— يقولون : لنعبد الله .

— هذا ما تعلمناه فى رياض الأطفال ومن فوق المنابر ولكن كيف يعبد الله فى هذا الزمان ؟

— وأنت ما رأيك ؟

— جئت هنا لأقول لك أنى لا أعلم .

— ولا أنا .

واتتنى الشجاعة لأواصل انسحابى المجوى .

— إذاً .. لماذا نستمر ؟

— لا أشعر أنى مستمر .

— وماذا تنتظر ؟

— لا أدرى ..

كل هذه اللا أدرية ولم تهتز خلجة فى وجهه ! ؛ ترى هل مر يوماً بمثل مشاعرى أمس ، وهل يستطيع أحد أن يمر بمثل هذه المشاعر ثم ينتهى كهلا فى عز الشباب ، مجعد الوجه باهت اللون فى عالم اللا أدرية مثل غريب .

فجأة استيقظ فىّ الإنسان السيف :

— ولكنى أحس أنك تدرى يا غريب .

شيء ما يحدث عندما تسقط الألقاب وحدها، أشعر أن حاجزاً ما يتحطم؟ أشعر بالراحة أكثر من ذى قبل، لأول مرة أشعر أنى أصل إلى طبقة الخوف داخل أعماقه ، تقدمت بخطوات حذرة ، يتقدم هو الآخر . . ولكنه تراجع ليتساءل :

— كيف عرفت يا أستاذ عبد السلام ؟

— انفتحت فىّ بلا مناسبة طاقة من المشاعر تصحبها معرفة تلقائية ، قل لى يا أستاذ غريب ماذا تنتظر ؟

لا بد أن يسلم ، لا أحد ـ مثله ـ يستطيع توقى هذا الهجوم .

— أبحث عن السبب .

— كيف ؟

— فى هذه الكتب .

— السبب .. فى الكتب ؟

امتقع وجهه وزاد غموضاً وتحفزاً .

— إذاً ... أين يا أستاذ عبد السلام .

— هذا ما جئت أسألك عنه .

تغير وجهه وأحسست أنى نجحت فى مهمتى ، حتى بدا مدافعاً محتجاً ، قال على غير توقع :

— تجاورنى عشر سنوات ، وتتجنبنى فى منزلك أغلب الوقت ، ثم تزورنى بلا استئذان ، لنتبادل حديثاً كالاتهام ، ماذا تريد منى الآن ؟

اكتشفت أنه تخطى حدوداً ما ، كان راسمها لنفسه وحاول أن يتراجع فلم يستطع ، فتماديت فى الهجوم على أمل أن أجد جوابا لنفسى .

— إلى متى ستنتظر يا غريب ؟

— حياتى انتهت إلى هذه الوقفة المتوازنة ؟ ليس أمامى إلا البحث ، وليس عندى أمل إلا فى الانتظار .

— ولكنك لا تبحث ولا تنتظر .

من أين لى بكل هذه القوة والرؤية الواضحة ؟ .

— كل شىء وارد فى صفحات الكتب .

— فلا داعى للبحث ، فهو وارد .

— أنا أبحث عنه ولن أكف حتى أجده .

انتبهت إلى أننا نتكلم عن مجهول ، وواصلت بالرغم من ذلك ولكنى غيّرت الاتجاه حين تذكرت أنى جئت أبحث عن مفاتيح تلك المشاعر فأحالنى إلى قاضى القضاة سألته مباشرة :

— أحسست يا غريب بشىء كالزلزال ، هزنى وكأن القيامة قد قامت ، جعلنى أشك فى كل شىء ، وجئت أسألك عن طريق لمعرفة ما حدث ظناً منى أن كثرة ما قرأت يعينك فى الإجابة ، ولكنك خيبت أملى .

يبدو أنى قلتها بصدق لأنى رأيته يكاد يهتز ، ولكنه تماسك قائلا :

— لا لن أخوضها ثانية .

أدركت أنه عرف عما أتحدث فهدأت قليلا .

— أحس أنى لابد أن أعرف مفاتيح تلك المشاعر وكأنى أبحث عن مفاتيح الحياة ذاتها .

— هذا سبيل خير ، أنا كل همى أن أعرف ماذا عرفوا ، لا أن أحاول من أول وجديد .

— ليس المهم ما عرفوه ، ولكن كيف عرفوه .

— من أين جئت بكل هذا يا أستاذ عبد السلام . يبدو أنى أسأت بك الظن ...

— لم تشرب حلبتك :

— أريد ملعقة صغيرة ، فأنا أحب أن آكل « الحصا » .

— طعمه مر .

— الناس أذواق .

ذهب ليحضر الملعقة ، ولما عاد أحسست أن فراغاً قد ملأ رأسى بحيث لم أجد قدرة ولا رغبة فى مواصلة الحديث ، جلس متردداً متحفزاً على طرف الأريكة ، طال الصمت بيننا فاستأذنت فجأة .. ولم يحاول أن يستبقينى .

* * *

خرجت من عنده وأنا مضطرب متعجب ، من أين جاءنى كل هذا الكلام الصعب؟ أنا لا أعرف من أنا ولا إلى أين، ولكنى كنت أتكلم معه وكأنى أعرف ، أو كأنى أستطيع أن أعرف، ذهبت لزيارته وأنا أحسب أن تحت القبة شيخاً ، ولكنى وجدت أن ما تحت القبة كتاباً .. ليس مقدساً على أى حال ، ومع ذلك أحببته أكثر من أى وقت مضى، كنت أخاف منه، أحس بالنقص تجاهه ، أحسده على شىء لا أعرفه، ذهبت كل هذه المشاعر ولم يبق إلا الحيرة والشفقة والألم ـ ولكن ما هو الألم .. لقد نسيت هذا اللفظ فى زحمة المشاعر العملية « الرغبة، الشبع، العطش . . الخ » هذا ألم آخر غير ألم إصبعي « المدوحس» فى العام الماضي ، ألم أحس معه بسريان الحياة وقسوتها

فى نفس الوقت ، بم يشعر الأستاذ غريب ؟ . . هـل يشعر أصلا ؟ هل يتألم ؟ هل يحب ؟

زمان ـ قبل الواقعة ـ كنت أحسب أنه يحمل كل أسرار العالم ، وكانت نظراته تقول لى « أين أنت » ولا أنسى ذلك اليوم الذى وقعت فيه الواقعة حين كنت أقف أمام شباك إيصالات النور أستعيد زيارته فى اليوم السابق ، كنت أحس حينذاك أنه يدعونى ـ سراً ـ إلى عالمه ، فلما استجبت له رغم أننى وذهبت إليه . . ولو بعد حين ، بناء على دعوته تلك ـ بشـكل ما ـ ، وجدته بلا عالم ، كان مثـل زهرة محنطة مضغوطة بين صفحات كتاب ، لا هى تتحلل إلى ذرات يذروها الريح ربمـا وجدت بذورها أرضاً أخرى ، ولا هى تعلن موتها باختفاء لونها ، ما زال لونه يشع من ورائه ، ربما بالرغم منه ، لـكنه لون بلا رائحـة ، وما زالت بذوره تتجمع وسط أوراقه ولـكن جفافها يشـكك فى قدرتها على الإنبات .

* * *

لم تمر هذه الحادثة بسـلام ، كأن ركناً هاماً فى تـكوين ما ـ كنت على وشك إقامته ـ قد انهار قبل أن أبدأ .

لم أيأس .

ولـكنى لم آمل فى شىء .

* * *

فتحت لى « أمانى » بنفس الوجه الصبوح وتخيلتها تقفز لتتعلق برقبتى مثل زمان ، واستقبلتنى الحاجة بنفس الترحاب ونفس الطيبة ، مع مسحة من الخوف ذى النداء الخافت ، ولـكن الأمر بالنسبة لى كان قد اختلف ، ما حدث ذلك اليوم لا يعود ، كنت أخشى أن تلاحظ موتى وكذبى ، فضلت أن

أجلس فى الصالة ، أقبلت على الدرس وكأنى أنهى آخر ملفاتى فى العمل ، أحسن ما فى الموقف أن أمانى لم تلاحظ شيئاً واستمرت فى حيويتها تقفز كل قطعة فيها وكأنها نحلة تحمل العسل ، لا تكف عن الطنين حوالىّ ، تريد أن توقظنى بأى وسيلة حتى تمنيت أن تلدغنى ، ولكنى جزعت لمّا تصورت أن لدغتها قد تنهى حياتها بلا ضمان لإحساسى بها ، كنت على بعد ملايين الأميال ، رجعت إلى كونى البعيد غير مختار ، مرت أمامى الحاجة عدة مرات بمناسبة وبدون مناسبة ، كانت تنظر إلىّ فى كل مرة وكأنها تبحث عن شيء لم أحضره معى هذه المرة ، وكلما تأكدت من غيابه أقبلت أقل خوفا وأكثر احتجاجا ، كدت أسمعها تقول ..

— لماذا لم تحضره معك ؟

— لست ولى أمره

— إذا لماذا أحضرته معك فى المرة السابقة ؟ فقلبت كيانى

— لا يستأذن فى حضوره أو غيابه

— اخص عليك

— احذرى : إنه قد يسمع نداءك

— اياك . . انتهت أيامى

وأفيق من خيالى على صوت أمانى تسألنى سؤالا ما ، وأجيب عليها إجابة صحيحة ، وأحمد الله أنها قد اختفت فى هذه اللحظة . .

. . . . .

تقترب لحظة الانصراف التى كنت أنتظرها بفارغ الصبر فإذا بى أفزع ، وتصيبنى شهوة غريبة نحو أمانى ، شهوة جنسية صريحه لا جدال حول طبيعتها

أو هدفها ، سرت فى جسدى وضبطت أعضائى متلبسة بها ، خيالى يتصور أوضاعا جنسية مبتذلة مع هذه الطفلة البريئة ، أسرعت بجمع أشيائى وخرجت وكأنى أجزى .

* * *

فى المرة الأولى كانت مشاعر من نوع جديد فريد ، لاتصلح أن توصف بأى صفة من الصفات الشائعة ، لم تكن جنساً ولا حباً ولا فرحة ولا نشوة ولكنها كانت كل ذلك مخلوطة بالألم والصحوة ، لو أن لى حقاً فى أن أسميها لسميتها «الحياة» يمكن أن يخرج منها الجنس أو الشعر أو الثورة ، يمكن أن تحطم بها الذرة أو تغير تنظيم الكون ، أو تسبح فى السماء ، أو تطير فى قاع االبحر ، أمّا هذا الشىء الذى حدث اليوم ، وأنا أغادر بيتهم فهو الشبق الجنسى بلا زيادة ولا نقصان ، الجنس جنسا مع طفلة هى ابنتى بكل المعايير العادية .

أى شيء يجرى فى الداخل ؟

هل أجرؤ أن أذهب اليهم ثانية أم أهرب بلا عودة ؟

رجع الغيام يلف فكرى وأظلمت كل مصادر النور ولم يبق لدى سوى هذه الشهوة التى أخذت تتزايد يوما بعد يوم ، شهوة تذكرنى بحمار أزرق اللون كبير السن كان من علامات عراقة حظيرة المواشى عند أبى ، وكان شديد الاعتزاز بنفسه يحمل السماد والتراب دون بنى البشر ، لايقبل أن يستعمل «ركوبة» على ما فى ذلك من مزايا ، وكان ـ جنسياً ـ ذو فحولة يخشاها بقية الحمير حتى إذا «طلبت» أتان الحمل احتكرها لنفسه بعد كل نقلة سماد فلا يجرؤ غيره من الأقتراب منها فى وجوده ، وكان يجرى فى اتجاه أى أتان يلقاها فى الطريق فإذا حال دونه حائل رفع رأسه إلى السماء

وكأنه يستجير بها فاتحاً شفريه مع إصراره على أسنانه ، وكنت فى ذلك الحين أعجب به أشد الاعجاب وأرهبه فى نفس الوقت أشد الرهبة !! كانت صورته تراودنى وأنا أغلى بالشبق الجنسى وأندفع به فى كل اتجاه وراء أى عضو أنثوى يظهر فى الطريق ، وحتى المصائب التى كانت تحدث فى الاتوبيس أحيانا لم تنبهنى إلى تدهورى السريع .

ماذا جرى لى ؟ هل أنا الذى لم يكن يعرف كيف ينظر إلى جارته فى مدرج الكلية ؟ هل أنا الذى كنت أبتهل إلى الله ساجداً فى الزاوية منذ أيام حتى كدت استوى بالأرض ؟ هل أنا الذى كنت أناقش الأستاذ غريب .. أدعوه للحياة وأرفض انتظاره السلبى ؟هل اجرؤ على الذهاب إلى بيتهم ثانية ؟ لامفر من التجربة ...

* * *

فتحت لى الحاجة بنفسها ووجهها الطيب هو هو ، بسمتها الوديعة تملأ صفحته ورائحة المطبخ تفوح منها ، وفى إحدى يديها حزمة ملوخية وفى الأخرى سكين ، أمانى تكاد تقفز «من» داخلها لتتعلق برقبتى مرحبة . . كدت ألتهم العجوز من أول وهلة ، لاحظت نظراتى وبدا عليها الغضب والدهشة والرغبة فى آن واحد .

ـ أهلا وسهلا تفضل استرح من السلم ، أمانى لم تحضر بعد وسوف تتأخر فى حفل المدرسة السنوى .

هز الحمار ذيله فى أحشائى ودخلت دون تردد

ـ كيف حالك يافتحيه (سقط لفظ الحاجة وحده) .

ـ الحمد لله ... نعيش

ـ ليس تماما . . المرأة كالزهرة تذبل إذا لم يروها الماء المحمل بالطمى

نظرت إلىّ فى حرج وتظاهرت بالغباء . .

ـ كله من عند الله

أكملت وكأنى لم أسمع .

ـ النار فى داخلك لم تهدأ رغم مظاهر ذبولك

نظرتْ فى حذر وتمادت فى التغابى

ـ يرحمنا الله من عذابها ويهدينا جميعاً

ـ ربنا لا يرضى الظلم وأنت تظلمين نفسك

ـ هو أرحم الراحمين

ـ خلقنا لنعيش . . وأنت لم تعيشى بعد

احمر وجهها ولم تفلح فى أن تستمر فى الغباء وارتجف جسدها وكأنه اشتعل فجأة وابتدأ لهيبها يقوى العاصفة ويقاومها فى آن ، حاولت أن تمالك نفسها قائلة :

ـ النار للعصاة فى كل زمان

قالتها وكأنها تذكّر نفسها . . حتى لاتنسى

ـ نار الآخرة فى علم الغيب

ـ علمه عند ربى ، كيف حال المدام يا أستاذ عبد السلام

تجاهلت الإنذار ،تسقط كل الحسابات، واصلت بلا تردد

ـ أنتِ لم تعرفى الحياة يوما ما مع أن كل جزء منك ينبض بها ، ويستغيث قبل قهر السنين .

ـ ماذا جرى لك ياعبد السلام يا ابنى ؟ أنا فى عمر والدتك

نهق الحمار بأعلى صوته وهز ذيله بلا انقطاع

— أريد أن أريك شيئاً لم تعرفيه فى حياتك .. أنا أحبك

رغم تحفزها الدفاعى رأيت كيانها يهتز ، كادت تسقط حزمة الملوخية من يدها .

لم أتردد .. شفتاها فى فمى والنار تغلى فى عروقى، دفعتنى بعنف ، سقطت الملوخية على الأرض لم أتراجع، بدأت تدفعنى بيدها الأخرى الممسكة بالسكين، لمع النصل فى عينى ، ذعرت ذعرا حقيقياً وبدأت فى التراجع وقبل أن أتبين ما يحدث غمرت وجهى بصقة هائلة .

خرجت أجرى إلى الشارع ، ليس معى منديل ، أمسح السائل اللزج من على وجهى بأصابعى فينمحى معه كل ما كان حتى معالم وجهى .

* * *

الفصل الخامس

عقل بالى

أخذت المشاكل تتصاعد بعد أن خانتنى ذاكرتى فى كل موقع ، بدأت أول الأمر بنسيان أشيائى الصغيرة بالمنزل ، لكن البيت ستر وغطاء ، وزوجتى صابرة حتى الآن ، أما فى العمل فالأمر قد استشرى حتى امتلأت الملفات بالتأشيرات الحمراء تزين كل الصفحات وعرفت الأوراق الرجوع إلى مكتبي حتى تصورت أنها سترجع بعد ذلك وحدها دون وسيط أو مراجعة ، إرتفعت الهمسات حتى أصبحت تلميحات علنية ، أخذت شكل القفشات ذات المغزى ، ثم أصبحت التعليقات تلقى فى وجهى مباشرة ولا شىء يوقظنى من ذهولى ، وحتى الحمار الجنسى فى جوفى توقف عن هز ذيلة .

وذات صباح جاء الأستاذ نصحى عبد الصادق رئيسى المباشر وجذب كرسياً إلى جوار مكتبي ، وبدأ حديثه معى فى وداعة وأدب ظاهر مثل طلبة مدارس الفرير أيام زمان . . وجهه ملىء بالرقة والجد معاً ، رجل طيب بلا شك .

— صباح الخير يا أستاذ عبد السلام

— صباح الخير يا فندم

— كيف حالك اليوم ؟ ؟

أى جديد تسوقه الأيام ، وكيف أرد هذا الطارق وهو يجلس قبالتى طول النهار .

— مثل كل يوم يا فندم

— أريد أن أتحدث معك على انفراد

انفراد ؟ هل فى الأمر سر ؟ ترى هل لاحظ مشاعرى فى تلك الفترة التى انتهت ؟ ماذا بينى وبينه من أسرار ؟

— أنا تحت أمرك

قلتها ولم أتحرك من مقعدى فاقترب أكثر بكرسيه وقال هامساً :

— أنا أعرف محللا ممتازاً ساعد صديقاً لى كان يمر بمثل حالتك وشفى على يديه تماماً .

— مثل حالتى ؟ مالها حالتى يا أستاذ نصحى ؟

— كلنا معرّضون لمثل هذه الأمور، والمرض النفسى لم يعد عيباً هذه الأيام إنه علامة حضارية ، من منا يستطيع أن يتحمل كل هذه الضغوط..؟

— أنا علامـــة حضارية يا أستاذ نصحى ؟ أى ضغوط وأى مرض تتكلم عنه ؟

— لن تخسر شيئاً وأنا على استعداد للذهاب معك .

يبدو أن الوصاية بدأت تُفرض علىّ من خارج ، ولابد من مزيد من الحذر .

— لقد ذهبت من قبل وتبينت أنى طبيعى تماماً ، ولن أشل عقلى مرة ثانية باستعمال تلك الأقراص ، فهو مشلول الآن دون حاجة إلى كيمياء .

— لاأقراص ولا يحزنون هو محلل أخصائى ممتاز .. لا يعطى أقراصاً

— إذاً ماذا يعطى؟

— لاعليك من التفاصيل ، ولـكن صديقى يقول أنه يحسن الاستماع ويبحث عن الأسباب ، وإذا عرف السبب انحلت العقد والمشاكل .

ـ إذا عرف السبب بطل العجب ..

ـ لست أمزح ، أنت صاحب أولاد والهمس يزداد من حولك والحالة بدأت تهدد عملك ..

مزيد من اليقظة والحذر ، التهديد أصبح علنا وليس عندى ما أعده لإصلاح عملى ، لم أعد أستطيع أن أحتفظ فى عقلى بأى رقم إلا لمدة ثوان لا تكفى لنقله من صفحة إلى أخرى ، أكاد لا أعرف جدول الضرب ، لابد من الرضوخ ولو لمجرد المناورة .

ـ شكراً ياأستاذ نصحى سأحاول

حاولت الإنصراف إلى ما بيدى من ملفات ولكنه أكمل برقة وأدب لا تستطيع أن تهرب منهما .

ـ ماذا ستحاول ياعبد السلام ياأخى ؟ إنك لم تسأل حتى عن العنوان

ـ آسف كنت سأسألك فيما بعد

ـ ... أم أنك نسيت ما كنا نتحدث فيه ؟

يعيرنى بالنسيان ، لامفر من التسليم ثم المناورة

ـ أبداً .. ولكنى لا أحب أن أزعجك بشئونى الخاصة

ـ إسمع النصيحة ، لم يعد هذا الأمر من شئونك الخاصة ، وأنت على هذا الحال ، أنت تعلم أنى أتلقى الإهانات من المدير كل يوم بسببك ، اعتبرنى صديقك ياأخى ، واعمل بنصيحتى ..

ـ شكراً .. أنا تحت أمرك

تناول ورقة من فوق المكتب وكتب فيها بضعة كلمات تصورت أنها

إنذار بالفصل ، طواها وناولها لى ، أخذتها فى صمت وانصرف بعد أن ربّت على كتفى فى حنان .

جلست إلى مكتبى لا أجرؤ على فتح الورقة ، وحاولت أن أسترجع الحديث كله أو بعضه فلم أستطع أن أتبين إلا أن إنذارا وجه إلى، وأن حالتى بدأت تهدد رزقى وأن فى يدى ورقة تؤكد ذلك ، إنتهزت فرصة أن أحداً من الزملاء لا ينظر إلىّ وفتحت الورقة فى هدوء ..

الدكتور « . . . » . . مستشار نفسى ، الإستشارة بميعاد ماعلاقة هذا الدكتور بعملى بالإنذار بالفصل ، لم أسمع عن حكاية « المستشار » هذه قبل ذلك ، هل هو « مستشار » فى اللجنة الثلاثية قبل الفصل ؟ لا أملك التراجع حفظاً على مرتبى ووظيفتى ولن أعدم فائدة فى أن يكون عندى عذر دائم لأخطائى فى العمل ، الأمر الذى سأدافع عنه حتى الموت هو التسليم لهذه الأقراص مرة ثانية ..أكدّ لى نصحى أفندى أنه لا يصفها، ولكن خوفى مازال قائماً ... لن أفعلها ولو كان مصيرى الشارع ، شىء لله ياأم العواجز !!

* * *

مرّ يومان وثلاثة وأنا أحاول أن أؤجل التجربة خوفاً من المجهول ، إلا أن نظرات الأستاذ نصحى المتسائلة كانت تلاحقنى مع تأشيراته الحمراء المنتظمة ، حالتى تزداد سوءاً ، ويبدو ألا مفر من المغامرة ...

* * *

ـ التليفون دائماً مشغول يا أستاذ نصحى فكيف أحصل على الميعاد

ـ لابد أن تطلبه إلا عشرة ..

ـ إلا عشرة ؟ ماذا تعنى

— إنه يرفع السماعة فيما عدا آخر عشر دقائق من كل ساعة حيث يتلقى المكالمات ويعطى المواعيد .

— ولماذا يا أستاذ نصحى .

— حتى لا يقطع أحد الجلسة أثناء العلاج ، ألم أقل لك أنه عمل جاد ، ليس مجرد أقراص أو تطييب خاطر ...

إذاً فهو عمل جاد ، قالها وهو يطمئننى ، إلا أن ترددى قد زاد ، كان فى نيتى أن أذهب لمجرد الوقاية من الفصل ، أما أن يأخذ أحدهم الحكاية جداً فهذا ما لا أحتمل ، بدأ الشك يساورنى فى أن الأستاذ نصحى بنفسه كان من بين زبائن هذا المستشار ، والا فما الداعى لكل هذا الحماس والدفاع ؟ ، ثم إن معلوماته « نفسية جداً » ، فمن أين له بها ؟ هل يريدنى أن أشاركه شيئاً ما ، ولكننى لست مثله ، هو إنسان يتكلم بالحساب كأنه يقرأ من كتاب ، يعامل الناس فى رقة تدعو للشك ، يلمّع ذقنه كل يوم حتى أتعجب كيف يفعلها بهذه الصورة حتى تساءلت يوماً أيام نشاط عقلى الساخر إن كان يستعمل الزلطة التى كانت تستعملها خالتى « نجيبه » فى تزليط قاعة الفرن بعد دهاكتها، فإن كان هو يحتمل الوقوف أمام المرآة لإتمام هذه المهمة المعقدة ، فهو لابد يحتمل الخمسين دقيقة التى حدثنى عنها عند هذا «المستشار» ، لكننى لست هو .. خاصمت المرآة منذ أخرجت لى لسانها ، وليس عندى أدنى فكرة عن هذه الأمور « الجادة » ، أحس أن عقلى قد تحلل بحيث لم يعد يحتمل أى نبش فى أنقاضه ، كيف الخلاص ؟ وأين المهرب ؟

كلما زادت مخاوفى تعجلت الذهاب إلى هذه المغامرة حتى أنتهى من هذه التخمينات والمحاذير ..

* * *

أخذت ميعاداً عجيبا بعد محاولات أقرب إلى المناورات العسكرية ، كان الميعاد خمسة إلا خمسة، ما هذه المواعيد المضحكة ؟ هل هذا من لزوم الصنعة ؟ التليفون إلا عشرة والميعاد إلا خمسة ، لابد أننا لسنا فى مصر العزيزة ، كيف يمكن أن تكون المواعيد بهذه الدقة فى بلد بهذه الفوضى ؟ من أين لى بالأتوبيس أو حتى بالتاكسى الذى سيوصلنى إلا خمسة .. ولكن لهجته كانت حاسمة ومحذّرة فى نفس الوقت، وهو شخصياً الذى أعطى الميعاد بلا وسيط ، وليس أمامى إلا احترامه بقدر ما شعرت منه بالاحترام .

* * *

قبل الميعاد بأكثر من ساعة كنت قد وصلت إلى باب العيادة ،وجدته مغلقاً بعكس عيادة الإخصائى السابق حيث كان المنظر أقربَ إلى جمعية إستهلاكية ، يبدو أنى على وشك الدخول فى تجربة جادة فعلا ، دققت الجرس ، فتحت لى سيدة فى منتصف العمر ولم تدعنى للدخول .. سألتنى ماذا أريد ، فلما أجبتها بأن ميعادى الساعة كذا طلبت منى فى رقة أن أحضر فى الميعاد .. انصرفت محرجاً متبهراً ..

ولكن أين أقضى هذا الوقت ؟ أليس عند هذا الدكتور حجرة لأمثالى من الرعية التى لا تستطيع أن تحضر فى الميعاد إلا حسب الاحتمالات اللوغاريتمية .. تركت لقدماى العنان مثل أيام زمان .. وكان عقلى قد كف عن الفرجة والفلسفة والنظريات كما كف عن التفكير أصلا وربما عن الإحساس اليومى حتى بلمس الأشياء ، لم تأخذنى قدماى بعيداً فانحرفت إلى أقرب مقهى بلدى ذكرنى بأيام تجوالى فى حوارى سوق السلاح والسيدة، طلبت شابا « كشريا » مثل أيام زمان .. أخذت اتأمل من حولى ممن يشدون فى أنفاس الشيشة أو الجوزة فى هدوء وإتقان ، أو يرتشفون المشروبات

الساخنة فى تأنٍ وتأمل، ذكرونى بعلاقة الأستاذ غريب زمان بفنجان القهوة، الوجوه تغيب بين الدخان والبخار ثم تظهر فى وضوح هادئ .. لاحظت أن عقلى بدأ يعمل بدقة ، هكذا وحده بعد هذه الأجازة الطويلة يصحو فجأة .. هل هى صحوة الخوف من المجهول ؟ هل زال الكابوس تلقائيا .. ؟رجعت إلى القدرة على التأمل الدقيق والربط بين الأحداث كما كنت أول الأمر ، يبدو أن مفعول هذا « المستشار » أكيد حتى شفانى « على الريحة » ، يكفى أنه لم يسمح لى بالانتظار فى عيادته التى يبدو أنها فى نفس الوقت منزله حتى صحوت ؛ استعاد عقلى نشاطه وقدرته على الربط بين الأحداث ، حاولت أن أتذكر بعض المواقف التى كان يخيل إلىّ أنها غرقت فى طوفان النسيان ، نجحت بشكل ملحوظ إلا أن أياماً برمتها وأسابيع قد اختفت تحت القاع ، نظرت إلى كوب الشاى الذى يكاد ينتهى وابتسمت .. ياسلام منذ زمن لم أبتسم هكذا ، رجع عقلى الساخر إلى نشاطه الحاد اللاذع حتى صور لى أن فى هذا الشاى مادة كيمائية تغسل الصدا ، وأن كوباً آخر سوف يتيح لى أن أفتح بقية خزائن عقلى ، بل لقد خطر ببالى أن أغمس فيه مفتاح الشقة الذى طالما عاكسنى وأنا أفتح الباب إلى درجة كنت أخشى معها أن يلحقنى الأستاذ غريب على السلم وأنا على غير استعداد للقائه ، لحنى الجالسون وأنا أهم بوضع المفتاح فى بقايا الشاى فتراجعت سعيداً بعودتى ، فلتبق تلك الخزائن المجهولة مغلقة ما شاء لها الصدأ ، وليرجع عقل بالى إلى نشاطه السرى الساخر الذى يصل أحياناً إلى درجة الفلسفة العاقلة ، ولسوف أسمى الأشياء بأسمائها بعد الآن .. وهأنذا قد اهتديت أخيراً إلى أن لى عقلين على الأقل . . واحد علنى يتكلم مع الناس وليكن اسمه « عقلى » ، والآخر يتكلم فى الخفاء وسوف أطلق عليه « عقل بالى » مثلما كنا نقول

صغاراً ، هذا هو الحل السعيد الذى سيسهل علىّ تفسير ماسبق أن حيرنى لمّا تبينت أن هناك صدقين وكذبين وخوفين وحبين ـ على الأقل ـ ذلك لأن هناك عقلين على الأقل، يا حلاوة ! : عقلى وعقل بالى ، لكنى كنت أعلم من بعض قراءاتى القديمة أن المحللين النفسيين مثل هذا الذى أنتظر لقاءه يتكلمون عن الشعور واللاشعور فهل يا ترى أيهما يكون الشعور ؟ وأيهما يكون اللاشعور ؟ إلا أن اللاشعور على حد علمى لا بد وأن يكون غير مشعور به (!!) وأنا شاعر بكل من العقلين بلاشك ولا خلط ولا تردد ، وفى نفس الوقت ، إذن لا بد أن لى شعورين ، يا حلاوة !! . أنا غير كل الناس لهم « شعور » و« لا شعور» ، وأنا لى شعور نمرة (١) ، وشعور نمرة (٢) . هيه !!!

نظرت إلى الساعة فوجدت أن الميعاد قد اقترب وحمدت الله أن يقظتى قد تمت قبل اللقاء الموعود ، حتى أستطيع أن أجتاز هـذا الامتحان الجاد بنجاح ، وحمدت الله أكثر أنى انتبهت لهذه الصحوة قبل الكشف ، حتى لا تختلط علىّ الأمور فأحسب أنها من مزايا التحليل النفسى وآثاره ، إلا أنها قد تكون من فضله على كل حال إذا كان الخوف منه فضلا .. فخشية اللقاء هى التى أجبرت عقل بالى على النشاط فجأة ثم تبعه عقلى . فأنا أستطيع الآن أن أسمّع جدول الضرب . ولا بد أنى أستطيع أن أؤدى عملى بكفاءة تختفى معها التأشيرات الحمراء .. وتنتهى وصاية الأستاذ نصحى وأمثاله ... ومن ثم إرغامه لى على العلاج المزعوم ..

كدت أتردد فى الدخول إلى المحلل لما تيقنت من عودتى للسيطرة على هذا الخلل الذى كان طمس عقلى.. ولكن حب الاستطلاع وخوف من تطور الحالة دفعانى إلى أن أستمر فى التجربة.. أسرعت الخطى حتى دققت الجرس فى نفس اللحظة التى فتحت لى فيها الباب ، لعلها سمعت وقع أقدامى ،

يبدو من منظرها أنها ربة هذا المكان وليست ممرضة أو مساعدة، أدخلتنى إلى الصالون مباشرة .. ناولتها الكشف محرجاً بناء على طلبها ، قالت لى خمس دقائق من فضلك وانصرفت . .

.. يا ساتر استر ..

لا يوجد غيرى فى المكان حتى شككت فى وجود الدكتور المحلل ذاته ، هل أنا فى عيادة أو فى منزل ؟ هذا الصالون وتلك التحف توحى أن هذا منزله وأن هذه السيدة زوجته ،شعرت بالراحة قليلا لما أحسست أنى فى بيت، فلابد أن ساكنى هذا البيت من البشر الماديين ، ولكن ما هذا الصمت الميت لا يقطعه إلا بندول ساعة الحائط فى الصالة فى حركة دؤوب ، تقطع الصمت فى أول الأمر ثم تضاعف منه بعد حين ، كل الأدلة تشير إلى أنى فى بيت . إلا أن هناك احتمالات أخرى منها أن أكون فى مدفن مثلا، فكم سمعت عن المدافن الفاخرة المؤسسة بأثمن الأثاث لإحياء عادات المصريين القدامى ..

مع دقة ساعة الحائط فى الصالة ، حضرت السيدة الفاضلة تدعونى إلى الدخول ، لا .. لم أعد أطيق كل هذا النظام والدقة كانت يداى تهتز مثل البندول وأنا أتجه إلى حجرة المكتب ، تذكرت جلستى فى القهوة البلدى منذ قليل وكيف عاد لى عقلى يحسب ويفكر ويعلق ، وتعجبت للفرق بين الموقفين ثم تساءلت ترى لو أنى دخلت إلى هنا مباشرة هل كنت سأصحو هذه الصحوة ؟؟

دخلت إليه بالمكتب وكان جالساً فقام بنصف وقفة ، ولم يمد يده وإن كان أومأ برأسه نصف إيماءة ، وابتسم إلىّ نصف ابتسامة ، كل شىء نصف نصف حتى ضوء الحجرة، ما زلت مأخوذاً بالنظام والنظافة والصمت والدقة..

جلست قبالته عبر المكتب أيضاً ـ مكتب أصغر قليلاً من الآخر.. وأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى رغم جو الحجرة المكيف ، حاولت أن أستقرئ وجهه فلم أستطع ، كل شىء بالحساب مثل الميعاد والصمت وحركة بندول الساعة ، كانت يداه تتحركان بالحساب وحتى تجاعيد وجهه مرسومة بالحساب ، هبت على ريح الشمال الباردة ، وتذكرت أدب الأستاذ نصحى ورقته التى تبعث الشك ، لابد أن هناك علاقة بين هذا المكان وبين ما آل إليه الأستاذ نصحى من أدب متردد ، هــذه المرة لم أحتر فى تحديد موطنه الأصلى مثلما احترت مع زميله العصبى وأنا أكاد أجزم أن موطن هــذا المستشار المحلل هو النرويج على وجه التحديد دون أى بلد من بلاد الشمال الباردة ، أما لماذا النرويج ... فلأنى لا أعرف عنها شيئاً ..

انتظرت فترة طويلة بعد أن أخذ اسمى وعنوانى ومعلومات مستفيضة مثل الآخر وزيادة ، سأل عن عدد إخوتى وترتيبى بينهم ونوع رضاعتى .. وهنا كدت أضحك إذ كيف أتذكر نوع رضاعتى إلا إن كان يقصد عبث خيالى بصدور البنات .. ساد الصمت برهة حتى كدت أستأذن فى الانصراف إلا أنى نظرت فى ساعتى ووجدت أنه لم يمض سوى دقائق محدودة ، ما زال من حقى وربما من واجبى أن أبقى ، ماذا أفعل فى المدة الباقية يا ترى ؟

قطع هو الصمت مشكوراً بصوت يكاد يخرج من بطنه لأن وجهه مازال عليه نفس التعبير الذى ليس عليه تعبير ، قال فى هدوء ورقة ..

— تكلم ... هات ما عندك . .

قلت فى دهشة ..

— ماذا أقول ؟؟

— قل ما بدا لك .

(رد عقلى بالى لجأه .. فى صمت ..

— إحنا رجالك .)

إلا أن عقلى رد فى رزانه..

— أرسلنى الأستاذ نصحى عبد الصادق لما لاحظ كثرة نسيانى حتى أقرت على عملى وهو رئيسى المباشر ولكنى استعدت ذاكرتى والحمد لله .

يبدو أنه كان يعرف الأستاذ نصحى كما تصورت ، لاحظت ذلك من خلجاته حين مر الأسم على سمعه ومضى يسألنى ...

— متى استعدتها .

— قبل الحضور مباشرة .

سأل فى ثقة .

— هل أنت خائف ..

(قال عقل بالى سرا :

— بل أنت الخائف ..)

قال عقلى .

— استطعت أن أتغلب على أكثر مشاكلى لجأة بعد أن كانت تهدد مستقبلى .

قال فى ثقة .

— أنت تحاول أن تقاوم العلاج منذ البداية .

(قال عقل بالى فى صمت وهو يتذكر بعض القصص والنوادر .

— هكذا خبط لزق ؟؟)

قال عقلى .

ـــ فى الواقع أنا لا أعرف شيئاً عن العلاج .

قال فى هدوء .

ـــ أنت مصاب بفقد الذاكرة للأشياء التى لا يريد عقلك الباطن أن يتذكرها .

(قال عقل بالى :

ـــ وإيش عرفك ياحذق) .

قال عقلى .

ـــ لقد أدركت سر أخطائى .. وكان طمعى فى تسامح الأستاذ نصحى يجعلنى أتمادى فى الإهمال ، هذه هى الحكاية ..

استمر فى غير كلل .

ـــ إذا فهى مسألة إدارية .

(قال عقل بالى :

ـــ بل ... ميتافيزيقية وأنت الصادق .)

قال عقلى .

ـــ تقريباً . . حتى اسأل الأستاذ عبد الصادق .

سكت فترة وكأنه يفكر ثم بدا هادءاً غير مكترث ...

ـــ على كل حال نحن تعارفنا وأنا تحت أمرك وقتما تشعر أنى أستطيع مساعدتك .

(قال عقل بالى :

— حانبنى « السد » . .)

قال عقلى :

ـ شكراً وآسف لإزعاجك ولكنى أحب بعض الاستفسارات عن طريقة العلاج .

قال فى وضوح :

— تأتى فى الميعاد وتستلقى على هذه الأريكة لمدة خمسون دقيقة وتقول ما يخطر على بالك ويتكرر ذلك مرتين أو ثلاث أسبوعياً حتى تشفى . .

(قال عقل بالى :

— ياسبحان الله، ياليتنى أنام الآن فما زال بعض الوقت من حقى، أريد أن أجرب هذه اللعبه الجديدة . .)

وافقنى عقلى على ذلك . . فأعلنتها دون تردد ، ووافقنى الدكتور أيضاً فأعجبت بديمقراطيته وصبره .

. . . .

تمددت على أريكة لم أنم على مثلها فى حياتى ، لست أدرى هل هى من ريش النعام أو من الكاوتشوك وارد الشواربى . . استرخت عضلاتى وكدت أهزها إلى أعلى وإلى أسفل كما كنت أفعل حين نمت أول مرة على سرير بملة ، طال الصمت حتى كدت أنام .

جلس هو على كرسى خلف رأسى بعيداً عن مستوى نظرى، اضطررت أن أقطع الصمت لما بدأت أحس بالتوتر من هذا الوضع الشاذ .

— هل أتكلم وأنا نائم هكذا ، ماذا أقول ؟

— أي شيء يخطر ببالك . .

(قال له عقل بالى :

— يانهار أسود ، لو أنى قلت أى شىء يخطر فى بالى فإن مصيرى الطرد أو السجن أو بإحدى العقوبتين أيهما أقسى) .

خطر لى أنى لو تكلمت هكذا وأنا نائم فإن الكلام لابد أن ينزل فى قدمى كما كانوا يحذروننا من الشرب ـ صغاراً ـ ونحن مستلقين . . ولكن ربما كانت هذه هى الطريقة الحديثة للعلاج . . أن ينتقل الكلام الزائد من رأسك إلى قدميك حسب نظرية الأوانى المستطرقة ، وبذلك تثقل رجلاك ويصفو رأسك فى نفس الوقت ، فتصبح « ثقيلا » و« راسياً » وكلاهما مرادف للعقل أو للدلال حسب مزاج سعاد حسنى ومتبنى الأثر . .

قطع المحلل علىّ اكتشافاتى الجديدة قائلا : .

ـ فيم تفكر الآن ؟

رد عقلى مباشرة بما يشغله فى هذه اللحظة وقد كان شيئاً آخر غير شطحات عقل بالى (يبدو أن العقلين يمكن أن يفكران فى نفس اللحظة) .

ـ فى تكاليف العلاج

لم يرد على الفور ، ولكنى أنا الذى وجهت السؤال وكأنى ألقيته على نفسى ، مشكلة حقيقية كنت أغفلتها دون وعى ربما مصداقا لقوله فى أول الجلسة «أنت تنسى ما لا تريد تذكره» وحين تأكدت من الاهتمام البادى فى وجهى قال فى حزم :

ـ كل جلسة مثل الكشف ، ولكن الأهم هو الجدية والإلتزام . .

قفزت من فوق الأريكة كالملدوغ وقد تأكدت من عودة عقل بالى للعمل بفضل الشاى الكشري ، حيث قفز الرقم إلى عقلى دون خطأ مقارناً إياه بمرتبي . .

ـ أربعة وعشرون جنيها فى الشهر . . ؟

قال فى هدوء . .

ـ إذا حضرت مرتين فى الأسبوع فقط

قلت فى انزعاج وربما تهكم . .

ـ هذا إذا كان الشهر أربعة أسابيع فقط

لعّب عقل بالى حاجبيه وأخرج لسانه .

ولكن عقلى استمر فى الحديث . .

ـ آسف لابد أن أدبر أمورى أولا

(قال فى ثقة وتفهم :

ـ وأنا آسف كذلك . . ولكنى لا أستطيع خداع الناس ، أو ظلم نفسى ، وعلى أى حال إذا كنت جاداً فى العلاج فسوف أضع ظروفك الاقتصادية فى الاعتبار .

(قال عقل بالى :

— سيخصم لك عشرة فى المائة بسعر الجملة .)

رددت عليه (على عقل بالى) بصوت مرتفع .

ـ بل خمسة وعشرون فى المائة .

سمعنى الدكتور وحسبنى أوجه له الحديث وقد كنت جالساً على الأريكة بعد لدغة العقرب ، وكان هو مازال جالساً على كرسيه فى اتزان يرسل إلى نسمات من ريح بلاد النرويج . . قال :

ـ عفوا ؟ ؟

قلت في خجل :

— لا ، أبداً ، كنت أختبر قدرتي الحسابية ووجدتها على ما يرام . .

قال في علم أكيد وقد بدا الشك يساوره في حالتي :

— ماعليك لم تكن تنوى البداية فضلا عن الاستمرار . . .

(قال عقل بالي :

— لابد أن له عقل بال هو الآخر ينبئه بنوايا الناس)

قال له عقلي :

— أنا عاجز عن الشكر ، ولن أنسى لطفك ما حييت .

قال مودعا في رقة حقيقية :

— أنا تحت أمرك ، ليس عندي أدنى شك أنك سوف تجد طريقك ، ولكنى أرجوك أن تقدر طبيعة عملي ..

شكرته واحترمت صدقه واعتزازه بمهنته ، انصرفت مطمئنا بعد أن مدّ لي يده بالتحية ، إذ يبدو أنه لايسلم إلا مودعاً إلى غير رجعة ، ولكنى قبل أن أغادره لمحت وراء هذا الوجه الأملس إنسانا رقيقاً وربما محتاراً مثلي ، كانت الساعة « إلا عشرة » .. خرجت مندفعاً ، خشيت أن أخل بالنظام . . قابلت على السلم رجلا منمقاً لامعاً يتمهل الصعود خطوة خطوة ، أغلب الظن أنه الميعاد التالي وأنه يتباطأ حتى لا يصل قبل خروجي ، أحسست من رائحة العطر التي تفوح منه لتملأ السلالم ، ومن مدى أناقته وهدوء خطواته ، أنه الرجل المناسب في المكان المناسب . . ومر على خاطري لثوان صورة الأستاذ نصحى عبد الصادق . .

ولكن أنا ؟ أين مكاني المناسب ؟ ربما في القهوة البلدي أو في السجن

أو فى مستشفى المجاذيب ، ولـكنه على جميع الفروض ليس فى هذا المـكان ، مكانى لا يمكن أن يكلفنى إلا أن أطلق لأفـكارى العنان بصوت مسموع دون مقابل ، يبدو أن الأستاذ نصحى حين أرسلنى إلى هنا كان يظن أنى مستوراً وابن ناس بشكل ما . . ، أو يبدو أنه تصور أن حديثى عن بلدنا أحيانا يعنى ثراء ريفياً يسمح لى بهذه المغامرة ، إنّ كل ما أتلقاه من أمى هو بعض « الزيارات » العينية التى تعيننى على غلاء الأسعار ، ولا أظن أن هذا العلاج يمـكن أن يكون « بالبيض » أو « قرص الـكعك » مثلا مثلما كنا نحلق زمان .

ما علينا ، رجعت إلى لعبتى القديمة وسوف أدبر أمورى ثانية بعدما تأكدت أن لى عقلين وشـعورين ، وليلتزم كل منهما باختصاصاته حتى لاتعود الأمور إلى الاضطراب ، وليختص عقلى بالمـكتب والأعمال المنزلية ، والعقل الآخر للأغراض الخاصة والفرجة والفلسـفة واختراع النظريات . . جاءت سليمة هذه المرة والحمد لله . .

* * *

— حمداً لله على السلامه ياعبد السلام ، هكذا وإلا فلا . .

— الله يسلمك يا أستاذ نصحى البركة فيك . .

— هكذا تتحقق النتائج بأسرع ما تتصور ، ولـكن حذار أن تنقطع عن الذهاب وإلا كنت مثل الراقصين على السلم . .

أية نتائج ، وأى سلم ، لن أحدثك عن شىء وسأدعك سعيداً بأوهامك

— ربما يسهل يا أستاذ نصحى

— أنا تحت أمرك وما دمت قد سمعت النصيحة فسأقول لك سراً ، لقد كنت أنا الذى ذهبت إليه للتحليل والعلاج وليس صديقى .

نظرت إليه ، ولم أحاول أن أرد فلم أكن أعلم ماذا أقول ، ولكنى هدأت واطمأننت لظنى السابق الذى رجح أن يكون نصحى أفندى هو شخصياً المريض السابق .

— وبالتحليل وبالتفسير تخطيت كل الصعاب .

لم أستطع أن أمنع نفسى من الرد هذه المرة

— كل الصعاب ؟؟

— حللت كل العقد ، وفهمت مدى الكبت الذى كنت أعانيه منذ الطفولة حتى أصبحت « هكذا » . .

كدت أسأله « هكذا .. ماذا . ياهذا ؟ » ولكنى آثرت السلامة ..

* * *

استطعت فى الأيام التالية أن أنظم أمورى أثناء النهار ، أما بالليل فما زالت المعارك تنتظرنى ، مع كل مساء امتحان صعب ، يبدأ أول الليل ونادراً ما أنجح فيه . . ولكن نادراً ما يعلن فشلى فيه أيضاً ، فقد كنت أذكى من أن أترك الأمور تخرج من يدى . . ثم معارك مستمرة مع الهوام والوحوش إذا ماغلبنى النعاس ، وحين يشتد الصراع بلا حول لى ولا قوة يصبح النوم أملا وتهلكة فى نفس الوقت ـ أظل يقظاً حتى الصباح خوفا من أن أفقد عقلى إذا أغلقت عينى .

* * *

بدأت وحدتى تتجسد أمامى بشكل لم يسبق له مثيل ، زوجتى قريبة بعيدة . . موقفها يحيرنى تماماً ، فإما أنها تتقن الصبر والانتظار بغير حدود ولا حتى أمل ، وإما أنها بليدة الحس أو ضعيفة العقل بحيث لا تلاحظ ما يجرى أثناء الليل ، أحيانا التقى بعينيها لحظات فأكاد أسمعها تقول « لكل شىء نهاية فلا تجزع » ولكنى حين أسمع نفسها الهادىء المنتظم الذى يصل أحيانا إلى شخير خفيف يملكنى الغضب منها كأنها تتحدى ألمى وأرقى بهذه السكينة العميقة التى لا مبرر لها إلا الغباء أو البلادة ، وعلى أى حال فقد كان هذا الموقف الصامت يسمح لى بالحرية والمناورة حسب قدرتى على التخفى والتحمل ، يغرينى إصرار الاستاذ نصحى وسؤاله بالتفكير فى معاودة طرق الباب الذى أشعر أنه قد أيقظنى وأعطانى بعض الأمان أكثر من تلك الأقراص اللعينة إلا أن الأستاذ نصحى شخصياً كان يرعبنى أحيانا أكثر من تلك الأقراص ، بحماسه وإيمانه بشىء رائع ، إلا أن سلوكه وكيانه هو شصخيا أكبر دليل على فشله .

— ولكن حالتك غير حالتى يا أستاذ نصحى

— الحالات تختلف ولكنها جميعاً نتيجة لأشياء مكبوته لابد أن تخرج إلى النور ..

— لقد أخرج الزلزال كل ما فى جوفى ، وهذه هى المصيبة

— أى زلزال ؟؟

— يوم قامت القيامة

امتقع وجهه قليلا وبدا كأنه يرفض استعادة ذكرى .. ما أنت تسمى الأشياء باسماء غريبة ، إنها حالة نفسية اسمها القلق . .

— هل أنت متأكد من أن اسمها « قلق »

— طبعاً .. وهى من الأمراض العصابية الناتجة من الصراع بين « الأنا والهو » ..

« يانهار أسود » ذهبت إلى المختصين فلم يذكروا لى كل هذا العلم ولكن الأستاذ نصحى شيء آخر، لابد أن هذا الـ « أنا » ، هو عبد السلام المشد ، وأن الـ « هو » ، هو عقلى بالى ، ولكن أين أنا شخصياً إذ أنى لست عبد السلام المشد الآن ، ولو كنت متأكداً من ذلك لما ضيعت كل هذا الزمان ، « والهو » ليس عقل بالى لأنه ليس « هو » واحد ولكنه عشرة أو عشرون ،ما هذا الكلام الفارغ يا أستاذ نصحى الله يخيبك .

— من أين لك بهذا اليقين يا أستاذ نصحى ؟ ..

— من خبرتى من التحليل وقراءاتى ثم دراستى فيما بعد ذلك .

— هل تدرس الآن فيه .

— نعم لقد أنهيت الليسانس وأحضر الآن الماجستير .

— وهل تترك التجارة والمحاسبة .

— ليس بالضرورة .

ترى هل يراد لى نفس المصير ، أن اقلب كل مشاعرى هذه إلى أسماء وتحاليل ولا فتات تلغى كل شيء حين تضعه تحتها ؟ هل هذا هو الطريق لذلك العلاج المقترح ؟ وهل لابد من الدراسة بنفس الحماس والتعصب ؟

— هل لابد من الدراسة . حتى أشفى ؟

— لا .. ولكنها هوايتى الخاصة ..

— آه .

قلتها حامداً شاكراً .. حيث أن جهلى لم يوصل إلى معلوماتى أن التحليل النفسى أصبح من هوايات العصر الحديث ، ما للتحليل النفسى وقيام القيامة ؟ ، سمعت عن العقد والشعور بالنقص ولكن هذا انفجار مدمر تضيع فيه المعالم وتختلط الأسماء وليس فيه نشاط معروف إلا الفرار ، حيث يفر المرء من كل من حوله ، أمه وأبيه .. صاحبته وبنيه ، نصحى ، غريب ، طبيب، لا يعنينى إلا ما أنا فيه ولا يهمنى أحد على ظهر الأرض التى أخرجت أثقالها فتطايرت أفكارى كالحمم وغلت عواطفى كالبركان التدميرى ، ترى هل عنده إسم لهذا الذى حدث يوم « إيصال النور » يوم نفخ فى الصور ؟ مزيد من الاستفسار لن يضر ..

— ولكن هل يشمل ما تسميه « القلق » أن ينقلب كيانك كله وتزدحم رأسك بالأسئلة مثل النافورة التى تقذف ماء النار ؟

قال فى إصرار

— نعم هو القلق لكن تعبيراتك هى الغريبة

قلت له فى تسليم ظاهر ...

— قلق ؟ .. أرق ؟ .. أشكرك على اهتمامك .

— لا شكر على واجب ياعبد السلام .

قلت فى تخابث :

— أنت خير صديق .. ولكن قل لى بالله عليك .. حين يأخذ الله بيدى .. كيف سيكون حالى .

قال فى فخر وثقة .

— ربما ساعدك الحظ وأصبحت مثلى .

(أخرج لى عقل بالى لسانه فى شماته :

— اجتهد يا شاطر .. تروح القناطر .

عقلى :

— اختش ياغبى ..قد يسمعك .

عقل بالى :

— إنه لا يسمع ولا يرى ولا يحس .

عقلى :

— إنه رزين عاقل .. وأنت تغار منه يا أرعن .

عقل بالى :

— إنه أسطوانة مشروخة لن أسكت حتى أكسرها .

عقلى :

— إخرس ياقاتل ياجبان .

عقل بالى :

— أنا لا أقتل ، أنا أحاول أن أريك الحقيقة .

عقلى :

— أية حقيقة ؟ لقد أحس بى ونصحنى بالذهاب إلى الإخصائى ..

عقل بالى :

— لما كثرت التأشيرات الحمراء وابتدأ المدير فى لومه .

قلت :

— تحسنت على كل حال .

عقل بالى :

— بفضل الشاى الكشرى ، لا بفضل صاحبة المحلل .

رددت فى استسلام :

— يهيى. الأسباب .

عقل بالى :

— استمر فى خداعه كما تشاء ولكنك لن تستطيع أن تخدعنى أنا .)

وأثور على هذا الجانب الساخر من عقلى فى أغلب الأحيان وأتحداه بأن أتمادى فى أواصر الصداقة بينى وبين الأستاذ نصحى ، والأستاذ يستقبل ذلك بترحاب شديد ويسألنى بين الحين والحين إن كنت أذهب إلى صاحبه ، ولا أستطيع إلا أن أكذب عليه بطريقة تحتمل الصدق ، وأشير من طرف خفى إلى أن هذه — على العموم — أسرار لا يصح التحدث فيها إلا بعد الشفاء ، فيطمئن ويتمادى هو فى الحديث عن تجربته واقعا فى الشرك الذى نصبته باعتبار أنه شفى ، وأصبح «هكذا» ، وأعجب بقدرته على كل هذه التصورات حتى صرح لى يوماً أنه يفكر فى تغيير عمله حتى يساعد الناس مثلما ساعده صاحبنا ، وأتعجب من مثابرته وإيمانه بهذا الذى يقول وأحاول أن أجد منه ما يغرينى على بيع حلى زوجتى لأخوض هذه التجربة ، ولكنى مازلت أتحسس طريقى ، وأحاول أن اتغلب على صعوبات الليل بالصبر والتدخين ، وعلى صعوبات النهار « بالفرجة » واصطناع الفلسفة ، وصحبة الأستاذ نصحى التى أصبحت مصدراً جديداً للتأمل والتعجب ، وقد كان دائماً سيلا غامراً من الحماس والإيمان بهذا التحليل المزعوم الذى لم أبدأه ، وكانت محاولاته لإقناعى بالاستمرار لا تتوقف وهو يشرح أسراراً جنسية تتصل بحكايات إغريقية عن ملك اسمه أوديب ، وواحدة أخرى لا أذكر اسمها ، ويتكلم عن جسم المرأة بطريقة غريبة إذ يقول أنه رمز للقضيب لأن البنت تحسد الولد على أن له قضيباً ، وتثور أعماقى حين أتصور جسد البنت قضيباً

وأفرح بهذا العلم المسخرة !!

وكان ينسى أو يتناسى أنى أوهمه بالذهاب إلى ذلك المحلل ويأخذ فى ممارسة هوايته فى التفسير والتأويل ، وذات مرة حاول أن يسألنى عن أحلامى فلما ألححت له عن معارك الوحوش لم يعر الأمر إهتماماً ولكن حين ظهرت الثعابين فى الحلم قفز فى سعادة وكأنه وجد مفتاح القضية ، فالثعبان «قضيب» بلاجدال ، هكذا قال وقد كنت فى طفولتى قد وقعت فى مثل هذا الخلط حين كنت أحس بأن قضيبى قطار الدلتا المار ببلدنا ليسا إلا ثعبانين لا أول لهما ولا آخر ، ولما كبرت وواتتنى الشجاعة على لمسهما عرفت أنهما من الحديد ، ولكنى أذكر أنى اضطررت للمشى عليهما أكثر من ساعة حتى أتبين أنهما لا يلتويان مثلما خيل إلى من بعيد ، وكاد القطار يدوسنى وأنا منهمك فى التحدى لأثبت أنهما يلتويان مثل الثعابين .. هذه هى كل معلوماتى عن العلاقة بين الثعبان والقضيب ، أما الأستاذ نصحى فقد كان بحراً فى اتجاه آخر ، فكل شىء لابد أن يرجع إلى الجنس مؤيداً بحكاية إغريقية ، وكنت أحياناً أخشى أن يفلت منى الزمام وهو يقسم الناس إلى شخصيات « شرجية » وأخرى فمية .. إلى آخر هذه التسميات العجيبه ، ويلعب بى خيالى وأنا أمام سيارة المدير « الشرجى» أو أسعد أفندى «الفمى».. لعبة جديدة لا تخلو من طرافة ، ويكاد حاجباى يتحركان بالرغم منى ، ولست أدرى لم خطر ببالى أن الأستاذ نصحى لو حاول التحقق من أوهامه بنفس الطريقة التى حاولت بها التحقق من أوهامى حول قضيب قطار الدلتا ، إذا لداسه قطار آخر لا أعرف معالمه .

قلت له فجأة :

— هل فى بلدكم قطار للدلتا .. ؟

قال لى فى دهشة :

— أى دلتا ؟

قلت فى جغرافيا :

— دلتا النيل

وقفز عقل بالى فى عناد يعرض نظرية تتناسب مع مقتضى الحال ، ليثبت لى أن الوجه القبلى « ذكر » لأن النيل فيه فرع واحد ، أما الوجه البحرى فهو أنثى — وماعليك إلا أن تنظر فى الخريطة لتتأكد من ذلك ، وربما تخجل إذا كنت رجلا مثلى من وجه بحرى ، ولابد أن تحاول إثبات رجولتك بالتاريخ الطبيعى مادامت الجغرافيا قد شرعت فى وجهك هذا الإتهام ، ولوح لى عقل بالى بأن مشكلتى ربما تنتهى بطلب نقلى إلى الصعيد . . ! ! وسألت الأستاذ نصحى عن ذلك .

أجاب فى استغراب ...

— ولماذا الصعيد . . . ؟

أصبت بإحراج بادى

— أظن أنى معقد من قطار الدلتا من صغرى ، حتى أنى أتصور أن حالتى ستتحسن لو انتقلت إلى الصعيد . .

وهنا ثار على ثورة صادقة . . بقدر ماتسمح به رقته وذكرنى بأنى لابد أن أكمل العلاج لأن شطحاتى تزيد ، وكان مازال يخيل إليه أنى بدأت العلاج أصلا ، وإلا فسوف أنتكس بعد ماتحسنت « هكذا » ..

وخجلت من التمادى فى اللعبة والكذب ، وأحسست أن الأمور كادت تفلت من سيطرتى مثلما كان الحال فى أول المرض ، وبدأت أتمادى فى

الحذر عند الحديث معه ، وكنت ألاحظ كثرة تعاطيه لبعض الأقراص فى أوقات غريبة وحين سألته عنها وعن شحوب وجهه أجاب أنها أقراص للهضم وحموضة المعدة ولا علاقة لها بالأعصاب .

زاد فضولى لأعرفه أكثر بلا نقاش أو اختباء وراء نظريات ، لذلك لم أتوان عن تلبية دعوته لزيارة بيته ، ذهبت وفى نيتى أن أتأكد من نتائج هذا العلاج السعيد . .

* * *

فتحت لنا زوجته الباب بنفسها ، سيدة نحيفة رقيقة تتحرك فى هدوء كأنها تخاف على شعور الهواء وهى تخترقه ، تعجبت من حضورى مع زوجها أو هكذا خيل إلى ، إذ يبدو أن الزيارات تعتبر لديهم حدثا إستثنائياً على حسب معلوماتى من حديثى معه ، انحنت بأدب ظاهر ونظرت إلى الأرض ، فغلبت الظن أنها تخجل من رفع عينيها فى وجهى من باب الحياء ، إلا أن نظراتها تركزت على حذائى .. أنقذ الموقف الأستاذ نصحى بأن خلع حذاءه وارتدى أحد المنتوفليات القابعة تحت الشماعة فى واجهة الباب ، طلب منى بأدب أن أحذو حذوه ففعلت بعد أن أفهمنى بطريقة ما أن المنزل منزلى ، وعليه « فإن من حقى » حسب تعبيره أن أفعل مثله تماماً ، ترددت قليلا خوفاً من المفاجآت فأنا لا أذكر متى غيرت الشراب ، ولكنى فعلتها وأغمدت قدمى فى المنتوفلى بلا تلكؤ ..

دخلت وكأنى أزور معبداً من معابد العصر الحجرى التحليلى النفسى ، قادنى إلى الصالون وهو سعيد بى سعادة التقاء زملاء السلاح فى الحياة المدنية .. عرفنى بزوجته وانهال عليها بالمديح وهو يقوم بإضاءة أنوار

وإطفاء أخرى حتى يحسن توزيع الضوء حسب جلستنا الموقوفة التنفيذ لحين حضورها .. ترددت فى الجلوس فعلا تحت زعم أنى أنتظر جلوس المدام ، فمازالت عندى فكرة عامة عن الذوق ، ولكنى فى الحقيقة كنت أخشى على « الكرسى الفخم » من بنطلونى ، وخيل إلى أنه قد يطلب منى أن أخلعه تحت زعم أن المنزل منزلى . .

بدأنا الحديث عن الطرق الحديثة فى تنشئة الأطفال ، وكان الأستاذ نصحى أقل حماساً وأكثر خوفاً ، وكان ينظر إلى زوجته مستأذناً أو متسائلا عن الخطوة التالية ، ووجهه يزداد شحوبا أو احمرار حسب إيماءاتها ، أماهى فكانت مثالا للصمت المثقف والذوق الرفيع ، أخذت تشير إلى بعض محتويات الحجرة من تحف ولوحات وتذكر لى أسماء لا أعرفها ، وحين ذهبت لتحضر الليموناده بنفسها كان الأستاذ نصحى يستدعى الأولاد للسلام على والتعرف بى ـ أحسست أنى أستطيع أن أسحب نفساً عميقاً من الهواء لأول مرة منذ دخولى وكأنى قد توهمت أن التنفس ايضاً هنا بالحساب والأصول ، ذكرنى الصمت المخيم بالصمت الذى شعرت به عند المحلل ، وإن كانت زوجة المحلل أكثر حيوية ونشاطاً وبساطة وتذكرت فكرة المدافن المصرية القديمة ، وأحسست كأنى فى مقبرة عصرية فى وادى الملوك الجديد .. وأخذت أنتظر تشريف الأمراء من وادى الملكات . .

عادت السيدة الفاضلة تحمل أكواب الليموناده فأغلب المشروبات والمأكولات لابد أن تصنع بالبيت كما قدرت ، ثم عاد الأستاذ نصحى ووراءه ولدان متشابهان كأنهما توأمان لولا أن أحدهما أطول من الآخر وعرفنى بهما « لمعى وجميل » ، انحنيا معا ثم استقاما وجلسا على طرف الأريكة وبدأ الحوار : هذا يقول وذاك يرد ، ثم يصدر صوت من أقصى القاعة ، فيتردد الصدى

فى الجانب الآخر ويبدو أن ذلك كان عرضا لنموذج من التربية الحديثة وآثارها ، وكانا والحق يقال فى منتهى الثقافة التحليلية ، حتى خيل إلى أنهما على وشك تفسير أحلامى .

زادت البرودة فى مفاصلى وانتقلت إلى كل جسمى وتذكرت رياح الشمال عند المحلل ، وتمنيت لو أنهم يوزعون علينا بطانيات مثلما يفعلون فى برنامج الصوت والضوء فى ليالى الشتاء ، الاختناق يزداد والهواء يتردد قبل أن يستأذن ليدخل فى صدرى ..

أستأذنت فتركونى فوراً ، ويبدو أن هذا من مزايا الحضارة والتحليل النفسى ، حيث لم يحاولوا التمسك بى ادعاء للكرم والحفاوة ..

خرجت إلى الشارع أكاد لا أصدق أنى كنت فى مكان ما بالقاهرة ..

قال عقل بالى فى شماته

— هل صدقتى

ثارت فىّ رغبة التحدى فقلت له :

— وماذا فى هذا البيت النموذجى ، كفى عبثا وتذكر قصر ذيلك وخيبتك . .

قال عقل بالى :

— إذن فأنت تريد ان تكون « هكذا » بإذن العلم والتحليل

قلت :

— لم لا ؟ لو اضطررت يوماً خوفاً منك وبما تخبىء لى ، وأظن أن هذا أفضل من أن أعيش تحت رحمة شطحاتك وسخافاتك ومفاجآتك . . إلى مالا نهاية

قال عقل بالى :

— أقتلك لو حاولت أن تفعلها .. أو فى القليل سأعلن جنونك على الملأ دعنا نستمر هكذا اصدقاء

قلت له فى يقين :

— إظهر على حقيقتك فأنت تريد أن تستأثر بالجو كله ولو كان الثمن هو الجنون ذاته .

قال :

— الجنون أفضل من برامج الصوت والضوء المعادة فى قاعة من قاعات مقابر الملوك العصرية .. المسماة بالبيوت الحديثة ..

ثار غيظى وأمتلأت حماساً وقلت له :

— أنا الذى أقتلك لو خرجت عن طوعى

قال عقل بالى :

— دعنا نمضى مثلما كنا : كل فى إختصاصه

قلت :

— ولكنك تتدخل فى اختصاصى أثناء الليل دون استئذان

عقل بالى :

— الليل مملكتى أنا .. وأنا أسمح لك بالتواجد فيها أحياناً ..

قلت فى تحد :

— أنا وراءك والزمان طويل

عقل بالى :

— أنت رجل طيب لاحول لك ولاقوة . .

قلت فى عناد :

— أنا لا أقبل شفقتك ، إحتفظ بها لنفسك ودعنى أراجع حساباتى
لعّب لى حاجبيه قبل أن يختفى تاركا صداعاً متفجِّراً .

* * *

لم تمض هذه الزيارة بسلام .

لم أعد أطيق سماع أحاديث الأستاذ نصحى وتفسيراته وتعليقاته ، زادت تجاعيد وجهه وشحوب لونه فى نظرى ، زادت رتابة صوته ، لم أحاول أن أواجهه أو أجرح شعوره ، ولكنى كنت دائم السؤال عن « لمى ، وجميل ، والمدام » ، وكان هو مطمئنا بصفة عامة طالما أنا أدعى الذهاب للعلاج . . . وكأنى أذهب نيابة عنه ..

* * *

لم يعد فى مقدورى أن آمل فى ماوراء العلاج ، إذا كان الشفاء هو أن أسحق فى مقبرة الملوك العصرية فيفتح الله ، نشاط عقل بالى الساخر كان يبالغ فى تشويه المنظر الذى رأيته بطريقة أغلقت خلفى كل الأبواب منذ سمعتهم يغلقون باب شقتهم ورائى .

. . . .
. . . .

ماذا بقى لى من أمل بعد ذلك ؟ أنا لا أستطيع القول إنه كان لدي أمل حقيقى فى التحليل أو غيره ، ولكنى أيضاً لم أعد أستطيع إيهام نفسى أن هذا حل محتمل بأى صورة من الصور ، وحين كنت أرد على نفسى أن هذه حالة فريدة وأنه لابد من أمثلة أخرى مختلفة ومتنوعة كانت تهب على

ريح الشمال الثلجية من أكثر من مصدر فيعجزنى عن التمادى فى التفكير والخداع ، كنت أحياناً اعزو هذه المقاومة والحذر لاختلاف موطنى الأصلى عنهم ، فأنا لم أستطع أن أتخلص من قرويتى بعد ، وهذا التحليل المزعوم — كما شاهدت عينة منه — لا يصلح لعلاج مثلى ممن يقيم فى المدينة على أنه مجرد زائر عابر مهما بلغت الجفوة بينه وبين أهله هناك فى جوف الريف المصرى ومهما بعدت الشقة . . أو طالت السنون .

* * *

الفصل السادس

الزيارة

— « سيدى عبد ربه يا سيدى »

هكذا أعلنت « البنت » قدوم ابن خالتى من البلدة على غير انتظار ، أدخلته فى حجرة الجلوس وبعد التحيات والأشواق الحارة من ناحيته ، والردود الفاترة المخجلة من ناحيتى ساد صمت أحسست فيه بأنى متهم لابد أن يدافع عن نفسه ، ولكن ما هى التهمة على وجه التحديد . .

— خيراً إن شاء الله !! ؟

قال فى وضوح بلا عتاب مباشر .

— والدتك تريد أن تراك يا عبد السلام افندى ، ولكنها لم تطلب ذلك صراحة إلا أنها دائمة السؤال عنك وقد زاد انشغالها فى الفترة الأخيرة حتى حكت لى حلماً شغلها .

ثار فضولى ولكنى لم أجزع .

- وكيف حال صحتها يا عبد ربه ؟

— عظمة كبيرة ، والأعمار بيد الله ! !

لم يكن لدى دافع واضح يدفعنى أن أزورها فى المدة الأخيرة منذ حدث ما حدث ، حتى أنى لم أدعها لقضاء بعض الوقت بين الأولاد مثلما تعودنا كل عام ، هل هذا أيضاً من ضمن الأعراض، أو أنى اكتسب صفات النذالة

العصرية تحت حجج المرض والفلسفة الجديدة ؟ ربما كان السبب هو اللامبالاة التى أغرقتنى حتى هامة رأسى ، أو هو الفرار المستمر من كل من يقترب ، وها أنذا أفر منها ومن غيرها منــــذ نفخ فى الصور ، يوم إيصال النور ، ولـكن للأمر وجه آخر . . مضيت أسأل فى حماس أخبث خال من العواطف والأشواق .

— هل هى مريضة يا عبد ربه ؟ يبدو أنك تخبىء شيئاً ...

لعنت نفسى بكل لغة حين اكتشفت طبيعة سؤالى وربطه بغلاء الأسعار وأشياء أخرى .

— حالتها ليست خطيرة ولـكل أجل كتاب .

أنت لا تعـلم ما هى الحالات الخطيرة فى الحياة ، ولـكل كتاب أجل واسأل الأستاذ غريب .

لم أرد عليه فأكمل فى تعجب .

— خير يا أستاذ هل سمعتنى ؟ ؟

— طبعاً

— إن شاء الله خير . . نراك عما قريب ، أستأذن . .

تصرفت تصرفاً عصرياً تعلمته من بيت نصحى افندى فتركته يخرج فوراً دون دعوة إلى الغداء ، وجعلت أهمهم بغمغمات ظهر من بينها « ربنا كريم » و« ربنا يستر » ، عبارات تصلح لـكل المناسبات ، نظر إلى نظرة كلها عتاب مكتوم ، ولـكنى شممت رائحة الجولة القادمة على أرضه فى البلد .

* * *

اقترب القطار من البلدة وحاولت أن أسترجع مشاعرى التى كانت تغمرنى حين كنت أذهب إلى هناك كل مرة فلم أشعر بشىء يذكر ، لم تتغير البيوت ولا الأشجار وما زال نؤاد افندى « الأشَرْجى » يلوح ببقايا راية خضراء ، ومئذنة سيدى علوان تنتظر الوعود السياسية والاشتراكية بترميمها ، لاتنبض فىّ خلية واحدة بذكريات الطفولة ، أين راحت أحاسيس الشوق لأشياء لا أعرف كيف كنت أشتاق إليها زمان ، ولا لماذا . .

ترى كيف سأخفى هذا التغيير عن أهل البلدة وما زالت نظرات عبد ربه تتخايل أمام عينى ، لقد نجحت فى التمثيل والتخفى فى المدينة لأن كل واحد من أهلها يمضى فى حاله ، لا تشغله إلا نفسه ، بل إن كلا منهم يرحب بالتمثيل والكذب من الآخرين حتى لا يتبين تمثيله هو وكذبه هو — أما هنا فما أعنف صوت الرفض وما أسهل إعلانه باستنكار مثل لذع السياط ، وقد اخترعوا لذلك ألفاظاً لا أستطيع تصويرها إلا هكذا « إيههههييييييه » وأنا لا أعرف لفظاً يعطى هذه الموسيقى التصويرية مثل هذا النغم ، فهو يحمل مزيجاً من التعجب والاستنكار والرفض والتهديد معاً مع سماح بالتراجع الفورى ، شىء مثل الإنذار الدبلوماسى العنيف قبل إعلان الحرب .

فى بلدنا لا تملك إلا أن تكون متيقظاً طول الوقت وإلا انهالت عليك التعليقات صراحة ، أما إذا كنت أصبت بعض المكانة الاجتماعية (كأن أصبحت أفندياً بماهية ، أو امتلكت طيناً ، أو بيتاً ذا دورين بعد عودتك من السعودية أو ليبيا) فإنهم ينتظرون انصرافك على مضض لعقد ندوة خاصة بتقييم تصرفاتك وتحديدما جرى لك، « كونسلتوا مجاناً » ثم يصدرون أحكامهم بالتشخيص والتصنيف دون النظر إلى العلاج من فرط احترامهم للواقع ، — هكذا أخذت أفسر طباعهم فى خوف وحذر — وعليك بعدذلك

أن تدافع عن نفسك أو ترشوهم : وتهرب إلى غير رجعة، وستفشل فى أغلب الأحوال ويستمر لدغ السياط بغير توقف .

لا بد أن أستجمع كل قدرتى على التمثيل والتحايل فأنا مقبل على اختبار أصعب من اختبار التحليل وطبيب الأعصاب ونظرات سيادة المدير، والمصيدة هنا أنك لو فشلت فى الامتحان مرة ولو بمحض الصدفة فلن يشفع لك بعد ذلك أى تكفير أو نجـاح لاحق ، فهم لا ينسون أبداً ، وبمجرد أن تقع حادثة جديدة أو غريبة مهما كان نوعها تصبح علامة زمنية يؤرخ بها لعدة سنوات حتى تحدث حادثة أكبر وأغرب ، تاريخهم يحكى أنه : « من ساعة جواز » الوادمعوض بالولية أم شلبى ، أم السبع بنات !! — أو « من يوم ما ضبطوا ابن ام ابراهيم مع الحمارة » إلى آخر هـذه الحوادث التى تحدث كل يوم ولا يميزها إلا إعلانها أو تحفزهم تجـاه صاحبها (ربما لأسباب لا تتعلق بالحادثة ذاتها) ، أما إذا كانت الحادثة ذات صفة يمكن أن تلصق بصاحبها فقد تتغير الأسماء وتولد عائلات جديدة نتيجة لهذا الحادث العابر ، ولا أحد يستطيع أن يمنع هـذا التفرع العائلى بأى قوة من القوى ؛ وعائلة « أبو خروف » كانت أصلا من عائلة النبراوى ولـكن أحد أفرادها سرق من صديق له خروفاً صغيراً من غنم أبيه وذبحه فى المرعى وحاول أن يأكله كله قبل عودته من الحقل بعدأن شواه فى« الراكية» فأصيب بتخمة وكاد أن يروح فيها، ومنذ ذلك اليوم واسمه أبوخروف وأولادهم أولاد أبوخروف أما أحفاده فقد تـكونت منهم بذرة العائلة الجديدة « عائلة أبو خروف » وكثير من الأسماء التى تسمعها كانت حوادث عابرة توقف عندها زمن القرية يوماً ، ثم أصبحت من علامات الحياة هنا، وجعلت أسترجع الأسماء التى لا أعلم حكاية نشأتها على وجه التحديد ولـكنى تصورتها بخيالى الخائف، يا ترى ماذا فعل أجداد « على الدهل » و «سيد الأهطل» و «زكى فرقع» ، وتزيد

دقات قلبي وأستجمع قواي وأدعو الله أن أرجع للقاهرة وأنا ما زلت عبد السلام المشد ، وأنا لا أعرف ماذا كان يشد جدي الأكبر حتى سمي المشد ، ومهما كان أصل الإسم فقد تعودت عليه ولا أريد تغييراً فيه ، لا أريد أن أعود عبد السلام «المنزّل» أو عبد السلام «أبو هفّة» ، وتيقّنت لأول مرة أني متمسك باسمي حين أحسست أن أحداً يمكن أن ينتزعه مني ، رغم أني قد أنفصل عنه حتى الجنون حين أحس أنه مفروض عليّ ، . . ولكن ليس لأحد أن يحرمني إياه ، وكلما اقترب القطار من المحطة في سرعة يسبقها حمار العمدة كلما زادت دقات قلبي خوفاً من المجهول .

ماذا ينتظرني في عقر داري .. ؟

لقد كنت أذهب إلى بلدنا فأحس بالأمان والهدوء ، أما الآن فأنا لا أحس إلا بالخوف والحذر ولكني لم أعد أستطيع أن أسمّي ذلك الشعور القديم أماناً ، إذ يبدو أن كل ما كنت أستطيع الحصول عليه هو أن أنسى نفسي في كتلة البشر المتداخلة ، فليس يعني أحد مَنْ أكون ؟ بقدر ما يعنيه أني «إبن من» وفي هذا تأجيل للمشكلة إلى أجل غير مسمى ، وازدادت حيرتي في تفسير ما جرى وما يجرى !!

هل هذا «الزلزال» أيقظني أم أماتني ؟! إذا كان أيقظني فلماذا كل هذا التفكير ؟ وإذا كان قد أماتني فما كل هذه اليقظة والنشاط الذين يمارسهما عقلي الداخلي الذي أصبح مثل الكاميرا التي تلتقط كل التفاصيل ، أو مثل آلة العرض التي تسترجع كل التفاصيل في تجسيد بشع ، وأين أهل بلدي من هذه الزلازل والبراكين .؟ هل تحميهم كتلتهم ، وعنادهم ، وتبليمهم ، وقسوتهم ، وتسامحهم ، من الزلزلة والأسئلة؟ حتى أرضهم ملساء وديعة لا تثور ولا تغضب ، وغاية احتجاجها أن تتكاسل بعض المواسم عن الإنتاج ، فلماذا زلزلت أرضي

أنا رغم أنى أحس أنى منهم ؟، لا .. لم أعد أحس أنى منهم ، وربما أنا أزورهم اليوم لأجد إجابة عن هذا السؤال هل أنا منهم أو لا ؟ راجع إلى أرضهم لعلها أرضى ، سأسألها مالها ، ؟ ترى هل ستحدّثنى عن أخبارها ؟ هل تفتح لى صدرها لأحدّثها عن أخبارى ؟ ..

وقف القطار فى المحطـة التى تقف فى مكان ما بين دار خالتى أم عوض ومنزل حضرة الناظر ، نزلت وكلى حذر ويقظة أتحسس طريقى إليهم وكانت آثار مطر غزير قد أحالت الحوارى إلى مستنقعات ومعاجن من طين يخترقها مِدَقٌّ قد مهدته أرجل الناس والماشية وسط هذا المستنقع الطينى بطريقة تطمئن الإنسان على مستقبله، وكان شكل المدق مثل الثعبان الملتوى ـ دون تفسيرات قضيبية ـ وقد خيّل إلىّ أنه الثعبان الذى كان يحفظ جثث قدماء المصريين بعد الموت، يمر أمام الدور فتمتد ألسنته وأحيانًا أرجله إلى داخلها بطريقة تتحدى الفناء وتنتظر البعث ..

لم أقابل كثيرين أثناء سيرى وقد استقبلنى من يعرفوننى بالسـلامات والممهات وحين كان أحدهم يصر على أن :

— تفضل .

فأرد كالآلة :

— الله يحفظك .

— تفضل .

— الله يخليك .

— تفضل .

— الله يكرمك .

ثلاث مرات لا تزيد ولا تنقص ، كنت أتساءل هل هو يعنيها فعلا ؟ وماذا لو تفضلت لمجرد ممارستى لهوايتى الجـديدة فى معرفة معانى الألفاظ واختيار إمكانية تحقيقها ؟ سوف يستقبلنى فى تساؤل ثم فى حيرة ثم فى شك حين يكتشف أنى تفضلت لمجرد أنه قال (تفضل) !! فهو لا يعنيها من كثرة استعمالها وينبغى علىّ أن ألزم حدودى ..

* * *

دفعت باب منزلنا بعد أن سلمت على خالتى أم عطية الجالسة على المصطبة المقابلة ؛ باب دارنا لا يَغلق أبداً ليلا أو نهاراً ـ ليس لفرط الأمانة المنتشرة بين أبناء بلدنا ولكن استناداً إلى الميثاق غير المكتوب الذى يضع المنازل من المناطق المحرم فيها السرقة ، فالبيوت مكان مقدس حتى عند اللصوص أما الزرائب فهى عرضة للسرقة من غير أهل القرية لكن الزراعات (باستثناء الحدائق) فمسموح فيها بالسرقة لملء البطن فقط وليس للتحميل إلى البيوت .. وهكذا ، قانون واضح وتفصيلى يعرفه اللص المحترف واللص الجائع والهواة من الشباب الجدد فى « الكار » دفعت الباب ـ وكنا بعد العصر ، فأصدر أزيزاً طويلا طويلا ظل يطن فى أذنى حتى وصلت إلى « المقعد »، جاءنى صوتها من فوق «الحضير» كما اعتدت دائماً ..

— ميه .... ن ؟

كان ممطوطا كالعادة وكأنه يكمل أزيز الباب .

لم أرد وإن كان قد غمرنى مزيد من الطمأنينة والسخط والخجل لأنى تأخرت فى زيارتها ، وأحسست بخجل أكبر لأنى حين فعلتها الآن جئت «هكذا»..، صعدت الدرج الطينى الملتوى وتعجبت كيف أنى لم أسقط

من فوقه ولا مرة وأنا صغير ، بل لم أخف منه أبداً ، فى حين أنى أخاف منه الآن حيث تبينت — ربما لأول مرة — أنه ليس له حاجز جانبى ، كانت جالسة أمام باب المقعد على الحصير فى مواجهة قرص الشمس المزمع على الرحيل وقد نشرت قميصها أمامها مستغرقة فى النظر إليه، وكأنها تبحث بين نسيجها عن شىء ذى بال ربما عن حشرة تبحث عن الأمان بين طياته .

— مين ؟ ؟

قالتها هذه المرة بطمأنينة الواثق من صاحب وقع الأقدام على السلم .

— أنا يا أمى ؟!

كادت تقفز من جلستها المتعبدة فى قرص الشمس، همت بكل جسمها ثم ارتدت ثانية كأنها عدلت عن رأيها وعادت إلى السكون المتعبد ، تقدمت منها وانحنيت على ركبتى وحاولت أن ألثم يدها ، لمحت دمعة تترقرق فى عينيها فاهتز كيانى بمشاعر بعيدة عميقة غير قابلة للوصف، ولا لتتبع أصلها فى تاريخى القابل للتذكر ، مشاعر تأتى من خلف كل شىء وكأنها موجودة قبل كل شىء .

— خير يا عبد السلام يا ابنى أين أنت ؟ وكيف حال العيال ؟

— يقبلون يديك ..

ساد العتاب الصامت فترة حتى ملكنى خوف مبهم ..

— خير يا أمى كيف حال صحتك أنت ؟

ردت وكأنها لم تسمعنى ولم أستطع أن أتبين بوضوح ما قالت ، كان ظل دمعة يترقرق فى عينيها .. فيتهدج صوتها .

— الحمد لله أنى رأيتك .. الله يرحمه ويحسن إليه .

لماذا تذكره « هو » كلما رأتنى أو ذكرتنى ! ؟

— هل أنت بخير يا أمى ؟ .. شغلنى عليك « عبدربه »

استمرت فى حديثها المتصل الذى لا ينظر إلى ما يقال ...

— العفو عند صاحب العفو ...

لم يكن هناك مجال للاستمرار، تحاملت على نفسها وقامت تتلوى من فوق الحصير ، ذهبت لتوها تنادى أم عطية لتساعدها فى الإمساك بدجاجة تعد لى بها وليمة العشاء دون انتظار .. تعبير مباشر عن الترحيب والحنان ، وكأنها بذلك تلقمنى ثديها لأرتوى ، داخلتنى طمأنينة ما وتوقفت عن التفكير ؟ سررت من هذا التحول وأحسست بسكينة تنسحب إلى حتى أنى لم أعد أحتاج إلى التفكير المستمر الذى كان يساعدنى على الشعور بالوجود ، لم تعد الألفاظ فى متناول عقلى الساخر، داخلنى شعور فاتر بالذنب وكأنى طفل طال به العبث حتى جاء وقت الحساب ، انقلبت السكينة إل شعور بالعجز ، تمنيت لو أنى ماجئت، تمنيت لو أغمض عينى وأجد نفسى فى القاهرة حيث الوحدة والفرجة والسخرية تملأ الحياة باللاشىء ، أعظم فرصة للوحدة تجدها وسط المحيط البشرى ، لقد كنت أحسب أنى أبحث عن معنى بسيط متسق ، وها أنذا أصاب بالخزى وأشعر بالعجز وأود لو أهرب .. لما تيقنت أنه فى متناول يدى ، لكن هل هذا هو المعنى الذى أبحث عنه فعلا ؟ وماذا أفعل بوعى بكل ذلك ؟يبدو أن المعنى يكون بسيطا حين لا تعنيه أنه كذلك ، كان يمكن أن يكون هذا المعنى هو أعظم صور الوجود لو أنى غير واع ، ماذا تعنى حياتها أصلا ؟ كيف تمر عليها الساعات وهى تتعبد فى قرص الشمس ، أو تطارد حشرة ضالة ، أو تبحث فى قميصها عن سر الحياة وهدف الوجود؟ ترى هل ينبغى أن نبحث فى أشيائنا بمثل هذا الاهتمام الجاد بدلا من البحث فى عقولنا بلا جدوى ؟ هذه زيارة من نوع آخر ، كنت أحضر هنا قبل

ذلك لأقبل يدها وأسمع دعواتها وآخذ ما تيسر من خيراتها ، وأعرف كم ربحت من هــذا المشوار على وجه التحديد بعد خصم أجرة القطار ، أما الآن فأنا أواجه بشيء جديد تماماً ، أطّلع على نوع من الحيــاة يدعونى لأن أعيد النظر فى كل شيء ، أنا لا أنظر إليها هذه المرة على أنها أمى ، تبدو لى كأنها إحدى آلهة الأغريق التى لم تكتشف حتى الآن ، إلهة العناد مثلا تتحدى أى عبث يخطر ببال أمثالى من الضائعين فضلا عن أمثال الأستاذ نصحى أو حتى الأستاذ غريب من النازحين من بلاد الحضارات الحديثة ، تتمسك بالحياة بقوة عنادها الإلهى .. حتى لو كانت حياتها كلها بلا معنى ، فالمعنى فى مجرد عنادها للبقاء على قيد الحياة بدون هدف مفهوم إلا صراع الموت إلى آخر لحظة ، هل أجرب أن أترك نفسى « هــكذا » مثلها مثل عباد الشمس؟ ربما وجدت الحل الحقيقى فى أن أعود نباتا متواضعا ، ويرن فى أذنى بيت من الشعر الصوفى الإيرانى لا أعرف كيف علق بعقلى ومتى ؟

« كل من انفصل عن أصله .. يطلب أيام وصله .. »

أدخل إلى داخل «المقعد» أفتح الدولاب القديم الذى أخاف عليه فى كل مرة افتحه فيها أن يكسر ، وهو يأتى فى كل مرة أن يصاب بأذى رغم أصوات القرقعة المهددة ، أخلع قميص الـكتاف من يدى وقدمى وأرتدى صديريا ، أرتبك حتى أحكم رباط أزراره المائة (هـكذا خيل لى) ، أرتدى جلباب أبى وأخرج باحثا عنها فلا أجدها ، اسمع صياح الدجاج فى العشة واستنتج أنها مختفية بداخلها تحاول الإمساك بالدجاجة وحدها بعد أن تأخرت عليها أم عطية ، وأسمعها تحدث الدجاج فى ألفة واعتذار ، الدجاج يقفز من حولها صائحا فى احتجاج وثورة ، أنتظرها حتى تخرج ممسكة بدجاجة سمينة بنّية اللون تحاول التخلص من يدها بعنف فلا تستطيع ، تبادل الدجاج بعض

المهمات المتقـذرة المختلطة باللعنات على أم عطية التى لم تحضر حتى الآن ، ترانى منتصباً أمامها فى جلباب أبى، تبتسم فى سعادة وحب وكأنها تراه «هو»، يمر علىّ خاطر من الغيظ مع الرضا فى نفس الوقت – دائماً «هو» وليس أنا، يدب فيها النشاط وتتغير نبرة صوتها، وتمضى تدب فى الأرض وقد علت وجهها حمرة خفيفة كأنها تخجل من ذكرى تدغدغ مشاعرها ...

— يرحم الله الناس الطيبين . . .

سوف أدعها تجتر ذكرياتها السعيدة فى السر . .

— أنا ذاهب يا أمى .

— لا تنسى أن تزوره . . يرضى عنك . . .

— طبعاً .

لم أكن أنوى أن أزوره هذه المرة فقد جئت لزيارة الأحياء مضطراً، فما بال الموتى ، وإن كان ثمة فرار فأنا أفر منه أكثر مما أفر منها رغم أنه غائب فى التراب، إلا أن فرارى منه لا ينتهى، وحاجتى إليه لا تهدأ ..

خرجت إلى الشارع وفى عقلى سـؤال واضح أريد أن أحدد بإجابته مصيرى « هل هذا هو مكانى ؟ » هل أجد الحل هنا ؟ بدا لى لأول وهلة أن الناس يعيشون هنا بتوافق أكبر ، وأن هذه المصائب المرضيّة التى سماها نصحى « علامة حضارية » لا وجود لها فى هذا العالم المتماسك المتناغم ، أخذت أنظر إلى المواشى والناس وهى عائدة إلى دورها تسبح فى سحابة من الغبار تطمس المعالم بين الإنسان والحيوان فلا تميز بينهما إلا بانتصاب القامة وعدد الأرجل، ويقفز إلى عقلى جواب السؤال « نعم .. يبدو أن هذا هو الحل ... »

ولأول مرة منذ نزلت من القطار يقفز عقلى الآخر فى تحدٍّ يسأل «هذا»

ماذا ؟ رعبت من هذه اللهجة القديمة التى يضطهدنى بها كلما اقتربت من حلّ ما كان يرد على الأستاذ نصحى دائماً بنفس الطريقة كلما قال «أصبحت هكذا» رد عليه بلا إبطاء « هكذا ماذا» وبذلك يحطم كل شىء قبل أن يبدأ ، وقد أنتبهت إليه وحاولت شل حركته حتى لا يجهض هذا الحل أيضاً قبل أن يبدأ ، لقد وجدت نفسى فيه بمحض الصدفة وسط سحابة الغبار وكتلة الحيوانات والبشر ، ورفضت التمـادى معه ومضيت إلى دكان البقالة الذى يجتمع حوله الناس بعد العشاء وطلبت علبة بلمونت صغيرة حتى أجر مع خالتى شفيقة الـكلام . . .

— خير يا عبد السلام أفندى . . أين أنت ؟

لمـاذا يصرون على هذا السؤال ؟ هل بدأت ملامحى تفشى السر . . . الحمد لله أنهم يسألون « أين أنت » ؟ ولا يسألون « من أنت » ؟ ولو حصل لوليت هارباً بلا رجعة .

— دنيا يا خالتى شفيقة .

— كان الله فى العون .

أخذت السجائر ومضيت فى طريقى ووجدتنى أتجه إلى المقابر رغم قرارى الأسبق ، واكتشفت أنها مكان معقول أمضى فيه بعض الوقت لقراءة الفاتحة وفاء بالوعد حتى ينفضّ تجمع الناس على البوابة ، أو تنتهى أمى من إعداد الدجاجة . .

* * *

للمقابر عندى معانٍ مختلفة حسب الظروف والهدف من الزيارة ، فهى العيد والبلح والطيارة الورق والمراجيح : أو هى العفاريت والظلام والأرواح

والجان، أوهى عذاب القبر وحساب الملكين ، ولكنى حين ذهبت هذه المرة كنت أحس أنها ليست مقابر يسكن فيها الموتى ، ولكنها شكل آخر من أشكال الحياة ، وكأن الحد الفاصل بين الحياة والموت قد اختفى عندى حتى اختلط بعضهما ببعض فأصبحت أحس بأنى فى وادى الملوك عند الأستاذ نصحى ، وأنى فى مساكن الذين عرفوا الحقيقة وبخلوا علينا بها وأنا أزور المقابر ...

توجهت إلى قبره ، ولم أشعر بمشاعر الشوق والحنين مثل أيام زمان وحتى الرحمة لم أترحمها عليه ، فقد أحسست أن الحكاية مستمرة بشكل أو بآخر ولا داعى لكل هذا الجزع لمجرد الجهل بهذه الحقيقة الواضحة : « الحكاية مستمرة » ،صرفت المقرئين والعجزة الذين تعودوا أن يحوموا حولى كلما ذهبت إلى هناك لأنى لم أجد مبرراً لوجودهم هذه المرة .. أردت أن أختلى به لأعيد التعرف عليه فى هذه الظروف الجديدة ، اقتربت من المقبرة وأخذت أدقق البصر حتى وجدته جالساً يمسك بمسبحته الطويلة ويتمتم بالورد الذى لا ينتهى أبدا ، يهتز أحياناً ويتصلب حيناً وينتفض نادراً ، ولكنه مستغرق فى دنياه الخاصة طول الوقت ـ لست أدرى كيف أنقل هذه الصورة بوضوح ... ليست صورة رمزية نتيجة للتصور والخيال .. وليست روحاً تجسدت مثلما كنت أسمع مع حكايات الرعب ، حتى أنى لم تخالجنى ذرة خوف ، كنت متأكداً أن وجوده لاجدال فيه وقد تمثل لى حتى عشته بعمق ربما أكثر من أى وجود آخر يدعى الحياة لمجرد أنه يخرج أصواتاً من فمه ، وقد كنت فى كامل وعيى أعلم تماماً أن ما أراه ليس مجرد منظور للعين ، كنت أحس أنه جزء منى أو من الطبيعة الكونية التى هى أنا أيضاً بشكل أو بآخر ، لاذرة خوف ولا مجال للتساؤل عن طبيعة الأشياء ، عجبت لهذا التحول

الذى قلب كيانى فجعلنى أخاف من سلالم دارنا وكنت أقفزها ثلاثة ثلاثة وأنا صغير ، وأذهب عنى الخوف وسط المقابر والأرواح ، وقد كنت أرعب لمجرد سماع سيرتها ..

سبحان مغير الأحوال ·

جلست على الأرض مسنداً ظهرى إلى جدار قبره ونظرت إلى الأفق الرمادى .

ما زال هذا الوجود الحى متمثلا أمامى رغم أن ظهرى للقبر .

قلت فى نفسى « أجرّب أن أحدثه » ..

هنا بدأ الخوف يدب فى أوصالى ، كنت قد تعودت هذا الحوار الساخر بينى وبين عقل بالى وسميته مرة التفكير الداخلى ومرة أخرى تصورته وسواساً ، ولكنى أتقدم نحو مسرحيات حية متعددة الأشخاص ويقينى بحيويتها لا يدع مجالا للشك فى صدق ما يجرى ، لا أملك أن أتراجع ، وهو ماثل أمامى ، فلا مناص من المحاولة .

سألته :

ـــ هيه ؟ .. هل يعجبك هذا ؟ ..

استمر فى اهتزازه وأشار لى بيده أن أنتظر حتى ينتهى من السورة التى يتمتم بها ، حاولت أن أرهف سمعى فإذا به يقرأ « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » لم أحاول أن أدقق ولكنى ازددت خوفا .. عدت أسأله .

ـــ ماذا ترى بعد ذلك ؟ ..

وضع المسبحة فى جيب سيالته والتفت إلىّ :

ـــ أنت السبب فى كل هذا ... وكم نصحتك ؟ .

لم أكن أتوقع بعد كل هذه السنين ، وحتى وهو تحت التراب أن يستمر فى نصائحه ومعايرته لى بأنى السبب فى كل المصائب ، سوف أتمادى معه حتى النهاية .

— وما العمل ؟

— ترجع إليه بلا تردد .

تشجعت هذه المرة وقلت له :

— وأنت . . ماذا فعلت بهروبك إليه ؟

تلكأ فى الإجابة ووضع يده فى سيالته يعبث بمسبحته دون أن يخرجها

— أستغفره . . وأتوب إليه ؟

قلت فى تحد :

— ذنوبك لا تنتهى إلى هذا الحد ؟

نظر فى غضب حتى تصورت أنه سيطردنى :

— رحمته وسعت كل شىء . . وأنا أطمع فيها وهو راض عنى

— ومن أدراك ؟

— ما أنا فيه .

— وماذا أنت فيه غير التمتمة والاهتزاز والاستجداء؟ هل عرفت شيئاً عن أى شىء ؟ هل تستطيع أن تجيب عن سؤال واحد من أسئلة الوجود ؟ لقد احتميت بجهلك وخوفك ولكن الأمور تغيرت والناس تريد أن تعرف . .

— هذا تطاول لا يجلب إلا الضياع .

— وهذا عمىً . . لا يجلب إلا الموت .

— ليس هناك سبيل آخر

— أعلن عجزك وفشلك .. نتفاهم !!

— هو الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

مضيت فى حديثى وكأنى لم أسمعه

— إلى أين تسعى على وجه التحديد ؟

— الصور تختلف والسبيل واحد .

— تصر على أن أكون مجرد نسخة منك ، وأن أمضى بقية حياتى فى التمتمة والاهتزاز .

— دعنى إذاً ..واجن ثمرة تطاولك على ما لا تعرف..

يعيرنى بالضياع وسأعيره بالشقاء ..

— وهل أنت سعيد ؟

قلتها بتحد حقيقى وشوحت بيدى وكأنى ألقى قنبلة يدوية .. اهتز قليلا وعقد ما بين حاجبيه وظهر الألم على وجهه حتى كدت أن أبكى لألمه ، وأن أندم على جرأتى وقسوتى ، ولكن أساريره سرعان ما انفرجت بعد لحظات ليقول لى فى صرامة ..

— أسعد منك على أى حال

— أنا أعرف شقاءك فهل تعرف شقائى ؟

— كنت أتمنى أن تكون أسعد منى

— هذا ما أحاوله .. بالرغم من أمنياتك لأنك لا تستطيع أن تتحمل عاقبة أمانيك ، ساعدنى إن كنت صادقاً ..

— كيف ترفض طريقى ثم تطلب منى العون .

— أنت نفسك تنتظر أن أجد بديلا تقبله .

تراجع فى صمت متألم ثم قال فى ما يشبه التسليم ..

— أطلب العون من أهل العون .

— ها أنت ذا ترى عجزك، ومع ذلك أنا لا أكرهك.. بل أشفق عليك.

— سوف أدعو لك .

أخرج مسبحته من سيالته ونظر إلى الأرض وابتدأ فى الاهتزاز الرتيب وسمعته يقول فى وِرْدِه « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

هل يدعونى للاستسلام إلى ما لا أعرف ، هل كتب علينا أن ننتظر العزة والذل مغمضى العينين ؟ ولكنه هو نفسه لم يستسلم أبداً وما زال دائب السعى إليه — نظرت إليه فإذا به قد استغرق تماماً فعرفت أنه لن يرد علىّ مهما حاولت .

التفت إلى الأفق الرمادى فإذا بالسحاب الداكن يتجمع ليتعجل قدوم الليل، وحين رددت بصرى إلى حيث يجلس لم أجده ..

نظرت إلى جوارى فإذا بى أتبين على مقربة منى كومة من الخرق الملونة القذرة ، لم أكن قد لحظتها من قبل ذلك ، هممت بالانصراف ولكنى سمعت سعلة جافة ضعيفة تصدر من تحت كومة الخرق ، انزعجت فى أول الأمر... إلا أن هذه الأماكن وما تحتويه لم تعد لتزعجنى بقدر ما تزعجنى زيارة

عائلية عادية .. ، سعلت الكومة مرة أخرى فتأكدت أنها كائن حى ، هززتها بلا خوف ، اهتز جسمها وأخرجت يدها تهشنى بها مثل ماتهش أى حشرة تحاول التدخل فى حريتها ، أو تبحث عن وجبة دسمة من دمها ، لم أتراجع فهززتها مرة ثانية حتى كشفت عن وجهها فى غضب واشمئزاز ، عرفتها، خالتى «شلبية الهبلة» ، حاولت أن ترجع إلى تكورها تحت كومة الخرق فهززتها أكثر مناديًا عليها باسمها ، أزاحت هذه الكومة من على جسدها فظهرت من تحتها كما عرفتها طول عمرى . . لم يتغير منها شىء أبدًا لا عمرها ولا وجهها ولا بقايا جسدها . . ولكنى أنا الذى تغيرت حتى استطعت أن ألمح فى عينيها معنى آخر للحياة . . كانت عينى تلمع بترحيب وثقة ..

— كيف حالك يامّه شلبية . . ؟

نظرت إلىّ طويلا وهى تحاول أن تتعرف علىّ ، ثم أشاحت بوجهها عنى دون رد وكأنها عدلت عن الترحيب .

— أنا عبد السلام المشدّ يا مّه شلبيه . .

قلتها رغم علمى أن هذا الاسم لم يمر على سمعها قبل ذلك أبدًا ، فأنا لا أذكر أنها نادت أحدًا باسمه مرة واحدة . .

نظرت إلىّ ثانية وقالت :

— إن شا الله

فرحت بردها فقد كنت أود أن أسمع صوتها بأى ثمن ، وحاولت أن أتمادى معها فى أى اتجاه :

— إن شاء الله ماذا يامّه شلبية

نظرت إلىّ باستنكار ثم ضربت على صدرها بيدها عدة مرات صائحة ..

— خل الجدعان .. خل الجدعان .. خل الجدعان ..

ومضت مسرعة بين القبور حتى اختفت عن ناظرى تماماً . . وكأنها دخلت أحدها .

* * *

رجعت إلى البلدة أجر قدمى ولا أحاول أن أسترجع شيئاً مما كان وكأن كل ما حدث هو من مملكتى الخاصة ، وقد تركنى فى حالة بين الائتناس والحذر مما جعلنى أشعر بأنى أكثر قدرة على مواجهة الفلاحين دون أن يظهر على أى تغيير ، كنت أحس أنى أعود إليهم ومعى سند قوى من لقائى مع أبى ومع خالتى « شلبية » ، فلم أعد وحدى تماماً ، كان الظلام قد احتوى البيوت حتى لم نعد نميز معالمها وزاد من طمأنينتى أن ملامح الناس — وبالتالى ملامحى — قد اختفت هى الأخرى فى هذا السواد الزاحف ، عرجت إلى « البوابة » واخترت ركناً منزوياً خلف الظلال المتراقصة ولكنهم أصروا على أن أتوسطهم تكريماً للقادم من مصر ، بدأ يتوافد على الدكان بضعة نفر ممن أعرف ومن لا أعرف ، كان العدد محدوداً فقد فضل الباقون اتقاء البرد فوق الأفران المحمية .. جلست وسط جو من الترحيب المعلن والتعليقات الهامسة . . ولم يخطر ببالى أى تفسير سيء لهذه الهمهمات من خلفى لأنى كنت متأكداً أن النور الخافت يخفى ملامح وجهى ، كما كنت أعلم أن هذه هى طريقة استقبال القادم من « مصر » ، فما بالك بعد طول غياب رجع إلىّ السؤال الأول «هل هذا هو مكانى ؟ هل أجد هنا الحل؟» تطلعت فى وجوههم فى حذر ولكنى لم أر سوى البسمات اللاذعة والتحدى ، غمرونى بالأسئلة عن مصر وأحوال مصر وكأن لى مصادرى الخاصة بالمعلومات . وكان علىّ أن أجيب إجابات محددة ، وألا أعتذر أبداً حتى حين طلب منى رزق المزين أن أوصى ناظر مدرسة الصنايع بالمركز على ابنه ، لم يسمح لى بأن أستفسر عن إسمه قائلا :

— دهدى .. اسمه حضرة الناظر طبعا ..

ولما سألته عن عنوانه قال فى دلال وعتاب ..

— إيهييه .. ما هو ساكن معكم فى مصر .

ولم أملك إلا أن أعده خيراً ..

ابتدأت أحس بالاختناق من كثرة الأسئلة وطلب التوصيات من شخص عاجز جاهل مثلى ، لم أشعر أن أحداً شعر بى منذ قدمت إلاّ شلبيه الهبلة .. وأمى لبضعة لحظات ، وأبى رغم عناده ، حتى فرصة التأمل الصامت لم تتح لى بأى حال . استأذنت فى أول فرصة ، وانصرفت مودعا بنظرات لا أعرف محتواها تفصيلا ولكنها كانت كلها على حد إحساسى أحكاماً .. أحكاما تكاد تخترق ظهرى حتى كدت أجرى متجها إلى دارنا حتى لا ألتفت ورائى ضائحاً « والله العظيم ما عملت حاجة » ولم أكن أنفى الأحكام القاسية فقط ، بل إنى كنت أرفض الأحكام كلها ، وخاصة الحكم علىّ بأنى « رجل طيب . !! »

* * *

— هل ذهبت لأبيك يا ابنى .

— طبعاً يا أمى .

— روح يا ابنى الله يهديك ويزيح عنك .

كانت تروح وتجئ بنشاط بالغ وسعادة حقيقية ، وتعجبت لهذه الحيوية التى دبت فيها وكأنها ليست الهيكل المتهالك الذى استقبلنى قابعا تحت الشمس منذ ساعات ، كدت أسالها « وكيف يهدينى الله وماذا يزيح عنى ؟ — إيش

عرفك أيتها العجوز بما بى، ياليتى أعرف ماذا جاء نى بلا استئذان حتى أستطيع أن أزيحه عنى ! ، ياليت نظام النزح يصلح لتخليص الإنسان من فائض أفكاره التى تطفو على عقله حتى تفسده ، لا بد أن للعقل فضلات مثل فضلات الجسم ، ولا بد أن نعرف طريقاً للتخلص من الأفكار الزائدة التى لا جدوى منها فى الحياة اليومية ، ولكن كيف لمثلى أن يعرف الأفكار الزائدة من الأفكار الضرورية ؟ لماذا ترك لنا الحكم والاختيار فى محتوى العقل ولم يترك لنا فى مسائل الجسم .. أكاد أجزم أننا لو كنا نختار ونتسائل عن وظائف الجسم لتوقفت جميعها نتيجة لغرور الإنسان وسوء استعماله للحرية ، هذا ظلم لا يرفعه إلا الجنون ، إما أن نوهب التفكير على قدر احتياجنا له أو قدرتنا عليه ، وإما أن نوهب نظاماً ما نفرز به فضلات أفكارنا .. ، لو كنت أعرف ماذا تقصد أمى بدعوتها « يزيح عنك »، لو كنت أعرف بما يدعو لى أبى ، لساعدتهما وساعدت الله على تحقيق دعواتهما ، ولكنى لا أعرف ماذا أريد أن أبقى وماذا أريد أن أدع ، هل أريد أن اتخلص من عقلى بالى ؟ هل أريد أن اطمئن وأرضى .. أم أن أعرف وأمضى ؟ ..

. . . .

أخذت أمى تنسق الطعام على الطبلية فى سعادة غامرة وجلست أمامى على بعد قليل لا تشاركنى الطعام ، فهذه عادتها من زمان حيث الأكل عورة ، ولكنها تريد أن تطمئن على أنى أتيت على الدجاجة المحمرة حتى آخرها . فى هذه المرة لم أجد عندى شهية تتناسب مع إصرارها على ألا تقوم إلا وقد مسحت آثارها جميعا . حاولت أن اتحايل على أفكارى حتى أتفرغ لهذا الواجب ولكنى لم أستطع ، فى أول الأمر نظرت إلى الساعة فتبينت أنها لم تتعد السابعة مساء ، ياطول ما ينتظرنى من سواد الليل، هجمت على الوليمة

أملأ بطنى بها ، أخذت أتهمها اتهاماً بلا رحمة وكأنى لم أنصرف عنها منذ قليل آملا أن تتخمنى فتخدرنى فأنام . .

جمعت أمى بقايا الافتراس من عظام مهشمة ، فى سعادة لا تتناسب مع طيبتها ورقتها ..

* * *

خرجت فى الصباح التالى محملا بالزيارة التى كادت تنقطع بعد انقطاعى عن البلدة ، وجلست أنتظر قطار الدلتا فى ركن خلف المقهى المكون من بعض جذوع الشجر المغطاة بأعواد القش والقابع فى مكان ما ـ هو أيضاً ـ بين بيت حضرة الناظر ودار خالتى أم عوض .. انتهزت فرصة غياب القطار حيث لا ميعاد له وأخذت أرتشف الشاى الأسود واسترجع السؤال فى هدوء « هل أجد هنا الحل » ؟

كانت الحمير والجمال تمر على محملة بالسماد إلى الحقل ، وبالتراب إلى الحظائر ، يقودها الأطفال والرجال أو تقود هى الأطفال والرجال حسب موقعهم من بعض من أمام أو خلف ، ملأنى الإعجاب بهذا العمل الدؤب الذى لا يتوقف ليسأل « لماذا » . « أو إلى أين » ؟ هذا الداء الوبيل الذى يستشرى فى خلايا العقل مع انتشار القراءة والكتابة ، والتلويح بأحلام أرضية .

تقدم منى شاب أشعث أغبر يخبط على صندوق الأحذية ، تبينت فيه « زينهم » الذى كان آخر عهدى به صبى نجار ، جلس تحت قدمى دون استئذان وحيانى بترحيب حقيقى ؟ ناولته قدمى فى استسلام وانتهزت الفرصة لأتبادل معه آخر حديث قبل أن أغادر القرية مهزوماً تماماً .

-- هل تركت الأسطى عبدالستار النجار يا زينهم !

— من زمان .

— وكيف حاله هو ؟

— مشى فى حب الله .

— كيف؟. حدّثنى؟ .

— حدث ما حدث بين يوم وليلة ، أصبحنا فإذا به ينادى أخاه ويسلمه العدة ويوصيه بالاولاد ويملأ مخلاته بالعيش الجاف ثم يخرج دون سلام ، ومنذ ذلك الحين ولا أحد يعرف عنه شيئاً .. وإن كان يظهر أحياناً بالبلدة لبضعة أيام دون مناسبة أو فى مولد سيدى الشيخ عمارة .. وقد كثر الكلام ياسعادة البيه .

قالها وغمز بعينيه يستدرجنى لمزيد من التساؤل ؟

— خير يا زينهم .. أى كلام؟

— الكلام كثير ، فمن قائل إنه عشق الغازية التى تحضر أيام المولد .. ومن قائل إنه واصل ومن أهل الخطوة ، ومن قائل إنه يدخل البيوت يساعد النساء العواقر على الحمل ...... أرزاق !! .

— كان سيد العاقلين وأنت خير من تعرفه يازينهم .

— أحوال يا سعادة البيه ، يدبرها سيدك ؟

إذا كان تدبير سيدى هنا هو التدبير الأمثل الذى يغرينى به كل ما يدور حولى فلماذا تصبح خالتى شلبيه الهبلة « هبلة » ، وترفض هؤلاء الأحياء لتعيش بين القبور، ولماذا يسير عم عبدالستار النجار فى حب الله ، ولماذا يقتلون كل من يشذ عن المجموع مهما كان نوع الاختلاف ؟

التفت إلى زينهم .

— وكيف حالك أنت يازينهم .

أجاب وعيناه تلمع فى خبث الصياد حين تغمز سنارته .

— زفت كما ترى ياسعادة البيه ، ربنا يتوب علينا ..

— من ماذا يا زينهم ؟

— من البلاوى والغلب، ياليتك تجد لى عملا فى مصر ..

صرخت كالملدوغ ..

— فى مصر ؟ ؟

— أيوه فى مصر ... مصر أم الدنيا ... وهل هناك أحسن من مصر ؟

* * *

حضر قطار الدلتا فى دلال ، وساعدنى زينهم فى حمل الزيارة إليه ، وأخذت أنظر من النافذة والقطار يبتعد فى دلال أيضاً عن البلدة ، ولا أستطيع إلا أن احترم كل ما يجرى أمامى وحولى . ولكنى لاأستطيع فى نفس الوقت أن أميز بين حيوان ونبات وجماد .. فضلا عن الإنسان .

* * *

الفصل السابع

وبالناس المسرة

طوال الطريق أثناء عودتى وأنا أحس بشعور جديد يزحف ليغمرنى بثقل لا عهد لى به منذ نفخ فى الصور وقامت القيامة ، عرفت الضياع والألم والنشوة والسخرية والحيرة ولكنى لم أواجه مثل هذا الشعور الجديد قبل ذلك بمثل هذه الصورة ، شعوراً أعمق من الحزن وأخبث من اليأس ، لم أكن أطمع وأنا ذاهب لأمى إلا أن أطمئن على حياتها أو موتها ، سيان ، ولكن ما وجدت نفسى فيه من مواجهة لأصلى أغرانى أن أرجع إليه لعلى أرتاح ، حياة سهلة تلقائية .. أجوبة حاسمة تلغى الأسئلة الحائرة قبل أن تظهر ، تسليم بالأمر الواقع وإصرار عليه وكأنه من صنعهم هم دون سواهم ، ماذا يحدث لو أنى أصبحت إنساناً منهم أو حيواناً أو نباتاً أو حتى شاهد قبر ، وحين قلت يا ليت ؛ كان لابد أن ألغى وعيى بعصيرى وبطبيعة وجودى ، وهنا خاب أملى بلا حدود ، وتمنيت أن ألغى وعيى بكل وسيلة ، تمنيت أن تكون لى كرة ثانية أرجع فيها إلى أصلى حتى ذرة التراب وأقدم تعهداً ممهوراً بكل الضمانات أن أتوب توبة نصوحا ولا أحاول الخروج عن طوق ثانية على شرط ألا أتذكر ما كان أبداً .. ولكن من أدرانى أنى لن أصاب بداء الحياة وأنا كتلة من طين سرعان ما تتحجر فتدب فيها الحياة وأسير نفس المسيرة عبر السنين لأصل فى النهاية إلى نفس ضياعى ؟ .. لا لن أرجع إلى أصلى إلا إذا قدمت لى الضمانات بعدم تكرار ما حدث ، أما أن أذوب إلى ذرات تكفيراً عما كان ، ثم أنظر فإذا بجلدى يحددنى إنسانا مرة ثانية فهذا

هو الجحيم ذاته .. أذوب ذرات وأتجمع هيكلا لأذوب ذرات إلى ما لا نهاية يا ويلى من كل هذا ...

حاولت أن أرجع إلى موقفى الساخر العابث الذى أنقذنى من الجنون والضياع بشكل ما ، والذى يسمح لى أن أواصل سيرى طوال هذه الفترة بين الناس دون أن أكتشف فلم أستطع ، وكلما خطر ببالى تعليق ساخر تذكرت نظرات والدى وغضبه ، فأنكمش فى خجل مفتقداً التحدى الذى كنت أحدثه به ،.. زحف علىّ الشعور الجديد الثقيل كما لم يعرفه أحد ، حزن له شكل آخر أذكر أنى شعرت بشىء يشبهه من عشرات السنين تكاد رائحته تأتينى من بعيد وكأنه هو ذلك الثقل الذى يكاد يوقف نبضات القلب ، ينسحب إلى كيانى فى عصر أيام الجمع ، أيام المدرسة الابتدائية حين أتذكر أن غداً هو السبت ، منقوع الزفت اللزج بكل همه وغمه وقسوته ، كيف تمضى الساعات حتى بداية الحصة الأولى ، وكيف يجثم الموت على نفسى بلا أمل فى الخلاص بقتله أو بقيام القيامة ، ثم ينزاح رويداً رويداً بعد الحصة الثالثة ليحل محله تسليم مقهور ، ثم تبدأ النشوة تداعب مشاعرى عصر الأربعاء انتظاراً لشمس الخميس المشرقة ليتوقف الزمن عصر الخميس حيث كل شىء مسموح به ، ولكن المصيبة الكبرى تعاود الظهور عصر الجمعة حيث أكتشف أن الزمن ما زال يمضى ، وتمضى الأيام ويزداد وعيى بقدوم السبت قبل أوانه ، وتزحف مشاعر الغم إلى الخلف رويداً رويدا حتى تلغى كل بهجة الخميس وتصبح حقيقة « السبت » قائمة كالقدر فى كل وعيى طول أيام الأسبوع لأن أى يوم لابد أن يلحقه « سبت » ولو بعد حين حتى يوم السبت ذاته فله سبت تال ، ويرهقنى وعيى بالزمن والأيام حتى أستسلم لقهر القدر فما فائدة الوعى بالأيام ما دام نهايتها دائما سبتاً حزيناً مثل برميل النفط يغرق فيه الأطفال ؟ ومات شعور الحزن

الزاحف حين مات الوعى بالزمن تحت وطأة اليأس والتسليم، فاالذى أرجعه إلىّ وأنا راجع من البلدة ، كيف بدأ ؟ وكيف تطور ؟!

أظن أنى أتذكر عن بعد حديثى مع أبى فى قبره ، علماً بأنى لا أستطيع الجزم على أنه كان فى قبره إلا إذا استطعت الجزم أنى أنا كنت خارج القبر ، وكلتا الحقيقتين تتبادلان بلا يقين .. الشىء الذى أستطيع الجزم به هو أنى لم أستطع أن أتخلص منه بعد الزيارة ، ظلت كلماته تغرينى وتدعونى وتتحدانى وتهددنى وترعبنى فى آن واحد ، وينمو الشعور ويتضخم بعد تلك الوليمة الدسمة .. التى ساعدت فى هربى بالنوم الطويل لأصحو وفوق قلبى الهرم الأكبر ذاته، إلا أنه ينزاح وحده بلا أسباب ظاهرة حين أتذكر أن الزيارة انتهت، وأنى سأترك معها آثار والدى وكلماته إلى الأبد لأكمل حياتى الخاصة ولو متفرجا ساخرا ، وتمضى بضع ساعات فوق الأرض، إلا أن جحافل الحزن تعود زاحفة مرة ثانية ويزداد ثقلها تدريجياً حتى تجثم على صدرى بلا أمل فى فكاك ، ثم تبلغ قمتها وأنا أقترب من بيتى ..

ثقل رازح على قلبى ، ثقل حقيقى، لا أعرف كيف أسير به حيث يرزح على كل خلية فى كيانى ، هل هذه هى النهاية ؟ لقد تخلصت منه طفلا بإلغاء وعيى وبغيره ، وها أنذا أواجهه ثانية بعد يقظتى اللعينة ، ماذا فعلت لأنال كل هذا الجزاء ؟ وكيف أكفر عن ذنبى الموهوم ، حتى الكلمات تتباطأ فى فكرى وكأنها قد قدت من صخر الجرانيت الأسوانى ، أكوّن الفكرة وكأنى أنقش على الحجر ، هل آن الأوان أن يتوقف عقلى ويريحنى من هذه التناقضات برمتها ؟. أين سخريتى اللاذعة وموقفى المسرحى وكوكبى الخاص؟ أين كل هذه الأفكار التى صحبتنى وأنقذتنى شهورا طوالا حتى حسبت أنى أكتشف الحل السعيد .. وأنى أستطيع ان استمر هكذا إلى ما لا نهاية ...

ثقل ثقل ثقل حتى نفسى يدخل إلى صدرى فى بطء وكأن للهواء وزن، ويخرج منه فى تراخ وكأنه يلزمه مروحة كهربية لطرده ،.. ثقل ثقل ثقل ، كل شيء بطىء بلا موت ولا حياة ولا أمل ولا حتى يأس فعال .. ما أبشع كل هذا .

* * *

فتحت البنت الباب فربتُّ على خدها وكأنى أراها لأول مرة ، هل أشفق عليها مما أنا فيه ؟ هل أودعها بلا عودة ؟ هل أكفر عن ذنبى ؟ أشرق وجهها بالبشر لهذه اللفتة غير المتوقعة . دخلت أجر ورائى « الزيارة » حتى ركنتها فى ركن خلف الباب ومضيت أطمئن زوجتى على صحة أمى حتى لا أتعرض لما لا أطيقه الآن من استفسارات دورية وأنا فى هذه الحال ..

ذهبت زوجتى تعد الحمام كما تعودت بعد هذه الرحلات حيث أرجع عادة محملا بالأتربة والحشرات، ولكنها لا تدرى .. بم حملت هذه المرة ، لم أعترض رغم شعورى بأن هش ذبابة هو عبء فوق طاقتى، كنت أؤمل أن يزاح عن صدرى بعض أثقاله مع تراب البلدة وحشراتها.. دخلت الحمام وبدلا من أن أستعمل الماء الدافىء المعد وجدتنى أفتح الدش البارد لعلى أفيق بعض الشىء ، نزلت على جسدى المياه كالثلج ، ارتجفت بعض الوقت ثم بدأت أتعود الماء ، تسرى فى جسدى وعقلى يقظة خفيفة آمل أن تتزايد وتستمر ، لم يستجب لى صنبور الدش وأنا أحاول إغلاقه فأخذ يلف بلا انقطاع .. تذكرت عم محفوظ.. واستيقظ فى وجدانى أمل بعيد ، سوف أستدعيه على الفور ليصلح الصنبور ، وأشياء أخرى إن أمكن ..

* * *

دخلت عليه وقد انهمك فى عمله واضعاً صندوقه الصاج بجواره ووجهه مشرق بضياء لا تخطئه عين محتاج .

— مساء الخير ياعم محفوظ .

— مساء الرضا يا سعادة البيه .

— كيف حالك . ؟

— رضا والحمد لله .

— كيف حال الأولاد يا عم محفوظ . ؟

— بخير والحمد لله .

كل شيء رضا وخير والحمد لله ، كيف أفتح معه الحديث الآخر وماذا يقول عني .. لن أتراجع على أى حال وليكن ما يكون ..

— أريدك فى كلمتين يا عم محفوظ .

— تحت أمرك يا سعادة البيه .

— هلا حضرت إلى حجرتى حتى لا يسمعنا أحد .

تعجب الرجل ولكنه تبعنى فى صمت .

جلست على الأريكة العربية وحاول أن يجلس على الكرسى المقابل فدعوته للجلوس .. بجوارى على الأريكة حتى أحس بالاقتراب منه ، طال الصمت وهو لا يقوى أن يقطعه .

— أنا فى أزمة يا عم محفوظ وأعرف أنك رجل طيب وأطمع فى مساعدتك ..

— أنا يا سعادة البيه ؟ ربنا يستر عرضك .

هل يقفل علىّ الطريق بهذه السرعة .

— أزمة حقيقية يا عم محفوظ ..

— أنا رجل على قدر حالى ولا أنسى أفضالك علىّ ، « مصاغ » زوجتى هو كل ما أملك وهو تحت أمرك حتى تفك أزمتك ، والله يسترنا ويسترك ..

هذا الرجل ؟ . . هذا الرجل ! هذا هو الرجل ٠٠ لم أستطع أن أتمالك نفسى ووجدت دموعى تنهار بلا مقدمات ، نظرت إلى الباب لأتأكد أنه مغلق ، وانسابت دموعى أكثر فى صمت ، انزعج الرجل أول الأمر ثم أخذ يربت علىّ بحنان بالغ وقد أشرق وجهه بنور لم أر مثله ، كدت أميل على صدره وأجهشت بصوت عال لولا خوفى من الآثار المحتملة خارج الحجرة . .

— الدنيا بخير يا سعادة البيـه ؟ المؤمن مصاب .

كدت أقول له أنى لست مؤمناً ومع ذلك فأنا مصاب مصيبة سوداء ، ولكنى تراجعت ،لا ليس لمجرد خوفى منه أو عليه ، ولكن لأنى لم أكن واثقاً هل أنا مؤمن أو لا ؟ .. نظر إلىّ طويلا وما زالت الدموع تنهمر على خدى وكأنها تستغيث به أكثر ، لمحت فى عينيه دمعة تتـدحرج فخجلت من نفسى وتذكرت بلا مناسبة نظرة والدى الحادة ، توقفت عن البكاء وقد غمرتنى راحة لم أشعر بهامنذ سنين . .

— المسألة ليست مسألة نقود ياعم محفوظ

بدت على وجهه ظلال الدهشة ولكنها لم تحجب النور المشرق من دمعة لم تنزل ، قسمات وجهه الصبوح تحتوينى فى طياتها ، أكملت حديثى بشجاعة أكثر . . .

— المسألة أنى لم أعـد أعرف كيف أعيش ، وأكاد أجزم أنى لا أستطيع الاستمرار .

قال لى فى يقين كامل . .

— كفى الله الشر .. إخز الشيطان واستعن بالله . . .

— كيف يا عم محفوظ كيف أستعين بالله ؟ يا ليتنى أستطيع .

صمت الرجل وأخذ يفكر بجد ، حمدت الله أنه لم يتماد فى نصائحه . . وإرشاداته ، كان أقصى ما يمكن أن أتعرض له هو أن ينتهى الموقف ببعض الدعوات والآيات ، ظل مطرقاً يفكر فى هم حقيقى ـ أحسست أنه يفكر معى « كيف » وأنه يعيش حيرتى فى دنيا الواقع بلا زيادة ولا نقصان ، ساد الصمت المملوء بتبادل المشاعر فترة لا أعرف مداها وتمنيت أن تستمر هكذا إلى ما لا نهاية ـ هذا هو غاية الوجود : أنا مع إنسان آخر، نبضة بنبضة ، دون ألفاظ أو استعلاء ولا امتحان ولا نصيحة ولا علم . . الآن أستطيع أن أموت دون ندم . . جفت دموعى وتسربت ابتسامة هادئة إلى وجهى دون دعوة ، أحسست أنى مثل طفل تأكدت من أن أباه قد عفا عنه إلى الأبد ، ما زال عم محفوظ مطرق إلى الأرض وإن كان وجهه قد بدأ ينفرج عن رضا مشع وإشراق أروع وأروع ، نظر إلىّ فى رحمة ورأى ابتسامتى البديعة فأشرق وجهه أكثر وكأنه دخل الجنة ، قال فى يقين يكفى كل أهل الأرض . .

— إن شاء الله . .

اندفعت بلا تفكير أقبل يده فانزعج بلا حدود، وحاول أن يبتعد مستغفراً لله عدة مرات ، ولكنى صممت على تقبيلها ، فقبل يدى بدوره . .

عاد كل منا إلى موقعه ، كنت حذراً فى تساؤل، وكان خجلا فى وداعة ، ولكن الرضا السائد طغى على كل المشاعر .

— لا تتركنى يا عم محفوظ

صمت فى تقبل متواضع ولم يرد ، أكملت أنا ..

— أريد أن أزورك فى بيتك ..

— تحصلنا ألف بركة

— ربنا يخليك

— ربنا يخليك أنت

غلبه الخجل حتى لم يرفع عينيه من الأرض، ثم استأذن وانصرف بعد أن أخذت عنوانه . . .

* * *

لم أفهم ما ذا حدث وكيف ؟ لم أكن أتصور أن المسافة بين الناس يمكن أن تنمحى فى لحظات بلا خوف ولا حساب ، عم محفوظ يقبل يدى – يدى أنا – وأنا أبكى على صدر حنانه ، هل هى دعوات والدي أو رضا أمى بعد أن زرتهما بعد غيبة طالت ؟ هل آن الأوان لأرى نور القمر .. ثم تشرق الشمس؟ هل حدث ما حدث فعلا أو هو حلم عابر من أحلام الجوع والحرمان . . ؟

ناديت أولادى وزوجتى واجتمعنا بسرعة جلوساً على السرير كما لم نجتمع منذ شهور ، أرسلنا البنت تشترى فولا سودانياً ساخناً وأمضينا ليلة عامرة بالود والدفء والأمل ..

* * *

أخذت أقطع الحارة إلى بيتة وأنا متردد ، يغلبنى الشك فى أن أكتشف أن ما حدث لم يكن إلا حلماً ، الحجارة التى رصفت بها الحارة متآكلة ، بقايا الإنسان تملؤ الطريق ، وحوانيت الخردة لم تغلق جميعها وإن كان الصبية يجمعون قطع الحديد والتروس والصناديق من أمامها ويدخلونها إلى جوف المحل استعداداً للإغلاق ، يحسبنى أصحاب الحوانيت زبوناً يبحث عن قطعة غيار ، فيتلكأ الصبية فى جمع الأشياء ونقلها للداخل ولكنى أمضى فى طريقى

أتطلع إلى أرقام البيوت التى اختفى أغلبها متبادلا معهم أحياناً بسمة اعتذار خجلة ، سألت عن منزله ودلونى عليه بعد الدهشة . . صعدت الدرج الحجرى المتآكل وأنا أدعو الله ألا أكتشف أنى كنت فى حلم ، داخلنى خوف آخر : أن أفاجأ به فى بيته إنساناً آخر من الذين يستعملون طيبتهم فى أوقات العمل الرسمية فقط ، استبعدت هذا الخاطر ، ولكن ماذا لو وجدته متزمتاً مع أهل بيته خوفاً أو تديناً ، كان ينبغى ألا أبالغ فى تصويره بالصورة التى أريدها حتى أتجنب المفاجآت .

فتحت لى الباب سيدة بشوشة بيضاء أقرب إلى الامتلاء ، ترتدى قميص نوم صريح متسامح ، تربط رأسها بمنديل تو تر كبير الحجم مثل قسمات وجهها المنفرجة عن تلك الضحكة الموجهة فى غير تردد ، الحمد لله ، جاء صوته من الداخل فزادت طمأنينتى .

— مين يا زكية ؟

كانت الكلمات تزغرد فى حلقها .

— واحد بيه يسأل عنك يااسطى .

وتفضلت بناء على دعوتها الصريحة دون أن تنتظر الإذن من داخل ، خفضت عينى بلا داع وأنا أمر خلال الدهليز الطويل وكان يغمرنى شعور بالامتنان والرضا ، ينتهى الدهليز بباب حجرة صغيرة فى آخره ، وباب حجرة أخرى على جانبه ، وكان عم محفوظ منهمكاً فى إصلاح شىء بين يديه تبينت فيما بعد أنه راديو ترانزستور (!!) رفع رأسه ليرى مَن الداخل وهمّ بالوقوف حين رآنى ولكنى لحقته لأجلس بجواره على الأرض وأخذ يحاول أن ينقل المسند الذى كان وراء ظهره إلىّ فى إصرار ، جلست وكأنى أستظل بالسرير الحديدى ذى القوائم السوداء التى ترتفع حتى تكاد تلامس السقف .

جاءتني أصوات كوم «العيال» - كما كان يسميهم - من الحجرة الأخرى ، واستطعت أن أتبين وسط الضجة كلاماً من كتاب المطالعة مختلطاً بآيات قرآنية وسباب من واقع الحال ، دون تداخل في الاختصاصات . .

— أهلا وسهلا يا سعادة البيه زارنا النبي

— اسمع يا عم محفوظ ، حتى أرتاح : لا تقول لى يا سعادة البيه

— أستغفر الله . وما ذا أقول إذاً ؟

— قل لى يا عبد السلام :

— يا خبر .. ! !

— ألا تحب راحتى ؟ ؟

سكت قليلا ثم نظر إلىّ وكأنه يحتضننى بوجهه ثم ضحك بصوت رنان وقال وكأنه اكتشف الحل . .

— أقول لك يا سيِّدْنا . .

انزعجت قليلا وتساءلت إلى أى طريق يأخذنى ؟

— ما هذا يا عم محفوظ ؟ ؟

— أنت سيدنا والله العظيم ، وسوف ترى . .

— أرى ما ذا يا عم محفوظ ؟ . . ما ذا جرى ؟

— كنت أكرم الناس لما نزل الماء الطاهر من عينيك ، وهذه كرامة الصالحين . .

يبدو أنى أخطأت الطريق ، ثمة خطأ قد حدث ولا بد من الإسراع بتصحيحه . .

— أنت لا تعرفنى ياعم محفوظ .. وكل هذا الكلام يربكنى ويخجلنى .. وما جئت هنا إلا لأطمئن أن بيتك فى متناولى ، وأنك لن تتركنى ..

قال بلا تردد :

— يوم المنا يوم تشرفنا ، أنت لا تعرف مقامك . .

مقامى ماذا يا رجل ، هذا الكلام لا يمكن أن يستمر وإلا فأنا عرضة لتصديقه ، تمنيت أن أصدق ما يجرى بشكل ما ، فلربما يوجد تحت أكوام القمامة الممتزجة بالنفط شىء طاهر . .

— يا عم محفوظ كفى هذا . . كتر خيرك أخبرنى عن نفسك

— أنا عال العال بحسك

لا بد من الإصرار ولن أدع الفرصة تفلت من يدى تحت وهم طهارتى السرية ..

— جئت أحدثك عن أزمتى يا عم محفوظ

— لا أزمة ولا غيره ، هذا رضا رب العالمين ، كل الناس الصالحين لا بد لهم من أزمة وأزمات ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى حتى تتخلل الدموع لحيته ، أنت لا تعرف نفسك فلا تحط من مقامك لأن الله كرمك ..

— لست على يقين من أن الله كرمنى . .

— الله كرم بنى آدم يا رجل . . لا تكفر بالله

لم أعد أطيق كل هذه المفاجآت . . أين أنا وأين هو ، ماذا لو علم خبثى وأطماعى ؟ ما ذالوا علم نزواتى وعجزى هذه الأيام ، لماذا يقطع على الطريق إليه ؟ ، جئت ألتمس بركته فلم أجده إلا بعيداً عنى بقدر ما هو قريب من شىء مما فى داخلى ، ولكن من أين له أن يرى داخلى إلى هذه الأعماق .. لن أخدع نفسى فما أنا إلا كومة قاذورات . .

الأطفال تتناثر حولى وزوجته تتحرك فى سهولة ويُسر ووجهها يمتلىء بشراً كلما راحت أو جاءت وكأنها تكتشف فى كل لحظة معنى جديداً للحياة . .

لن أستسلم لهذا الوهم .. وسوف أدافع عن قذارتى ..

— يا عم محفوظ أرجوك أن تسمعنى وأن تقدر موقفى فما جئت هنا إلا لألتمس رضاك وأتبرك بك ..

— ما هذا الكلام ، ولماذا لا تنظر إلى نفسك ؟

— المصيبة بدأت حين نظرت إلى نفسى .

— إحساسى لا يكذب ، لابد أنك لم ترها جيداً ..

— أرجوك .. إسمعنى ...

بدا عليه الرفض .. ومع ذلك استمر فى ابتسامته المشرقة ، قررت أن ألقى عليه ما يفيقه حتى أتمكن من إكمال الحديث كما اريد ..

— أنا لا أصلى يا عم محفوظ ..

صمت قليلا ثم قال :

— .. هذا شأنك معه ..

أكاد لا أعرف معنى ما يقول

— أخشى أن تكون قد أسأت فهمى .

— قلبى أحبك ولا أعرف غير ما أقول .

أصررت على التحدى، سوف أتجاهل كل ما كان ولو أدى الأمر إلى مصيبة لا أعرف مداها ..

— لماذا تعيش يا عم محفوظ ؟

قال دون تردد :

— العيال أحباب الله ، ونحن نكسب ثواباً فى تربيتهم .

تذكرت « لمعى » و « جميل » أولاد نصحى افندى .

— وكيف نربيهم ؟ ولماذا ؟

— حتى يملؤوا الأرض خيراً وبركة .

لن أصل إلى شيء حتى لو حكيت له عن « وادى الملوك » ، عن منزل نصحى وزوجته وأولادهما لمى وجميل ، أحسست أنى نسيت نفسى وكأننى أناقش الأستاذ غريب ، قلت وقد بدأ الغيظ يتراكم داخلى :

— ولماذا يعيش من ليس عنده أطفال يا عم محفوظ ؟

— الأطفال ملء الأرض وأنت سيد العارفين ..

لن أصل إلى شيء ؟ علىّ أن أحترم كل ما يجرى دون أى فهم، حاولت أن ألغى ما حدث ويحدث ، إلا أنى لم أستطع بأى درجة، فقد هزنى كل حرف نطقه، ولم أنجح فى محاولة الذهول أو النسيان، حاولت تشويه الموقف فتذكرت بعض ما تعلمته من نصحى افندى ، فلابد أن هذا الرجل يرى كل الناس مثله ، أو لعل له شيخاً واصلاً من أهل الله قد علمه هذا ، هروب والسلام ، ولكن كيف أطمس النور فى وجهه هل يكون هذا هو الطريق ؟

وتذكرت أبى فجأة ...

— هل تمسك « ورداً » يا عم محفوظ ؟

— لماذا الورد ؟

— تذكر الله .

— أنا أذكره ليل نهار فلا حاجة لى بورد .

زادت حيرتى وتذكرت والدى وهو يتلو الورد إثنى عشر ساعة فى اليوم طوال أربعين عاماً لم يغادر العبوس وجهه إلا لحظات معدودة ، أين هو من كل هذا البشر على وجه عم محفوظ ، ولماذا لم يعرف الطريق رغم طول تسبيحه

حتى حين ظهر لى من القبر كان ما زال عابساً يتلو ورده الذى حجبه عنى وعن الناس، وكأن ما قرأه فى الدنيا لم يكفه فكان عليه أن يكمله فى الآخرة ، كأن عليه أن ينقل عداد المسبحة إلى ما لا نهاية قبل السماح له بدخول رحمة السماء ..

حيرتنى يا عم محفوظ الله يسامحك، من أين آتيك وكيف أفهمك : ليس لك ورد فهل لك شيخ يا ترى ؟

— رد بإصرار :

— قل شاء الله يا أهل الله .

— أعنى هل أخذت العهد على شيخ طريقة.. هل تسلك مع السالكين.

— العهد عهد الله ماذا جرى يا سيدنا ، لماذا تصر على وصل العبد ، والله أقرب إليك من نفسك ..

— من نفسى أنا أم من نفسك أنت ؟ لا تظن كل الناس مثلك .

— مثلى ؟؟ ليس كمثله شىء يا رجل ، لا تكثر من التفكير واعرف نفسك ولا تقلل من قيمتك .

إعرف نفسك ؟ إعرف نفسك ؟ ماذا جرى لك يا عم محفوظ يا ليتنى عرفتها إذاً لما جئت إليك ، لن يخدعنى كرمك وإلقاء البركة علىّ دون حساب ، لا بد أن أعرفك أنت أولا حتى أعرف نفسى فيما بعد . . لن تهرب منى يا رجل .

— وهل تخاف النار يا عم محفوظ ؟

— لماذا ؟

— نار الله للعصاة يا عم محفوظ .

— وأنا مالى يا سيدنا .

— لم ترتكب معصية أبداً ؟

— ربك غفور وهو عنى راض .

— من أدراك .. ؟

— طالما أنا راض عنه فهو راض عنى والحمدلله

سكت بعد يأس حقيقى من أن أهز هذا الكيان النورانى حتى يشاركنى قلقى الأرضى، أطرقت إلى الأرض وساد الصمت فترة نظرت فيها إلى نفسى، هل أصدق أنّ فى خيرا ما ؟ وأين كان مختفيا قبل ذلك ؟ وأين هو الآن ؟ هل من حقى أن أشعر به فعلا ؟ وماذا لوشعرت به فصفعنى والدى أو بصق فى وجهى ؟ هل يحمينى عم محفوظ بحسن نيته ؟ يقينه يزعجنى ويكاد يوقظ إحساسى بكل ذلك . .

قطع على تفكيرى واضعاً يده على كتفى فأحسست برعشه تتملكنى ، صعبت علىّ نفسى ، قال فى حنان واضح وصدق لم أستطع أن أتجاهله . .

— لماذا تشغل نفسك بكل هذه الأمـــور وأنت الخير والبركة ، فكم أحبك ورأس سيدنا الحسين

لم أستطع الاحتمال وأجهشت بالبكاء حتى علا صوتى ، أقبل علىّ يحتضنى دون تردد ويقبل يدى وأنا فى استسلام تام، وداخلى يكاد يشرق بالرغم منى حتى أكاد أصدق أن « فىّ بركة » فعلا ، ملكنى ذلك الهدوء الغامر الذى عشته معه من قبل « كأن طفلا تأكد من أن أباه قد عفا عنه إلى الأبد »

. . . . .

حضرت زوجته تحمل أكواب القرفه ولم تفارقها الابتسامة التى استقبلتنى بها ، ويبدو أنها انتظرت حتى انتهى صوت النشيج الذى لم أجد حرجاً فى أن أعلنه فى هذا المكان حتى لو وصل إلى أسماعها ... على عكس ماشعرت به فى بيتى وعند زوجتى، أخذت أحتسى كوب القرفه رشفة رشفة وأنا أتساءل

هل يكون علاجى بالحضور إلى هنا لأبكى على صـــــدر حنانه كلما تعقدت الأمور .

نظرت إلى زكية ورأيتها جميلة كما لم أر امرأة فى حياتى ، نظرت هى إلىّ بود حقيقى وقالت فى إصرار ..

— والنبى تدعولنا

قلت لها فى تسليم مضحك ...

— ربنا يكرمنا جميعاً ..

. . . . .

الأفكار لاترحمنى رغم أن كل خلية من خلاياى قد استقرت فى موضعها .. هل يكون هذا هو الحل ؟ ، هل نعيش لنربى العيال كل العيال ، فيملئون الدنيا خيراً وبركة ؟ هل نجد معنى للحياة حين نجد من يشعر بنا دون أن نخاف ؟ وإذا كان عم محفوظ قادر على أن يعيش كل هذا اليقين فمن أين لى بمثله ، كيف أضمن بقاءه ولو بضع ساعات دون فكر يؤكده ؟ ، كيف أتجنب الهجوم من كل ثغره : سواء كانت فكرة فى عقل غريب ، أم تحليل فى عقل نصحى ، أم نظرة من عين زوجتى ، أم تعليق من أهل قريتى ، كيف يحمينى يقينى من عالم مجهول وأنا عرضة لنهش الصقور والذئاب فى كل موضع ، وإذا كان عم محفوظ قد وصل إلى هذا اليقين لسهولة حياته أو نقاء فطرته فكيف أستقر أنا عليه وأنا على قمة بركان لايهدأ إلا ليعاود القذف بحممه فى كل اتجاه بلاهدف ، ثم إن عم محفوظ لم يمرض ، ولم يذهب إلى أطباء ، ولم يصاحب نصحى أفندى ، ولم ير خيالات ...

قلت أسأله فى آخر جولة ..

— هل أنا مريض ؟ يا عم محفوظ

حمدت الله على أنه لم يبادر باتهامى بالبركة والطهارة مثل كل مرة .

قال بعد تفكير :

— إيش عرفنى . . ؟ لماذا تغلب نفسك بكل هذه الأسئلة ؟

— لقد ذهبت إلى أطباء وقالوا لى إنى مريض ؟

— القلب يمرض إذا نسى ذكره وأنت لا تنسى ذكره . . . وعلى الطبيب أن يلزم اختصاصه .

رجع إلى اتهامى بالإيمان والبركة . . ولم أحاول هذه المرة أن أعاود ما سبق أن حاولت ذكره حول فسادى وعصيانى فاستمر يقول :

— وسوس لى الشيطان مرة فكفنى عن الناس والعمل أكثر من شهرين ثم أنعم الله على برحمته ، فاستعنت بالناس على الشيطان فى نفسى ، فأصبح يخاف منى ومنهم . .

ضحك من جوفه حتى اهتزت أركان الحجرة .

قلت فى خبث :

— قلبت الآية يا عم محفوظ

— أستغفر الله العظيم

— نعوذ بالناس من شر الوسواس الخناس

— لا فرق بين الناس ورب الناس

— الناس شر يا عم محفوظ

— يا نهار اسود . . ولا مؤاخذة ، الناس الشر هم الذين ابتعدوا عنه

فغرهم أنفسهم ، شوهوها ، هم الشياطين والجان ، ولكن الناس الذين خلقهم الله على شاكلته ، هم الناس ، وأنت سيد العارفين ..

فرحت أنى استدرجته لهذا الحماس والنقاش العقلى ، ولو أنى لم أستجب لإيمانه بدرجة كافية ، حيث أخذت أتساءل: إذا كان الأمر كذلك فلما ذا يترك عبد السنار النجار الناس فى بلدنا ليمشى فى حب الله ، ولماذا تترك خالتى شلبية الناس الأحياء إلى المقابر لتأتنس بالموتى ، ولماذا كانوا ينهشون لحمى بمجرد أن أغفل ولو بضعة ثوان .. أليس ناس بلدنا هم أقرب الناس إلى ما يقول ؟

لا بد أن فى الأمر سِرًّا ، ولن أستطيع الحصول عليه منه الآن ، وحتى إذا حصلت عليه فلن آمن إليه ما دمت لا أعرف كيف جاء ؟ وكيف يذهب..

ومع كل هذه الشكوك لم أستطع أن أتخلص من الراحة والسكينة اللتان غمرتا كيانى كله بالرغم منى

* * *

ذهبت إلى المكتب فى اليوم التالى بعد انتهاء الأجازة العارضة وما زالت الراحة تملؤ وجدانى رغم أن فكرى لم يكف على المناورة ، استقبلنى الأستاذ نصحى بالترحاب حتى بدا الشوق فى عينيه جزعت من هذا الاستقبال الحار إذ لم يعد عندى أى رغبة أوقدرة عل مواصلة الحديث معه بأى صورة ، ولا لأى هدف..

اعتذرت له عن الكلام فى أى حال من أحوالى ، والتمست العذر بانشغالى بمرض أمى فلم يرتدع ، فادعيت أن صاحبه نصحنى بأن أكف عن الكلام والتحليل والتفسير بعيداً عن العيادة ، نزل عليه هذا التحذير كالصاعقة

إذ يبدو أنى كنت بالنسبة له « لقطة » يمارس فيها هوايته الخاصة ، بدا الشك فى عينيه وكاد يرفض إلا أنه رضخ أخيراً بحماس كاذب . .

— هذا هو الصواب وهو يدل على أنك وصلت إلى مرحلة متقدمة من العلاج .

- الحمد لله . . كله من فضله .

— من فضل من ؟ ؟

خطر لى خاطر أن أتمادى معه هذه المرة وبطريقة أخرى وكأنى ألعب بإشارته ، أو كأنها تحية أهديها لعم محفوظ ، قلت :

— من فضل الله

حاول أن يخفى انزعاجه أو خيبة أمله فىَّ ولكنه لم يستطع الصمت فرد قائلا :

— هذه ألفاظ تعودنا عليها ومن الصعب التخلص منها .. معك عذرك .

أعجبتنى اللعبة واستمررت أبحث عن ذلك الجزء الذى رآه عم محفوظ فىَّ بالرغم منى لإكمال هذا الدور ، قلت فى خبث :

— عذرى ؟ عن أية ألفاظ تتحدث .... يا نصحى افندى ؟

— فضل الله .... الحمد لله .. طبعاً كله من فضل العلم والمعرفة ..

نسيت نفسى ولن أكف عن إغاظته جزاءاً وفاقاً لما مارس فىَّ من « تحليل » تحملته طوال هذه المدة ، قلت متحديا بلا اقتناع :

- طبعاً .. ولكن العلم والمعرفة من فضل الله .

قال فى انزعاج أكبر :

— أنت تمزح بلا جدال ، ما هكذا يقول التحليل ، ألم تناقش هذا الموضوع مع المحلل ؟

خشيت أن يستدرجنى إلى التحليل كما يفهمه مرة ثانية ، وفكرت فى الانسحاب ، ولكنى كنت قد استغرقت فى اللعبة فاستدرجته .

— ولماذا تنزعج من ذكر الله يا أستاذ نصحى ؟

— هذه أوهام نضحك بها على أنفسنا حتى لا نعرفها على حقيقتها ..

— وماذا يمنع أن نعرف أنفسنا ونعرف الله معاً ؟

قال وكأنه يخطب :

— هذه خدعة خبيثة ، تسليم بالخرافات ، جهل لا يتناسب مع «العصر»

زادت رغبتى فى إشعال حماسه الخائف فقلت بلا تفكير وكأنى أكمل كلامه فى سخرية أولاد البلد حين يدخلون لبعضهم « قافية » :

— والعصر .. إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا ...

كاد يفقد وعيه .. أحسست فى عينيه بالقاتل يطل فى إصرار حتى اختفت رقته الجبانة ، وعجبت من حاله لأنى أراه لأول مرة بهذا الرعب والتشنج رغم تظاهره بالمعرفة العلمية التى تفسر له كل الأشياء ، قال يحاول أن يلغى كل ما سمعه وأن يدارى خيبة أمله فى نفس الوقت ..

— أنت تمزح بلا جدال

انسحبت فى اللحظة المناسبة وإن لم تخل لهجتى من سخرية لم يلحظها . .

— طبعاً ..

انصرف عنى فى أسف علىّ ، وربما احتقار لم يخففهما اعترافى بأنى أمزح ، فما زالت خسارته فىّ كمجال لممارسة هوايته تكاد يفقده توازنه ، عدت إلى عملى وأنا أتساءل هل كان ردى عليه مجرد لعبة ورغبة فى إغاظته أم أنه خرج من

ذلك الجزء الخفى داخلى الذى يراه عم محفوظ دون سـواه ، هل أنا مؤمن رغم أننى . . ؟ !

أقبلت على عملى فى هدوء وثقة لم أعهدها فى نفسى منذ زمن طويل . .

....

ترى إلى متى يستمر هذا الحال ؟

* * *

اقترب منى أسـعد افندى كميل دون مناسـبة فقطع علىّ استغراق فى العمل وسـكونى الداخلى معاً . . . ومع ذلك أحسست برغبة ، أو قدرة ، على الحديث معه . .

— أستاذ عبد السلام

ـ أفندم

— أنا ألاحظ من مدة علاقتك بالأستاذ نصحى وأحب أن أحدثك على انفراد

ـــ فى ماذا يا كميل افندى ؟

ـــ أنا أعرف نصحى أكثر منك .. وقد مر بظروف لا تعرفها . .

ـــ شكراً ولـكنى لست فى حاجة إلى معرفة المزيد .

لم يردعه رفضى واستمر فى إصراره بعد أن تأكد أن أحداً لا يسمعنا ، أكمل هامساً :

ـــ هو رجل ملحد أفسدته عقده النفسـية . . وقد سمعت طرفاً من حديثـكم منذ قليل ، وأعجبت بقوة إيمانك .

ـــ قوة إيمانى ؟ !

ـــ لابد أن نحارب الملحدين فى كل مكان . .

ـــ نحارب من يا أسعد افندى ؟

ـــ الملحدين ...

ـــ وكيف نعرفهم حتى نحاربهم ؟ كيف نميزهم يا أسعد افندى ؟

قلتها وكأنى خائف على نفسى، ذلك السؤال الذى خطر ببالى أول مرة حين قال لى عم محفوظ أن المؤمن مصاب ـ تعجب لسؤالى أسعد افندى وظهرت فى عينيه رغبة وعظية أكيدة، أثارت فى نفسى الظنون والحذر، قال فى لهجة لا تخلو من استغراب :

ـــ الملحد هو الملحد ... يا أخى .. عجايب عليك

قلت لابد أن أجد فرصة لإنهاء النقاش واتقاء الوعظ ... فبالرغم من كل شئ فأنا لم أحدد موقفى الشخصى فى هذه الحكاية .. وكنت دائماً خائفاً من الإلحاد بقدر خوفى من الإيمان ، قررت أن أنهى الموقف بسرعة خوفاً من أن ينتهى بتصنيفى ملحداً قبل الأوان ، قلت فى فتور ..

ـــ بسيطة فعلا .. الملحد هو الذى لا يؤمن بالله

قال فى سعادة وكأنه استعاد ثقته بى . .

ـــ طبعاً .. وكل شر على هذه الأرض هو نتيجة لغضب الله علينا . .

من أين جاء إلىّ هذا الواعظ فى هذا الوقت بالذات؟ لقد رأى عم محفوظ شيئاً فى داخلى لا أعرفه ، وها أنذا أتحسس طريقى إليه فلماذا لا يدعنى فى محاولتى الجديدة ، هل كتب على أن يعالجنى ـ أو يهدينى ـ كل هواة العالم، هذا ماحسبت حسابه أمس حين كنت أقاوم التسليم ليقين عم محفوظ ..

تفكيرى يأبى أن يتركنى فى سكينتى ، فليستدرجنى بخبث انتحارى ليفسد كل شىء .

— وما العمل ياأسعد أفندى .

— الرجوع إلى الله . . ؟

ما أسهل الكلام وما أخفى الطريق ، سألته السؤال الخالد ، باهتمام باد ، رغم مخاوف الجدل :

— كيف ؟

قال كأنه وجد ضالته :

— أنا أدعوك لزيارة دير فى الصحراء أتردد عليه عند الشدائد، وسوف تجد فيه السكينة والمعرفة معا . .

قلت وأنا أتذكر حارة عم محفوظ المظلمة ورائحة بيته الرطبة :

— فى الصحراء ؟

— نعم فى الصحراء .

— ولماذا الصحراء ؟

— هناك حيث الطبيعة صامتة قوية تظهر الحقائق بلا شكوك إذ يختلط الأزرق بالأصفر ، وتهبط رحمته على الأرض فتغمرك بلا حساب .

— ولكنى سوف أرجع إلى الطين والتراب والأتوبيسات والمكتب ، حيث يختلط الأسود والأبيض ليخرج منه هذا اللون الرمادى الكئيب ، ويملؤ الدخان والغبار عقولنا ومشاعرنا . .

استدرجنى هذا المتوحش حتى عاد الثقل الرمادى الأملس يجثم فوق

صدرى مرة ثانية بمجرد أن تحدثت عن السواد والدخان ، وكأن المشاعر تتبع الكلمات مثلما تتبع الكلمات المشاعر ، ندمت على أنى تماديت معه فى الحديث . . ولكن حفزنى حب الاستطلاع ورغبتى فى تأكيد ما كان مع عم محفوظ أو نفيه بأسرع ما يمكن وكأن خوفا انتحاريا يدفعنى للهرب من الراحة واليقين . .

استمر فى حديثه :

— أنت تعقد على نفسك الأمور ويبدو أن طول عشرتك للأستاذ نصحى قد علمتك التفلسف . . وأنا أخشى عليك الجحود . .

واصلت اللعبة برغبة أكيدة فى الهرب من الصورة التى كنت أحس تجاهها أنى سرقتها بلا وجه حق ، أو أنها سرقتنى بلا رغبة حقيقية منى :

— وهل يوجد هناك . . فى الصحراء ناس من أمثالى ؟

— الناس يزورون الدير يوميا والصلوات تقام والقداس لا ينقطع . .

— ولكنى مسلم .

— المسلمون الذين يزورونه أكثر من المسيحيين ورحمة الله تعم الجميع . .

بدأت شكوكى القديمة تعوق فكرى وتحول دون التمادى فى المحاورة هل هى دعوة تبشيرية ، هل هو استدراج نحو مصلحة شخصية ؟ ؟ أسعد أفندى مرعوسى ونصحى أفندى رئيسى يتنافسان فى علاجى بنفس التعصب والحماس ، ما أقرب وجه الشبه بينهما ، عقيدة راسخة تقال بيقين تشنجى ، تسمح لهم بالفتوى فيما يعرفان وما لا يعرفان . .

استغرقت فى تفكيرى حتى قطع الصمت بسؤاله :

— هيه ؟ ماذا تقول . . ؟

تذكرت عم محفوظ على الفور، وثار فى نفسى الحماس وقررت أن ألعب معه مثلما فعلت، لتوّى مع نصحى أفندى ، سوف أمضى معه حتى النهاية متفرجا لأنتقم منه على استدراجى إلى كوم الغبار والفكر .

قلت له فى غموض متعمد :

— لقد بحثت عنه فى الخلاء بين المقابر ولم أجده هناك ، إلا أنه تخايل لى بعد ذلك واحداً من الناس البسطاء ، ولولا إصراره على أنى أنا شخصيا بركة ، لحسبته هو حل اللغز ذاته .

نظر إلى مذهولا وكأنى لا أتكلم العربية ففرحت فى نفسى فرحتى بذهول نصحى أفندى منذ قليل .

سأل بانزعاج :

— ماذا تقول يا أستاذ عبد السلام ؟

تراجعت بسرعة هذه المرّة ، فقد كانت الرياح المتربة الثقيلة تعاود الهبوب على عقلى :

— أعنى أن الخلاء يرعبنى وأنا لا أجد راحتى إلا بين الناس . .

— ولكن روحنا تحتاج إلى الغسيل بين الحين والحين .

لم أتمالك نفسى وعدت إلى طعنه حتى يدعنى :

— بلا أدنى شك . . ولكنى أفضل الحمام التركى حيث البخار والناس والدفء والصابون أبو ريحة .

بدا واضحا أنى خيبت أمله بتطاولى فى السخرية فحاولت أن أرشوه وأسكنه فى نفس الوقت ، فأكملت :

— وبالناس المسرة ياأخى . .

أشرق وجهه فى غباء أكيد ، وانفرجت أساريره وكأنه قد هدانى أخيرا إلى آية من كتابه ، وفرحت بالخلاص .

* * *

أخذت أصعد الدرج وأنا أتراوح بين راحة أمس وثقل الحزن الذى يهب على كرياح الخماسين المحملة بالغبار ، ولكن سرعان ما تصفو سمائى دون مبرر ، ووجدت نفسى أسير فى طريق لم أسع إليه عن قصد فمنذ قال أبى « ترجع إليه دون تردد » والمصادفات تقودنى إلى مختلف المحاولات .. أطرق بابا فلا ينفتح ، وينفتح على باب آخر فلا أجد وراءه شيئا إلا الفراغ ، يلوح لى فى عينى عم محفوظ فأنظر فى نفسى أبحث عن النور والطهر فى داخلى فأجد أسعد أفندى قابعا ينتظرنى ليصحبنى إلى الطريق الصحراوى ، وإذا برياح الخماسين تعصف بكل شىء . .

سمعت وقع أقدام خلفى وعرفت صاحبها فتباطأت حتى لحقت بى ، وتبادلنا التحية بشوق تختلف أسبابه عند كل منا . . اقتربنا من بابى فدعوت نفسى لاصطحابه دون استئذان لأشرب كوبا من الحلبة الحصا . . وقد أضمرت أن أعرف موقعه منه ، ربما وجده فى الكتب التى لا يكف عن قراءتها . . بدا عليه التردد بشكل ملحوظ ، ولكنه تأكد من إصرارى فاتجهنا إلى شقته مباشرة وقد بدا عليه التسليم .

طرق الباب فتعجبت لأنه لم يستعمل مفتاحه مثل كل مرة ، ملكنى حب الاستطلاع بطريقة طفلية ، ترى من بالداخل ؟ أنا لم أعهد عنده أحداً قط ، فتحت لنا وبدت أنها لم تستيقظ بعد ، لم أفاجأ وتناسى الأستاذ غريب حرجه وتردده تجاهى وقد استقبلتنى فى ترحاب حقيقى رغم آثار النعاس ، وكأنها تعرفنى من قديم ، أخذت تسوى شعرها الأشعث وتدعك عينيها وتكاد تتمطى ، ولكنها قطعت كل ذلك بضحكة قوية وكأنها قررت أن تصحو أخيرا لتكتشف الدنيا فى شخصى .

قدمنا الأستاذ غريب لبعضنا البعض ، ثم ذهب إلى المطبخ مباشرة وكأن

شيئا لا يعنيه ، ضحكت المرأة مرة ثانية ، وغمزت لى غمزة لم أفهمها ، ثم دخلت إلى حجرة النوم وعادت بعد قليل وقد جمعت شعرها تحت منديل ، جلست بجوارى مباشرة فى هدوء لم أتوقعه . .

سألتنى بعد قليل . .

— . . . . صاحبه ؟

— لا .

دهشت للإجابة لحظة ، والتفتت إلى :

— من أنت ؟

كدت أتذكر لحظة بداية الزلزال ـ نفس السؤال يلقى بشكل آخر ـ فضحكت وأجبت وكأنى أجيب الأخرى كاتبة الإيصالات بتحد هذه المرة .

— أنا عبد السلام المشد . .

ضحكت حتى خيل إلى أنها لن تكف عن الضحك :

— تشرفنا . . .

— جار غريب أفندى أسكن هذه الشقة المقابلة .

— أنت زوج هذه السيدة التى كانت بالشرفة .

— تقريبا . .

— تقريبا ؟ أو أحيانا . . ؟ انتبه فالفرق مهم . .

— أنا زوجها والسلام . . وإن كنت لا أعرف لهذه الكلمة معنى . . .

— يبدو أنك تتفلسف مثل صاحبك إلا أنى سأتوبه عن كل هذا . . والعقبى لك .

لم أفهم ماذا تعنى ، ولكنى أحسست بانقباض حين تذكرت الهدف الأصلى من الزيارة ، أردت ألا أفوت الفرصة .

— فى الواقع أنى جئت هنا اليوم لأتبادل معه الآراء .

قالت وقد أشارت بيدها محذرة . .

— يبدو أن تبادل الآراء تمنع تبادل أشياء أخرى أهم .

منعت نفسى من أن أتمادى فى الشك ، إلا أنى جزعت من لهجتها على أى حال ...

حضر غريب وكان الصمت قد ساد إلا من طرقعة لبانة تلوكها فى فمها تحاول أن تخفى بها مشاعرها الطيبة الأخرى التى أحسست بها بالرغم منها...

جلس غريب يفرغ الحلبة فى الأكواب ، ولم أتردد فى فتح الحديث الذى جئت من أجله أمام ضيفته ...

— هل شغلتك مشكلة « الله » ياغريب .

نظر إلى فى ريبة وربما فى استهانة ولكن « صفية » انبرت وكأن السؤال موجه لها قائلة :

— سوف أحج إلى بيته بعد أن أتوب، على شرط أن أكون قد انتهيت من بناء الدور الثانى حتى آكل من إيجاره ، كل طوبة فيه بحبة من عرق هذا الجسد .

لم يرد الأستاذ غريب ويبدو أنه أراد أن يترك النقاش يستمر بينى وبينها حتى يلتقط أنفاسه ...

قلت لها :

—خيل إلى فى أحد مراحل مرضى أنى دخلت الجنة ، فلا حاجة للانتظار .

— مرضك ؟؟ كفى الله الشر ، أنت مثـل الحصان تستطيع أن تجر عربة كارو محملة بالنساء الذاهبات إلى القرافة .. ولا تعيق واحدة منهن .

حاولت أن أرضيها بيسمة شكر حاسمـة ، واستدرت إلى غريب ألح فى السؤال .

— ماذا تقول فى وجود الله ياغريب .

قال بعد أن أدرك إصرارى العنيد :

— هذه مسألة انتهيت منهـا من زمان ولا تستأهل أن أضيع فيها دقيقة بعد ذلك .

— ماذا تعنى ؟

— لا تضيع وقتك وابحث عن الحقيقة .

— خيل إلى فى الأيام الأخيرة أن البحث عن الحقيقة أصعب من البحث عن الله .

— الحياة لا تقاس بالأسهل والأصعب .. ولـكن بالأنفع ..

— الأنفع .. ؟ .. الأنفع لمن .. ؟

— للناس ..

ماألعن الألفاظ وأقساها ، كل الكلام متشابه ، ولا أحد يعرف ماذا يعنى.

قلت له بحسم حتى لا نتمادى فى المناقشات حول معانى الألفاظ ..

— كيف ؟

أطرق طويلا ثم قال :

— هذا ما أحاول البحث عنه .

— أين؟

— هنا .. وأشار إلى المكتبة .

سألته نفس السؤال القديم ..

— الحقيقة .. والله .. وما ينفع الناس بين صفحات الكتب ..؟

انتظر مدة أطول وكأنه يراجع نفسه بلا يقين :

— لابد أن نبدأ من هنا .

قالت صفية التى كانت تتابع المناقشة باهتمام وشغف لا تفسير لها وقد علا وجهها نفس البسمة التى تصاعدت إلى ضحكتها القوية :

— ..... ياجماعة لابد أن نبدأ من هنا .

وأشارت إلى موضع ما ...

* * *

الفصل الثامن

رق الحبيب

قبل أن أبدأ عملى بشكل جدى ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة أرسل لى المدير يستدعينى على غير توقع ، ملفاتى قد خلت من التأشيرات الحمراء منذ زمن ، وأحوالى الظاهرة لا يبدو عليها تغيير إدارى ، . ليس بينى وبينه علاقة خاصة فماذا هناك . . ؟ ذهبت إليه وأنا أدعو بالستر فلست فى حالة تسمح لى بالتساؤلات التى توردنى حقول الألغام المليئة بحسابات ليس لها آخر ، أنا أعيش هذه الأيام كالإناء المشروخ من الداخل وخوفى أن يمتد الشرخ إلى الخارج فى أى لحظة فيتهشم تماماً . . جرعة من سائل ساخن ، أو تلميحة جارحة ، أو احتكاك بالأتوبيس كفيل بأن أنتكس فوراً وأفضح .. ، فماذا أفعل وأنا بهذا الوضع مع المدير شخصياً ، ربك يستر . .

دخلت عليه متردداً ولم أحاول أن أسبق الأحداث فلم ينظر فى وجهى مباشرة . . ولكنه قام من على مكتبه واستقبلنى فى منتصف الحجرة حتى كاد يغشى علىّ من هول المفاجأة ، كان وجهه صارماً كالعادة .. إلا أنه بدا لى إنساناً أيضاً وخيل إلى أن وراء هذا الوجه الصارم قلب مثل قلوب الناس الأصلية قبل أن يصبحوا مديرين ، اكتملت المفاجأة لما دعانى للجلوس على الأريكة وجلس بجوارى — أخذ قلبى يخفق بسرعة هائلة من المفاجأة والحذر معاً — دارت بخاطرى شتى الظنون ، ماذا يريد منى فى هذا اليوم العابس ، ؟ أنا بى ما يكفينى ، ماذا صنعت على وجه التحديد ؟ وماذا لم أصنع على وجه التحديد . . . ؟

— أستاذ عبد السلام أنت رجل مؤمن .

يا نهار اسود .. من أين بلغه الحوار الدائر فى رأسى ، هل أفشى أحدهم السر ؟ ! هو الأستاذ أسعد ليس غيره ، هذه نتيجة من يسلم نفسه للهواة لعلاجه أو هدايته ، أسعد افندى يرد الإهانة التى لحقته بالاستخفاف بدعوته للدير ، ألم يقل لى لابد من حرب الملحدين ، لابد أنه علم مابى ، وها أنذا أمثل أمام محكمة التفتيش ، ماله سيادة المدير ومالى إن كنت مؤمناً أو كافراً ؟ ملفاتى سليمة وأوراق تعيينى مثبت فيها أنى مسلم ، حضورى منتظم فى الأيام الأخيرة ، هذا كل ما عندى له ، أمّا حكاية «الإيمان» فهذه من شئونى الخاصة ، وحتى هذه الحكاية لم أقصر فيها فأنا دائم البحث «عنه» فى كل مكان حتى عند الست صفية وعند غريب افندى ، سوف أتمادى معه على قدر السؤال حتى تمر هذه المسألة بسلام .

— الحمد لله . . . يا سعادة البيه

— هذا ما أعلمه فيك ، لذلك قررت أن أواجهك بنفسى . .

يواجهنى بنفسه لابد أنه أصدر قراراً خطيراً يحتاج أن يتنازل إلى هذه الدرجة وأن يطمئن على إيمانى قبل أن يلقيه فى وجهى ، شئ يتعلق بمستقبلى بلا شك ، تذكرت تهديد الأستاذ نصحى الذى تحايلت عليه ، يا ليتنى أطعت كلامه وبعت حلى زوجتى لأعالج بانتظام عند صاحبه حتى لو انتهيت إلى السكنى فى إحدى مدافن الشقق العصرية فى وادى الملوك مثله ، لعلى كنت قد رحمت نفسى من كل هذا الذى يجرى . .

واجهنى بنفسك وخلّصنى ، هاتها يا أخى والرزق على الله ، وهذا من فضل الإيمان كما تعلم ، لماذا تطرق إلى الأرض طويلا هكذا ؟

— أمرك يا سعادة البيه

— لا أمر ولا شيء كلنا إخوان . .

قالها وقد وضع يده على كتفي حتى كدت أرتجف ، ولكن يبـدو أن المسألة لم تصل إلى الفصل ، ربما بلغه مرضي فأراد هو الآخر أن يتطوع بعلاجي ، أو ربما تطورت حالتي حتى يلزمني معالج بدرجة مدير عام ، من أدراني ماذا قال له نصحي أو أسعد افندي بعد أن كفرت بإيمانهما معاً ؟ قلت في ثبات :

— لسنا قدر المقام ياسعادة البيه .

— لن أطيل عليك ، البقية في حياتك ، والدتك تعيش أنت ، جاءني تليفون الآن لأبلغك ثم انقطعت المكالمة ، وإني آسف .. والبقاء لله وحده .

قالها وقام واقفاً في شهامة وهو يشد على يدي في أسى صادق حتى حسبته سيبكي ، حاولت أن أبحث في داخلي عن التفاعل التلقائي في مثل هذه الأحوال فلم يسعفني شيء ، وكأن مشاعري كلها قد اختفت بشكل جماعي ، حاولت حتى أن أتذكر ما ينبغي أن يقال وأن أرد به في مثـل هذه الظروف حتى أظهر أمام الناس طبيعياً فلم أتذكر شيئاً ، فطافت بعقلي مواقف مختلفة لم أستطع أن أنتقي منها المناسب ، صراخ ؟ بكاء ؟ ؟ إغماء ؟ لطم ؟ لا أقدر على شيء من ذلك ، ماذا يقولون ؟ لابد أن يبدو عليّ أي تغيير بسرعة ، يقال إن شـدة الحزن تجفف الدموع لهول الخطب هذا هو الحل ... فلأتمادى في البـلادة وليكن ذهولي القائم هو التفاعل المفضل ، والحمد لله على الستر . .

انتهت ليد المدير في يدي ، أكملت السلام ، نظرت إلى الأرض وتمتمت ببضعة كلمات وهممت بالانصراف ، أمسك بي وعاد فوضع يده على كتفي ولم أعد أسمع ما يقول . . . . قدرت أنها مجموعة ألفاظ من تعبيرات المواساة والتشجيع ولكنها انتهت وهو يضع يده في جيبه ويخرج حافظته ويعرض علي

نقوداً تتعلق بالمصاريف و« الخرجة» وأشياء من هذا القبيل ، اعتذرت بشدة وخرجت شاكراً من قلبي فعلا ، لم أكن أتصور أن هـــذا المنصب يمكن أن يشغله من يحمل هذه الرقة والشهامة . .

مضيت إلى مكتبي أجمع أوراقي وما زال عقلي فارغاً تمـــاماً ، جاءني الأستاذ نصحي يسألني عن نتيجة المقابلة لما رآني صامتاً أجمع أوراقي وأضعها في الدرج .. نظرت إلى وجهه بنفور ، وفجأة أحسست أن عقلاى قد استيقظا معاً يريد كل منهما أن يجيب عليه مثل أيام زمان ، رعبت من هول المفاجأة، هل هذا وقته ؟ هل أمضي في ذهول حزين منـذ عدت من زيارتها حتى الآن ، ثم إذا جاء وقت الحزن بحق انقسمتُ هكذا من جديد . . وانطلق عقلي الساخر يحاول أن يرسم الناس وينطلق في سبابه ؟ .. حياتي بالمقلوب ، يظهر الحزن حين أطمع في الراحة ويختفي حين ينبغي أن أحزن ، وماذا أنا فاعل الآن ؟ والحصانان يتسابقان للرد على نصحي افندي ، ومن ذا منهما سيعامل الناس في البلدة ؟ وكيف ستمر ليلة المأتم وأنا هكذا ؟ وماذا أفعل حين أجد نفسي قد انفصلت عن كل شيء ، وركبت كوكبي الخاص ، وأمسكت بمنظاري أرقب حركة النمل الآدمي على الكرة الأرضية ؟

انتبهت إلى صوت نصحي يكرر :

— خير يا أستاذ عبد السلام ؟

وبدأت أرد على موجتين مثل زمان :

١ (عقلي) — والدتي تعيش آنت

٢ (عقلي بالى) — العقبى لك

قال في تأثر سطحي على قدر مايعرف ، إذ يبدو أنه فقد نسي التأثر الحقيقي من كثرة ملازمته لمدفنه المصري .

— البقية فى حياتك .

١ (عقلى) — حياتك الباقية .

٢ (عقل بالى) — ليس معى فكة .. خلى الباقى لك ..

استمر بلزوجة :

— أنت خير من يقابل « الواقع » بشجاعة .

١ (عقلى) — شكراً .. الحمد لله على قضائه .

٢ (عقل بالى) — واقمتك مثل الطين .. إياك أن تظن أن هذا من ضمن العلاج .

* * *

أقبل علىّ بقية الموظفين فى حماس وأسى يأخذون بخاطرى وأنا أتفرس فى وجوههم من بعيد وأرد عليهم الردود المعهودة، وعرض أكثر من واحد خدماته المالية ، وأخذ أحدهم تفاصيل عائلتى وأقربائى حتى يقومون بكتابة النعى وكنت أرد بطريقة جوفاء غير أنهم أخذوا كل المعلومات اللازمة دون تلكؤ وعارضت بشدة أن يصحبنى أحدهم مبدياً مختلف الأعذار ، مخفياً خوفى من الفضيحة ، شكرتهم ووعدتهم بإبلاغهم التفاصيل فيما بعد ..

أخذت تاكسى إلى المنزل وأنا فى أشد حالات الرعب من عودة اللعبة الداخلية فى هذه المناسبة ، لا أعرف متى تبدأ ومتى تنتهى ، هذه مصيبتى.. ، أنشق بلا تمهيد.. وألتحم بلا نذير، وحين أنشق تتراقص الدنيا أمامى بلا معنى، وحين ألتحم يركبنى الهم بلا حدود ، وباستثناء تلك اللحظات الرائعة التى أحسّ بى فيها عم محفوظ، فأنا ضائع بين الحالتين ، إلا أنى أحتاج للحزن الآن أكثر من أى وقت مضى فهو أقرب إلى مقتضى الحال ، ماذا أفعل أنا الآن بهذه المسخرة ، أريد أن ألحم داخلى ولو بنار الأكسجين إلى الأبد خجلا من أفكارى العابثة ..

حاولت أن أتذكر عطفها وحنانها وأفضالها ، تصورت مشيتها وجلستها ويوم أن ذهبت إليها وسعدت بى بعد عتاب صامت حنون، حاولت أن أجعل ذلك مجلبة لذرة من الأسى والحزن ، ولكن المشاعر كلها كانت تغوص منى داخل جب مظلم بلا قاع ..

وصلت إلى المنزل فوجدت زوجتى قد ارتدت رداءا أسود وأعدت العدة للسفر بلا إبطاء، لا بد أنهم أبلغوها فى نفس الوقت، داخلتنى درجة من الطمأنينة حين تذكرت أنها ستصحبنى إلى هناك وربما بذلك لا أضطر لتصرف شاذ تحت ضغط الوحدة والإرهاق، وفعلا كانت قد أعدت كل شىء واستأجرت عربة خاصة ولم يبق إلا أن أركب ..

قلت لها :

— البقية فى حياتك .

— حسك فى الدنيا .

حلوة هذه اللعبة ، كل حركة محسوبة ولها رد محسوب مثل افتتاحيات الشطرنج، إلا أن الدور ينتهى فى الشطرنج بعد أن يكش الملك ويموت، فلماذا تبدأ هذه اللعبة بعد إعلان الوفاة ، ولكنها مجرد افتتاحيات مبتورة ثم يمضى كل فى طريقه .

قال السائق :

— هذه حال الدنيا .

— ... الدوام لله .

يا حلاوة .. كم أنا شاطر مثل نابليون ، لو عرف الخدعة فسوف أبيت الطابية فى النقلة القادمة بحافظ كل اللعب، دون تعليم .. يولد الطفل وهو حافظ

لعبة الموت ، قبل أن يتعلم الرضاعة يلقنوه آداب النهاية ، لذلك فهو سرعان مايكف عن الضحك ولا تبقى إلا السخرية والقفل . . قلت له (لعقلى) : بالذمة هل هذا وقت الفلسفة واختراع النظريات العلمية الجديدة ، يا ويلى . . رجعت أواجه غربتى ووحدتى وشذوذى فى أدق مناسبة تحتاج إلى المجاملة والحديث اللبق ، نظرت إلى وجهى فى مرآة السيارة خشية أن يظهر عليه ما بداخله ، حاولت أن أنهى عقلى الآخر حين تصورت أن أحداً فى السيارة يمكن أن يسمع همسه ، ولكنه انطلق يغنى متحدياً :

« رق الحبيب وواعدنى يوم »

« وكان له مده غايب عنى »

كدت أقفز من السيارة خوفا واحتجاجا ، هل وصلت الأمور إلى حد الغناء ؟ ألا تكفى المسخرة الحشاشة التى لا تتوقف ؟ ، جعلت أحايله بشتى الطرق وأنا خجلان منه حتى كدت أذوب من فرط شعورى بالذنب ، ولكنى خفت أن ينتهزها فرصة ويظهر علانية ، ولم يكف عن الغناء .

أصبح كل همى أن تمر هذه المناسبة دون فضائح .

* * *

وصلنا البلدة وجدت كل شىء معداً ، ما أروع التعاون بين هؤلاء الناس أخبرونى بأنها كانت قد أعدت كل شىء قبل وفاتها : الكفن ، ومصاريف الجنازة وغيره ، وتسلمت كل ذلك من ابن أختها عبد ربه ، واتجهت إلى النظرات وكأنه ينبغى أن أعمل شيئاً محدداً واقفاً بينهم كالحائط دون حراك ، همس لى عبد ربه إن كنت ألقى عليها النظرة الأخيرة حيث الجميع ينتظرون قدومى لإتمام الإجراءات ، ملكنى الرعب وحاولت التخلص من هذه المهمة ،

ولـكنى فهمت أن الكل قد انتظر هذه اللحظة على أساس أنه لا بد أن تكون هذه هى رغبتى — وخاصة وأنا الإبن الوحيد الموجود ، أختى مع زوجها فى الصعيد ولن تحضر قبل المساء وأخى فى ليبيا وقد لا يحضر أصلا ، لا مفر من أن أفعل ما توقعوه تماماً ـ على الأقل بالنيابة عن إخوتى ـ دخلت وأنا أكاد أرتعد حتى تعثرت ، كشفوا وجهها فوجدته لم يتغير عن آخر زيارة باستثناء زيادة طفيفة فى الشحوب ، خيل إلىّ فجأة أنها تبتسم لى ، انفجرت فى البكاء بغير حزن ولـكن بلهفة طفل قرصه الجوع لما تأخرت الرضعة ، وما إن أحسست أن الأيدى تمسك بى حتى اندفعت أقبلها فى وجهها وجسدها ويديها والدموع تغمر وجهى وتبللها ويغمرنى مع ذلك شعور بالاحتجاج بأنها ذهبت قبل أن تجىء ، تـكاثرت الأيدى علىّ حتى أبعدونى وبدأت أميز الصيحات حولى « وحد الله » « الله أكبر » « أذكر ربك واستغفر » وتعالى « صوات » النسوة فى صحن الدار .

* * *

استرخيت على الـكرسى الذى وضعونى عليه ومسح بعضهم دموعى ، هذا شىء لم يحـــدث لى فى حياتى ، لا أذكر أنى قبلتها هكذا أبداً ، وفجأة عادت نفس الأغنية تتردد فى عقلى . .

« ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت اقابله »

« هنيت فؤادى على نصيبى بالقرب منه »

كدت أقوم كالملدوغ خشية أن يسمعنى أحـد ، فسحبونى ، أريد أن أذهب ناحيتها مرة ثانية ، فتجمع علىّ أربعة رجال أشداء ينظرون إلىّ بشفقة وتقدير ، تطلعت فى وجوههم فرجحت أن ما فعلته قد قوبل بالاستحسان إذ

يبدو أن ذلك كله يعتبر من مظاهر الحزن العميق ، صافحت سمعى بعض التعليقات التى أكدت لى ذلك ؛ « ابن حلال » « كان قلبها حاسس» « نادته فى المنام » « ماتت وهى عنه راضية » .

كانت هذه الكلمات تصل إلى فتطثننى أن تصرفى مازال حتى الآن فى عداد المعقول ، بل يبدو أنى تفوقت عما ينتظرون ، أخذت أجتر كلمتهم الأخيرة أنها « ماتت وهى عنى راضية » ، وأسترجع البسمة التى لمحتها على وجهها ، فيغمرنى سكون رائع .

* * *

مضت الدفنة وليلة المأتم والأيدى تتناولنى من المقابر إلى الدوار ، ومن هذا الكرسى إلى ذاك وما على إلا أن أقوم واقفاً إثر كل فترة تلاوة ، وعن يمينى عبد ربه وعن يسارى ابن عمها سيد أحمد الباز ، ونسلم على الذاهبين متمتمين بتلك الكلمات التى تبينت أنى أحفظها عن ظهر قلب ، وحين انتهى كل شىء وذهبت إلى الدار وجدت خالتى أم عطية فى انتظارى ، انتحت بى جانبا وناولتنى قطعة قماش ثقيلة الوزن وقالت فى همس بصوتها الذى مازال مبحوحا من كثرة النواح .

— أوصتنى المرحومة أن أعطيك هذه الأمانة فى السر .

أخذتها بتردد ولم أنبس ..

أكملت حديثها وهى تناولنى مثلث صغير مغطى بالقماش أيضاً .

— وهذا الحجاب أيضاً كانت قد صنعته لك بعد الزيارة الأخير ، وقد أخذت أثرك دون أن تدرى حين نسيت منديلك هنا ، وهى توصيك ألا تدعه من بين ملابسك حتى يفك الله ضيقك .

لا أذكر أنى حدثتها عن ضيق ولا عن أى شىء ، لا شك فعلا أنها ماتت وهى راضية عنى ..

حمدت الله واستغرقت فى نوم هادىء والحجاب تحت جنبى حتى مطلع الشمس .

* * *

انقضت أيام الحزن حتى الأربعين وزوجتى ترعانى بطريقة جديدة لعلها قصدت أن تعوضنى بها فقد أمى ، ولكنى لم أتقبل هذا الموقف ببساطة بل زدت حذراً وتوجسا ، كان كل همى ألا تلاحظ على التبلد الشامل ، فاضطررت إلى تقبل هذه الرعاية المفرطة بحس بارد ، ولكن دون رفض علنى ، ولم أشعر أنها تستطيع أن تعوضنى عن حنان أمى فأنا لا أعرفه أصلا وهى لا تملكه أيضاً ، وظللت أتساءل : ماذا تريد هذه المرأة هذه الأيام ؟ ..

لم تقف الأمور عند هذا الحد فما كاد الأربعين يمضى حتى أخذ اقترابها منى يأخذ شكلا حسيا أربكنى فى أول الأمر ، ثم أرعبنى لما فكرت فى معاودة جهاد السرير ، كنت قد اعتدت أن أنام معها بلغة صامتة ، وكنا نوفق أن نتفاهم بها فى أغلب الأحيان ، وحتى الفترة العصيبة التى مرت بى فى تلك الأيام التى كدت أفضح فيها أثناء الليل كان ذكائى يحول بينى وبين إعلان الفشل ، حيث كنت أتجنب أى اختبار حقيقى فألتمس العذر حتى أسهى نفسى وأعملها من وراء وجدانى وجه الصباح ، أما الآن ، فإنى أحس أنى مقبل على أيام عصيبة لا أعرف إلى أين سوف تذهب بى .

– مالك ياعبد السلام ؟

قالتها هذه المرة بطريقة أخرى ، خيل إلى أنها أقرب إلى الاتهام ، فأحسست أن مصيرى قد اقترب تحديده ، ولا فائده من التأجيل .

— خير إن شاء الله .

— هل مازالت المرحومة مؤثرة فيك إلى الحد ياأخى ؟

— الأعمار بيد الله .. والحى أبقى من الميت ..

— ... لكل شىء نهاية .. وكفانا حزنا حتى نرحمها فى قبرها

أيقنت أن على أن أرد عليها هذه الليلة بالذات رداً عملياً ، كان العشاء معداً بطريقة صريحة ، وقد خلعت ملابس الحداد بعد الأربعين وبدت لى جميلة فعلا كما قالت الست صفية ذلك اليوم ، أحسست برغبة فيها ففرحت بذلك وتوقعت أن تنمحى شكوكى وشكوكها بعد دقائق .

لست أدرى لماذا أصرت هذه الليلة أن يظل نور «الأباجورة» مضاءاً كل الوقت وقد اعتدنا إطفاءه ، كنت كلما نظرت إلى وجهها وهو يشرق بالرغبة ويزداد جمالا كلما خفق قلبى رهبة وخوفاً ، أكاد شعر أن بها شيئاً جديداً صريحاً واعيا ، لمست وجهها بيدى لأتأكد من أن الأمر ممكن فإذا بى كأنى أتعرف عليها لأول مرة ، لم أصدق أن هذه المرأة بلحمها ودمها ورغبتها هى زوجتى حقيقة وواقعا ، لم أتصور أنى أنا شخصياً أنجبت منها أولاداً ، اقتربت منها بشهوة لا تخفى ، حاولت أن أقبلها فى شفتيها ولكن خيل إلى أن ملامحها تتغير فارتددت خائفا من مجهول ، لابد من التقدم وليكن ما يكون .. فجأة رأيت وجه الحاجة فتحية والدة أمانى يحل محل وجهها ، انتفضت كالملدوغ وأحسست ببلل يملؤ وجهى حتى أخذت أتحسسه لأتأكد أنه خال من البصاق .

وقع المحظور وانفصل جزء من جسمى عن إرادتى ، أخذ العرق يتصبب منى بشكل ظاهر ، أطفأت النور أملاً فى إحياء الموتى بتعاويذ الظلام، ولكن دون جدوى ، بدأت أرتجف بعنف ، أدركت هى أن الأمر أصبح خارج قدرتى ، أخذت تهدىء من روعى وتؤكد لى كاذبة أنها حالة عارضة ، وأن هذا الأمر هو آخر ما يهمها لأنها لا ترجو إلا صحتى وسعادتى .

* * *

عادت إلى ذاكرتى كل تلك الفترة التى كانت قد اختبأت فى مكان ما بين طياتها ، وياليتها ما عادت ، حين انفصل عقلى إلى عقلين استطعت أن أتغلب على الموقف بالصبر والحوار والتحايل والسخرية حتى مضيت فى سردابى السحرى دون أن يلحظنى أحد ، ولكن كيف السبيل الآن وقد انفصل جسمى عنى علنا وأمام شهود ممن «يهمهم الأمر» ، ومع هذا الفشل الذى لا جدال فيه استيقظت فىّ كل المشاعر الشبقية العنيفة التى كانت قد اختفت مع ما اختفى من مخزون ذاكرتى ، وعادت تأتى فى نوبات متقطعة حتى أنى فكرت فى أن أزور الحاجة فتحية وابنتها أمانى بمقلّى ، واحد للاعتذار وآخر حسب مقتضى الحال .

كنت أتعجب لهذه المشاعر التى تغمرنى طوال اليوم ثم يعجز منى سلاح رجولتى حتى الموت إذا ما حلّ الليل ، ويبلغ أقصى عجزه كلما ازدادت زوجتى جمالا وحيوية، ولكنى يئست تماماً بعد تكرار المحاولات وتكرار الفشل حتى كدت أتحايل لأنام وحدى على الكنبة العربى لولا أننى أحسست أن هذه الخطوة بمثابة « إعلام شرعى » لوفاة جزء منى، وقدرت أن هذا سابق لأوانه .

خيل إلى أن هذا الجزء يتحدانى قصداً ويريد أن يحطمنى أو يشهر بى ، فلو أنه مات طول الوقت لا سترحت وبحثت عن تفسير طبى ، إلا أنه كان يزعجنى فى الأتوبيسات والأماكن العامة بيقظة لا مبرر لها ، ثم يموت بلا حراك عند الحاجة إلى خدماته ، والمصيبة الأكبر أن الرغبة لم تسكن ترحمنى ليلا أو نهاراً ، إلا أنى لم أعد أتحسس وجهى حيث مكان بصقة الحاجة فتحية ، كلما عاودتنى الرغبة مثلما كنت أفعل فى الأيام الأولى من استعادة الذكرى .

لم أجرؤ على مناقشة هذه المصيبة مع أحد ، حتى زادت حالتى وأخذت أصارع وحدى ما بين الرغبة النارية والموت العاجز .

من ياترى يستطيع عونى هذه المرة ؟

خجلت حين خطر ببالى عم محفوظ ، فعلى قدر حاجتى له على قدر خوفى منه ، حتى تفاهمنا فى صمت عندما حضر للعزاء على ألا نلتقى حتى يحدث شىء جديد ، وقد أحسست برقته وصدق حسه حين بدأ يرسل صبيه بدلا منه ، ولكنه لا ينسى أن يرسل لى السلام وأرد دائماً بالشكر والدعاء .. ومع ذلك فهو الذى خطر على بالى أول ما فكرت فى العون ، وأرجع أقول ماله هو بهذه المسائل ، وكيف أقابله بعد ذلك لو عرف سرى الخاص .

أما نصحى افندى فلا جدال عندى فى ما يمكن أن يقوله فى مثل هذه الأحوال ، فسرعان ماسيسترجع أساطير إغريقية عن أوديب الملك وغيره ليثبت لى أنى أريد أن أضاجع أمى وأخاف من أب أو أغار منه إلى آخر هذه القصة التى ذكرها لى فى مناسبات أقل من هذه وضوحاً ، وقد حاولت أن أبحث

عن تفسير لحالتى من خلالها وأخـذت أسترجع صورة أبى ، والحاجة فتحية وأمى وزوجتى ، وأن أربط بين الأحداث ربطاً تحليلياً مسلسلا تعلمت بعضه من نصحى أفندى حتى كاد يخيل إلى أن العقدة قد حلت وفهمت كل شىء ، ولـكن اختبار المساء يطلع لى لسانه بلا رحمة ، وكنت أقول أنه لا ينقص هذا التفسير إلا موقف أبى، فأحاول أن أسترجعه وأن أعطيه دور المنافس المغوار ولـكنى أجده دائماً جالساً يتمتم بورده ويهز جسمه تلك الهزات الرتيبة التى لا تتوقف إلا لينقل عدّاد مسبحته ، وكان يبدو لى على هذه الصورة زاهداً فى المُلك والملِكة ، ومهما يكن من اقتناع عقلى وقوة منطقى وسلامة تحليلى فقد كان لزاماً أن اقنع ذلك المتمرد فى أحشائى .. ولـكن كيف السبيل ؟ .

فـكرت أن أذهب لأخصائى الأعصاب ، إلا أن أعصاب هـذا الميت ليس فى متناولها شك — ولـكن فى غير أوقات العمل الرسمية .

وذات مرة راودنى الشك فى طبيعة الحجاب الذى أعطيته لى خالتى أم عطية ، وكدت أتهمـــه بالقتل ، ولـكنى سرعان ما طردت الفـكرة لما لم أجد لها سبباً وجيهاً يبرر سوء النية ، ومع ذلك فقد خلعته بضعة ليـال وتركته فى المـكتب ، ولـكن دون جدوى أيضاً .

وتزيد الأزمة احتداداً فأتذكر اللفة الأخرى التى اخفتها فى مكان سرى بالبيت بما تحوى من حلى ونقود ، وأتمنى لو كان هناك علاجاً سرياً يأخذ كل مالى مقابل أن أستعيد رجولتى .

ويخطر فى بالى احتجاج خطير يهـددنى بأنه حتى لو استعدت رجولتى ، فـكيف سأجمع بقية أجزائى ، ويذكرنى هذا بالأيام الأولى التى كنت أهيم

فيها على وجهى رغم قيامى بالنشاط الرجولى على الوجه الأكمل ، فياليتنى أرجع رجلا يقوم بتدبير مشاكله فى سردابه السرى بقية حياته ، شريطة ألا يتعرض لمثل هذه الفضيحة .

بدأت أتجنب لقاء زوجتى ، وأحسب لغضبها ونظراتهـا ألف حساب ، وصرت أسىء تأويل أى اختلاف بينى وبينها ، وضاقت بى الدائرة حتى قررت أن أستعين برأى الأستاذ غريب من طرف خفى ، فما زلت أذكر تلميح صفية فى أن تبادل الآراء قد يعوق تبادل أشـياء أخرى ، وقد عودنى غريب أنه سبّاق إلى المصائب ، فلابد أن عنده خبرة « مجرب » على أقل تقدير . .

* * *

— أهلا يا عبد السلام . . أين أنت منذ وفاة المرحومة .

— لا أحب أن أشغل وقتك دون مبرر

— وهل وجدت المبرر ... أم وجدت الله ؟

ذعرت من هذه السخرية حتى كدت أعدل عن الحديث معه .

— لقد تعبت من هـذا البحث ثم إنه قد فرضت علىّ مشاكل عاجلة تتعلق بأشياء ملموسة .

— انا أومن ـ كما تعلم ـ بالأشياء الملموسة ، والحقيقة ، إذا وجدت ، فلا بد أن تـكون ملموسة ، هكذا تقول قوانين المـادة الأزلية .

تعمدت أن تمضى فترة صمت حتى لا نستمر فى النقاش الأجوف ثم قلت له مغيراً الموضوع بلا تفسير :

— جئت أسألك هل ما زالت صفية تزورك أحياناً ؟

امتقع وجهه وبدا كأنه لم يتوقع السؤال :

— ولماذا السؤال ؟ ... هل اشتقت إليها فى هذه الظروف الحزينة .

الهجوم خير وسيلة للدفاع ، وقد بدأ بإشعال النور الأحمر فى الجملة الأخيرة

— تخطر على بالى بين الحين والحين ، كان فى وجهها طيبة وفى قلبها ألم لا ينسى ، رغم وقاحتها المصطنعة .

— لم أرها منذ زمن ، وهى تحضر عادة دون طلب منى .. ولا استئذان .

قلت فى غيظ منه وهو يدعى الثقل :

— هل تحضر لتزودك بالثقافة كلما أحسست بالجهل الحاد ؟

بدا الأمر وكأنه تحقيق سرى ، وكاد الجو أن يتكهرب ؛ قال :

— المجتمع هو المسئول عن هذه الضحايا . .

قلت له وقد بدأ يستفزنى بحكمته الزائفة وكأنى ما جئت إلا لأتشاجر معه

— وهل بدأتَ فى المساهمة فى رفع الظلم عن الضحايا

حمل الأمر محمل الجد وأجاب بحماسه الفاتر :

— لا سبيل إلا بعد العثور على نظرية شاملة

— ولكنك تؤمن بالفكر المادى كما تقول

— لم يعد يكفينى بعد مادرست ، ما زال التطبيق هو مشكلة المشاكل

— قد تمضى حياتك هاهنا بين الكتب لا يدرى بك أحد ولا تدرى بأحد.

— هذا أفضل من الخداع والتضليل .

— ألا تساهم فى زيادة عدد الضحايا بهذا الانسحاب المزركش .

بدأ تحفزه ليرد لى الصفعة حتى خفت ، ولكنه تراجع قائلا :

— لست فى حل أن أسألك وماذا فعلت أنت ، لأنى أتحمل مسئولية انسحابى وحدى بغض النظر عن موقفك .

أدركت أننا ندور فى نفس الحلقة التى بدأناها منذ شهور، فلا هو ينوى أن يسمع ، ولا أنا أفعل شيئاً غير الاختباء وراء هذه المشاعر المتناقضة التى يسمونها «المرض» أحياناً ، ولا جدوى من استمرار النقاش بهذه الطريقة .

رجعت إلى الموضوع الأصلى من طرف خفى :

— لم لا تتزوج يا غريب . ؟

امتقع وجهه أكثر وحسب أنى قبلت لعبة المعايرة ، ولم يجبنى إجابته الساخرة الأولى .. « هل عندك عروسة » ولكنه قذف إلىّ الكرة :

— وهل أنت سعيد فى زواجك ؟

تمالكت نفسى وعدلت نهائياً عن طلب معونته .

— أجد من يرعانى على كل حال .

— أنا لا أحتاج لمن يرعانى ، أنا كفيل بنفسى .

لم أجد مجالا لإطالة الحديث ، فانصرفت شاكراً .

يا ترى هل مات عنده أيضاً هذا العنيد.. أم أعلن الاستقلال والانفصال بصدق شريف .

* * *

لابد من حل

هذا أمر لايمكن السكوت عليه

أخذت أفكر طول الوقت فى مخرج من هذا المأزق حتى راودتنى فكرة الطلاق .

بدأت لا أطيق رؤيتها وأكره جمالها وحيويتها ، وساورتنى الظنون أحيانا رغم ثقتى بخلقها ، إذ من أين لها أن تصبر على هذا الحال.

وذات يوم ، وكنت فى الحمام عاودتنى أحلام المراهقة وتعجبت ليقظة هذا العضو الميت حتى أغرانى بمعاودة العادة القديمة ، وتعجبت للذة التى صحبتها رغم الخزى والصغار اللذين أحسست بهما أبعدها ، ولكن هذا الشعور اختفى بالتعود على هذا السبيل الجديد ، وخطر فى بالى مرة أن أدخل الحمام قبل الاختبار الحقيقى أثناء الليل ، استعداداً واكتساباً للثقة ، ولكن الأمر كان ينتهى قبل أن أصل إلى باب حجرة النوم .

لابد من حل..

واسترعى بصرى لافتة ضخمة لإخصائى فى التناسليات وقررت أن أستشيره مهما كانت العواقب

لاأستطيع أن أصف هذه الخبرة الغريبة التى فرضتها على الأيام . فبالرغم من تأكيده لى أن أعضائى سليمة إلا أنه نصحنى بجلسات كهربية تدفىء مقعدتى وتدليك عجيب الشكل ، ومازلت أخجل كلما استعدت ذكرى هذه العلاجات الغريبة ، فبالرغم من نفورى الشديد منها أول الأمر إلا أنى

لا أستطيع أن أجزم لم كنت أواصل الانتظام فيها ؟ هل لمجرد الأمل في الشفاء ، أو لأنى كنت أجد فيها شيئاً آخر أقرب إلى اللذة الخفية ؟ ،

وبعد انتهاء التجربة بلا فائدة كان لا بد أن أسأله :

— ما العمل الآن .

— قلت لك من الأول أعضاؤك سليمة ولكنك رفضت استشارة طبيب نفسى .

قلت متخابثاً حتى أجد مبرراً للهرب

— ولكن نفسيتى ليس بها خلل

— هذا العجز .. هو جزء من نفسيتك .

تذكرت كلام نصحى أفنـــدى عن الثعابين والإغريق ، فسألته فى حذر :

— وهل الطبيب النفسى غير المحلل النفسى وغير طبيب الأعصاب ؟

قال فى ثقة :

— كل شيخ وله طريقة

يا ليته مالوّح لى بهذا الأمل الجديد ، ولكنى متأكد أنه لا يعنى مايقول فماذا فى العلاج إلا هذا أو ذاك ، فإما أقراص وإما تحليل ، هذا كل ما هنـاك .

شكرته وانصرفت وأنا فى عزمى أن أطفىء أى شعاع جديد ، وليكن اليأس هو الواقع .

* * *

تردد فى عقلى وأنا أنزل درج السلم من عنده نشيد الدوّارة الذى كنا نردده فى الابتدائى :

« دار الصف

لفُّـوا لفُّـوا

لفّ القيد

قيدى وافى ؟ »

* * *

الفصل التاسع

الأرض السابعة

إذا كان الله موجودا ورحمان ورحيم - كما تقول يا عم محفوظ - فلابد أن تنشق الأرض وتبتلعنى دون نذير ، إذ لا يمكن أن يتحمل إنسان كل هذا الخزى والعجز . فكرت فى الاختفاء بكل وسيلة ، هدانى تفكيرى إلى السعى للعمل فى إحدى الدول العربية مثل خلق الله الذين يعارون دون دافع إنسانى الاختفاء مثلى ، سأكتب إلى أخى فى ليبيا ولن أعدم حجة تبرر ترك أولادى وزوجتى هنا ، وبذلك أهرب من المواجهة ولو إلى حين .

نظرات زوجتى تلاحقنى وتضيق علىّ الخناق ، حتى جاء اليوم الذى عملت له ألف حساب حين تجرأت وحدثتنى فى الموضوع مباشرة :

— أرجو ألا تسىء فهمى .

فلتهبط السماء على الأرض قبل أن تعايرنى صراحةً هذه الكتلة من اللحم الأبيض .

— خير إن شاء الله .

— لقد بحثت الأمر ودلونى على من « يعرف » .

قلت فى نفسى : وقع المحظور ، دلوك على من يا امرأة ؟ هل أصبحتُ موضوع حديث الصالونات النسائيــة ؟ لم يبق إلا أن أنزل إلى الشارع فيشيرون إلى بالأصابع أنى لست رجلا ، من الذين دلوك ياست هانم ؟ هل نسيت كل ما أمتعتك به قبل ذلك ؟ طال صمتى حتى أكملت حديثها:

— قالوا لى أن هذه مسائل بسيطة ولابد أن بعض من يحقد عليك

من بلدكم من أهل الشر ساءه أن ترث طين المرحومة فاستكثروا عليك النعمة رغم أنهم فدّانين « عُمى » ، فأطلقوا أحقادهم القديمة ،وخافوا أن تتدخل فى إدارة الأرض بعد وفاتها، فصنعوا لك هذه المكيدة حتى يتعسونا ويشغلوك عن مصالحك !

ياصلاة النبى : كلام مثل الجد ، قصة محبوكة ، ومؤامرة مدبرة ، قلت فى غيظ لا أملك غيره :

— ماذا تعنين ؟

— يسمونه « الربط » .

وهكذا أصبح له اسم جديد ،كان يسميه الأستاذ نصحى القلق ، وأسميه أنا الزلزال ، والآن تساهم الست هانم فى الأسماء وتسميه « الربط » ، أنا لا أعرف هنا إلا ربط الميزانية ، فما هذا الأسم وارد بلدنا الذى تتكلم عنه الآن ، ويتردد نشيد الدوارة فى عقلى :

« لف القيد .

قيدى وافى . »

وهاهم أولاء قد ربطونى حتى لاأقربك ياست الحسن والجمال،وتفجرت حيويتك فى هذه السن بلا مناسبة ، وبدأت خلاياك تنفتح بلا حساب ، وتريدين أن تغترفى من بحر اللذة بلا حدود قبل أن يفوت قطارها ، لامفر من التمادى فى الحديث .

— وما العمل ؟

— سمعت عن بعض ممن يفكون الربط فى جلسة واحدة ، سيدة سودانية تعمل المعجزات .

إذا خالتى تحتاج إلى « معجزة » من السماء ، الله يلعنك يازمان ، وقد أصبحت بالهم . . ، لا مفر من أن يقول الأسد للكلب ياعم . . ، أين المهرب . . أين أخدود اللانهاية . .

— هذا حقك ياستى ، وليس لى أن أعارض ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك دون فضيحة .

— لا أخشى شيئا فهى سيدة فاضلة تدخل البيوت لترى الطالع وتشفى الأمراض ، ولا أحد يسأل عن تفاصيل عملها ، وكلهم يعتبرونها بركة .

آه لو تعلمين أنى كدت أن أكون بركة أنا أيضا ، واسألى عم محفوظ ، وربما كان هذا هو نهاية المطاف ، أمشى فى حب الله مثل عبد الستار النجار ، أدخل البيوت أساهم فى حل مشكلة العقم بطريقتى الخاصة بعد أن تفكوا قيدى بإذن الله .

أحسست بمهانة ، لا توصف . وملأنى شعور بالكراهية نحوها ليس له مثيل ، وفى نفس الوقت دبت فىّ شهوة عارمة يصحبها شعور بالقتل ، وتحفزت للتجربة بتحد وقسوة ، وتذكرت خيالاتى فى الحمام أثناء ممارسة اللذة الذاتيّة ، وكيف تدور فى كثير من الأحيان حول إحدى السودانيات التى لا يحتاج صدرها إلى رافع ، ولا يحتاج إشعالها إلى ثقاب ، سال لعابى حين وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير ، وتوقعت مفاجآت سارة لو أطلقت لجنونى العنان .

قلت فى استسلام خبيث .

— هاتيها ، ولكن حدثينى عن التفاصيل .

— أبدا .. تحضر وتأخذ « الأثر » وتقرأ بعض ما تعرف ، ثم تنفرد بنفسها فى حجرة مغلقة ، ويقولون أنها تتعرى تماما حتى يحضر خادما من خدام السر ، فتطرد الشياطين بإذن الله .

ولماذا يحضر خادمها ياست هانم وأنا خادمها بإذن الشيطان ، أنت لا تعرفين شيئا عن نشاطى السرى فى الحمام ، وربما كنت أنت السبب فى كل هذا — بشكل ما — كم أبغضك وأنت تمثلين منظر البريئة المجنى عليها، منذ ماتت أمى وأنا أخاف منك دون سواك ، قال لى الأخصائى أن أعضائى سليمة ، ولكنه لم يقل لى أنك أنت سليمة ، أخاف من الاقتراب منك أنت ، وهأنذا أتبين نوازعى بعد أن ثار جنونى نتيجـــة لامتهانك لى وتحديك ، أخاف من شهوتك الوقحة ، أخشى أن أبيع لك نفسى دون مقابل ، أخشى أن تطلبى حياتى مقابل رضا شيطانك ، أخشى أن أدخل فيك فلا أخرج أبدا ، هذه هى الحكاية كما أضاءهالى عقلى الآخر الذى يحلو لكم أن تسمونه جنونا فيغيظكم بالنوم فى الخط بلا حراك .

كانت هذه الأفكار تدور فى رأسى وأنا أرتعد أمام هجومها المتلاحق، وحيويتها التى دبت فيها فجأة تهددنى ، ولم أعد أستطيع التعرف على طبيعتها الحقون وتقبلها الصامت وكأنها كانت مجرد خيالاتى الخاصة .

هل كان ينبغى أن أجرب نفسى مع غيرها ؟ ولكن ماذا لو فشلت وتخطت الفضيحة أسوار البيت ؟ وماذا لو نجحت مع غيرها فزاد فشلى معها ؟ ما باليد حيلة سوف أستمر فى هذه المغامرة ، وشعور يخامرنى أنها ستدفع ثمن تطاولها بشكل ما ، قلت فى نشوة متحدية .

— وهو كذلك .

* * *

جاءت فى اليوم الموعود ، هى هى كما تصورتها فى خيالى ، حول الأربعين ولكنها هى ، كنت مليئا بالتحدى والرغبة واليقظة ، أخـذت أنصت إلى ما تقول وأنا أكاد ألتهمها ضاربا عرض الحائط بكل ما تقرأ من آيات قرآنية وتعاويذ غير مفهومة بدأت بالنظر إلى نظرة أعرفها تماما ، تحمل إشعاعات عميقة ، ولكنها لم تصل إلا إلى الأرض الخامسة ، لم أهتز ولم أغض بصرى ونفذت إلى أعماقها أسرع منها وأكثر ثقة ، وصلت إلى أرضها السابعة وما بعدها ، اهتزت تحت هجوم نظراتى حتى كادت تترنح ، بدأت تحاول أن تتجنب اقتحامى ، التقينا فى ثوان وانتهت المعركة قبل أن تبدأ ، أنا أكثر منك جنونا يا امرأة ، هات ما عندك وتعالى معى إلى السماء السابعة ، ملكنى شعور طاغ بالزهو والامتلاء ، ما أروع قوة الجنون السرية ، استمرت فى همهمتها وقد بدا عليها الارتباك وظللت أنا ثابتا كالطود، واثقا من تفوق ورجولتى تقتى من جنونى ، ألقيت نظرة على زوجتى ملؤها الحقد والتشفى ، انتقلت إلى الخطوات التنفيذية ، فعاودت النظر إلى المرأة بلا رحمة ولا تردد، يبدو أنها أدركت نواياى تماما ، ارتعدت أكثر ولم ترد ، اهتزت هزة خفيفة لا تخلو من أنوثة بالرغم منها ، ولو سمح لون بشرتها للاحظت زوجتى درجة احمرارها .

قلت فى وقاحة :

— ماذا تقولين ؟

— يبدو أن حالتك مختلفة .

— أسوأ أم أحسن ؟

— أخطر .

انزعجت زوجتى وبدا أنها على استعداد لعمل أى شىء حتى تنجح المهمة ، لم أتوان فى انتهاز الفرصة وكنت أتصرف دون تفكير مستغلا حرص زوجتى على فك رباطى ، قلت :

— إذا كانت الحالة بهذه الخطورة ، فلاداعى للمغامرة

قالت زوجتى فى انزعاج :

— لاتتعجل ولاتخف وسوف يأتى الله بالفرج .

الفرج يا أيتها الأتان سوف يكون على عينك ياتاجر ، قلت فى خبث ريفى أصيل :

— أنا على استعداد لأى شىء ، حتى للدخول معها إلى خلوتها إذا كان ذلك ضروريا لتخليصى منهم .

أطرقت المرأة وقد بلغتها الرسالة ، وحاولت أن تسيطر على مشاعرها قدر الإمكان ، ثم نظرت إلى زوجتى من طرف خفى فواصلت الهجوم .

— إلا إذا كانت حالتى ميئوس منها إلى الأبد

قفزت زوجتى - كما توقعت - ترجوها أن تفعل أى شىء ..أى شىء فيه « الصالح » ، حاولت أن أطمئنها بخبث فواصلت .

— أنا تحت أمــرك .. والله معنا وأظن أنه لاداعــى للتعرى فى هذه الحالة .

نظرت إلىّ المرأة فى تعجب واستسلام معاً ، ولكن رغبة الانتقام كانت قد استولت على، وقررت ألا أتراجع مهما كان الثمن فقلت متصنعاً :

— أخشى أن يصيب بعض الآخرين أذى من تحت الأرض إذا ماحضروا « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ردت زوجتى فى حماس :

— الأولاد فى المدارس ، والبنت صرفتها ولن تعود الآن ، عملت حسابى خوفاً من الشوشرة .

أطمأنت المرأة ولكنها نظرت إلى الأرض وقالت وكأنها تسألنى :

— والست هانم ؟

تأكدت أن الخيوط كلها فى يدى فقلت وكأنى أنا الذى أتولى مهمة إخراج الشياطين :

— تلزم حجرتها وتقرأ القرآن وتدعولى ، والله يحفظها من كل شىء .

استأذنت زوجتى فى رضا وابتهال وذهبت إلى حجرتها ، وقامت المرأة إلى الحجرة الأخرى وهى ترتعد وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، تبعتها وكنت واثقاً من كل ماأعمل ثانية بثانية وكأنى أعددت كل شىء من قبل .

أحكمت إغلاق الباب واتجهت إليها فى صمت ، لاتستطيع أن ترفع عينها فىّ ، ألاحقها بنظراتى فتنهزم بلا مقاومة فأمتلئ قوة ممزوجة بالفخر و النصر والجنون ، وأحسست أنى أستطيع فى هذه اللحظة أن أصهر الحديد .

قالت وصوتها يرتجف بالخوف والرغبة :

— ماذا تريد منى ؟

لم أرد وازددت اقترابا ، فقالت :

— من أين طلعت لى اليوم ؟

— أنت تنتظرينى من زمان

قالت وكأنها قد ضبطت متلبسة :

— أنت إبليس ذاته

قلت فى فخر

— أنت تريديننى هكذا ، فلن يغرقك فى بحر اللذة المجنونة إلا من هو أجن منك .

— لاحيلة لى معك

ساد الصمت ولم أبد حراكا ولا تعجل وكأنى أتمتع بمشاهدة هذا الأبنوس الحى وهو يغلى رغبة وغيظا ، وانتظرت حتى يسيح انصهاراً

قالت وكأنها تصيح :

— هيا وخلصنا

. . . . .

. . . . .

قالت لى وهى مازالت تتفصد عرقا وتحاول أن تفيق من شبه الغيبوبة

— من أنت ؟

قلت ومازلت فخوراً بدرجة جنونى:

— من أنت ؟

طأطأت رأسها وقالت وكأنها تحدث نفسها

— ما كان لى أن أستسلم لك ولن أغفر لنفسى ماحييت ، سوف استغفره مابقى لى من عمر أنى لم أستطع مقاومتك .

قلت ومازلت فى نشوة جنونى

— رحمة الله وسعت كل شىء !!

قالت فى قوة جديدة لا تتناسب مع استكانتها السابقة .

— اخرس يا شيطان .. كفى ما كان .

اهتززت لأول مرة منذ بدأ اللقاء النارى، وتسرب إلى إحساسى صوت كيانى يتشقق من جديد وكأن الصوت قادم من أغوار بعيدة، ولكنه يتزايد فى هدوء ، أحسست أنى أعود من آخر الدنيا مسحوباً على وجهى ولم أستطع أن أستجمع قواى لأقرر ما ينبغى أن أنهى به الموقف ، اندفعت بسرعة إلى الباب ومضيت من فورى إلى حجرة زوجتى فوجدتها ما زالت تقرأ القرآن، ارتميت على السرير ورأسى فى حجرها وانفجرت فى البكاء ، غمرتها المفاجأة فاحتوت رأسى بين ساقيها وأخذت تملس على ظهرى وتتمتم بآيات الكرسى، زادت رجفتى حتى بدأ السرير يهتز كله ، رفعت رجلى على السرير وانكمشت حتى كادت قدماى تلامس ذقنى وما زلت أرتجف بالرغم من انقطاع البكاء ، سحبت زوجتى الغطاء علىّ فى صمت حتى غطى وجهى فسكنت حركتى مؤتنساً بالظلام الكامل وسمعتها تقول قبل أن أستغرق فى النوم « الحمد لله » !

* * *

لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا نائم ولكنى استيقظت فوجدتنى ما زلت فى موضعى من السرير ورأسى على حجرها ، تطلعت إلى وجهها فوجدتها تغمرنى بحنان وديع ، خجلت من نفسى ، واعتدلت وحاولت أن أسترجع ما كان، فمرت أمام خاطرى صورة مهزوزة دون تفاصيل، استقمت فى جلستى مذعوراً من بعض تلك الصور .

— أين هى ؟

— ذهبت من زمن ، أكثر الله خيرها .

حاولت أن أتغلب على الرجفة التى كادت تغمرنى ولما تظهر بعد .

— هل قالت شيئاً .

— قالت ربنا موجود وهو غفور رحيم، ألم أقل لك إنها امرأة مبروكة، حتى المفقود لم تقبل أن تأخذ مليما ، كله فى حب الله .

هدأت قليلا بعد أن اطمأننت إلى أن ما حدث كله قد أصبح ماضياً يُتحدث عنه .

— ولكن هل قالت إنى شفيت .

— لم تقل أكثر مما ذكرت ، فماذا تشعر أنت ؟

انزعجت لتسلسل الحديث إلى هذا الاتجاه الآن ، كله منى ، جلبته على نفسى .

— أشعر أنى بخير .

أشرق وجهها بالفرحة ، ولكنى حسبت أنها الرغبة،فارتعدت، وحاولت أن أنظر فى نفسى فوجدت الموت قد عاد إلى أحشائى، كما هو وربما أعتى .

— التساهيل على الله .

فهمت تراجعى وحيطتى فقالت فى شبه انزعاج :

— ألا تشعر بأى تغيير .

يا نهار أسود ، ماذا تريد هذه المرأة بهذه السرعة ، ألا تدعنى أستجمع نفسى بعض الوقت، ماذا لو علمت ما جرى، أحسست بشىء من الفخر والشماتة.

— لقد فعلت ما أشرتِ به ، وما علينا إلا انتظار الفرج .

قالت بيأس ظاهر :

— فرجُه قريب .

* * *

فهو الجنون ذاته ، وإلا فما هذا الذى حدث ؟

لا يفعل ما فعلت إلا مجنون ، وإذا استمر رفضى للعلاج وهربى منه فلا أحسب أنى بعيد عن مستشفى المجاذيب إلا بمقدار أن يكتشف أمرى ، علىّ أن أتخذ القرار الآن .

وأخذت أبحث عن العنوان الذى أعطانيه الطبيب التناسلى .

* * *

كان هناك شىء ما فى هذه العيادة يميزها عن الأخريات ، ليست جمعية استهلاكية ولا مقبرة فى وادى الملوك ، مجرد مكان عادىّ مثل أى طبيب متوسط ، تذكرت طبيب أمراض النسا والولادة الذى ذهبت له فى أول الأمر وشعرت بالطمأنينة لوجه الشبه بينهما .. إذاً فأنا مريض عند طبيب .. وخلاص !! أين الخلاص ؟

زادت طمأنينتى حين علمت أن الاستشارة ليست بميعاد سابق فقد كنت أتعلق بأى اختلاف عن تجاربى السابقة .

لا يوجد فى حجرة الانتظار إلا نفر قليل ، فشعرت بالألفة لسبب لا أعلمه ، جئت بدون ميعاد وعلىّ الانتظار ، فرصة لأتبادل الحديث مع بعض الجالسين ، اقتربت من أحدهم ممن توسمت فيه الطيبة والسماحة ، وبعد تبادل تحية المساء قلت له :

— هل تأتى هنا من زمن طويل ؟

— بضعة أسابيع ، وأنت ؟

— أول مرة ، ولذلك فأنا متردد تماماً وخاصة أنى ذهبت إلى آخرين ولم أواصل العلاج .

— أهم شيء أن تستمر بعض الوقت

— خوفى يمنعنى من المحاولة

— كلنا كذلك ، ولكن للضرورة أحكام .

— ليتنى أستطيع

— ولم لا ؟

— لست أدرى ولكنى أخاف كما قلت لك

— حاول .. ولن تخسر شيئاً .

شجعنى حديثه المباشر فتجرأت على أن أسأله :

— آسف للتدخل فى شئونك الخاصة ولكن حديثك يطمئننى ، هل أستطيع أن أعرف ماذا عندك لعلى أتشجع أكثر إذا وجدت مايشبه حالتى

— لا يوجد إنسان مثل آخر على ظهر الأرض .

— وماذا قال لك الطبيب ، بم شخص حالتك ؟

— تعلمت ألا أختبئ وراء لافتة .. أى لافتة

— هذا شيء مشجع .

— عليك أن تختبر الأمر بنفسك ، ولكن لا حرج من الكلام فلا محظور إلا الكذب والهرب .

بساطة الحديث وتواضعه تبهرنى ، هذا شيء لم أعهد له مثيل ، سوف أقول له مابى ولو لأعمل « بروفة صدق » ، حضر الممرض واستدعى الشخص الباقى فى الحجرة فتشجعت أكثر للمضى فى الحديث .

— أنا لا أعرف ماذا عندى ولكنى أشعر أنى لست مثل الناس ، ولست مثلما كنت قبل ذلك .

— أظن أن كل إنسان يمر « بهذا » فى وقت ما من حياته ، ولكن هناك من يتوقف ، وهناك من يسرع فى الهرب ، وهناك من يتراجع تماماً ، هذا بعض ماتعلمتة من أزمتى .

كلام جديد يوقظ الأمل ، ولكنه أيضاً كلام خطير ، ترى هل وجدت ضالتى أخيراً ، أريد أن أحدثه تحديداً ولكنى لا أستطيع ، دعوت أن تطول مدة جلوسى معه .

لسوف أحكى له رضى أم لم يرض .

— تشغلنى أمور كثيرة متشابكة لابد أن أنتهى منها أولا حتى أعرف كيف أعيش .

— ... ... ؟

— الله والحقيقة والجنس والعمل والموت والنار ، .. وكل شىء .

— يا أخى .. تريد أن تنتهى مما وجدنا للبحث عنه قبل أن تبدأ ؟ تبدأ ماذا بعد ذلك ؟ البحث فى هذه الأمور هو الحياة ذاتها

— هذه أمور لا تشغل كل الناس

— بل هى تشغلهم ولكن بطرق مختلفة .

ما هذا كله ؟ مم يشكو هذا الإنسان ؟ ولماذا هو هنا إذا كان بكل هذه الحكمة ، عاودت السؤال بلا ملل

- ولماذا أنت هنا إذاً ؟

أشارك فى البحث فى هذه الأمور

— هل نحن فى مركز أبحاث أم فى عيادة ؟

— لا بد من رفيق طريق وإلا قتلتك الوحـــدة .

— رفيق طريق بدرجة دكتور ؟

— هذا من فساد العصر ، ولكنها البداية . .

— وهل وجدت الرفيق هنا ؟

— نحن نبحث سوياً . . ونتقارب .

— نحن من ؟ أنت والطبيب ؟

— أنا والطبيب وآخرون مثلى ومثلك .

— ولماذا يبحث الطبيب معكم ، ألا يعرف كل شىء .

— من ذا يعرف كل شىء ؟

— لا أكاد أفهم شيئاً .

جاء الممرض بلا داع فكدت أقتله ، نادى زميلى ليدخل فسألته صائحا وهو يبتعـــد .

— اسمك من فضلك ؟

قال وهو فى طريقه إلى الحجرة الأخرى وعلى وجهه دهشة عابرة .

— إبراهيم الطيب .

صحت بصوت أكثر علوا قبل أن يختفى تماماً .

— وأنا عبد السلام المشد .

ولا أعرف لماذا أصررت على أن أقول له اسمى بهذه الطريقة التى ابتسم لها الممرض مشفقاً فى الأغلب .

. . . . .

جلست أفكر طويلا فى كل ما حدث ، يبدو أنى مقبل على شىء جديد فعلا ، ولكن هل أنا أبحث عن رفيق طريق أم عن طبيب يعالج عجزى ونزواتى معاً ، هل أنا أريد رفيق طريق فى هذا المكان فعلا ، أم أن كل همى ومنذ البداية أن أتحاشى رفيق الطريق ؟ ألم أهرب من غريب لولا أنى تأكدت أن قوقعته غير قابلة للكسر ، ألم أتحاش زوجتى فى أول المرض لمّا بدا أنها قد تشعر بى ولو لحظات ، هل سأضطر أخيراً إلى تجنبه طوال هذه المدة ؟ ملكنى الرعب ونظرت إلى الحجرة الخالية إلا منى ، زادت دقات قلبى حتى كاد يقفز من صدرى .

انتهزت فرصة دخول المرض إلى المطبخ وخرجت مسرعاً حتى أخذت أجرى فى الشارع ، ولم أشعر بالأمان إلا حين وجدت نفسى فى ميدان التحرير .

• • •

• • •

أفقت على ما حولى ، لا بد أننا بعد العشاء بزمن ، حركة غير عادية فى الميدان ، جنود يلبسون الخوذات النحاسية ويمسكون بالعصى الطويلة ، الطويلة ، وعربات بوليس تحمل مثلهم وتجوب الميدان ، وأعداد من الشباب تتجمع وتتفرق ، لا احتكاك ولا صدام ، ما هذا كله ؟

تذكرت فجأة ـ دائماً فجأة ـ أن الطلبة فى تذمر هائل هذه الأيام* وأنباء الإضرابات ـ التى تسميها الصحافة الاضطرابات ، تملأ الصحف ، إشاعات الثورة والانقلاب تدور حول المكاتب وفى الأتوبيسات ، وأنا ؟ أنا غائب عن كل هذا من زمان . . تحت ادعاء العقل ، والآن . . تحت ادعاء الجنون .

(*) ربيع ٧٣ قبل حرب أكتوبر مباشرة .

أين أنا من كل ذلك ؟

هل هذه بلدى أم أنى مجرد سائح عابر ؟

بدأ يداخلنى شعور بالخجل والذنب معا، حاولت أن أقضى عليه بسرعة، فأنا مريض ، ولا دخل لى بكل هذا ، أنا لست سائحاً فقط فى هذا البلد ولكنى سائح فى هذا الكوكب الأرضى كله ، ألست قادماً من كوكب آخر ؟ بل لعلى أنا شخصيا كوكب آخر .

لم أستسغ هذا التفسير وسط هذا الجو المشحون بالحماس والشباب والبوليس ، وبدا فى داخلى حوار قاس لايرحم بيد شخصين لا أعلم من أين جاءا فى هذا الوقت بالذات . . ربما كانا عقلى وعقل بالى أو من يقوم مقامهما :

١ (عقل بالى) — وهؤلاء الشباب والبوليس .

٢ (عقلى) — مالى بهم ، أنا عاجز حتى عن مزاولة واجباتى الزوجية .

١ (عقل بالى) — أولى بك أن تشارك فى شىء جاد إذا كنت قد فشلت فى حياتك العادية .

٢ (عقلى) — أنا لم أفشل بخاطرى ، أنا عاجز عن الحياة بكل أشكالها .

١ (عقل بالى) — كاذب أنت وهارب جبان ولا بد أن تدفع الثمن .

٢ (عقلى) — بم تلوح لى وسط هذا المحيط الهلامى من الضياع ، ألا ترى ما أنا فيه ؟

١ (عقل بالى) — لن تهرب منى أبداً ، وإن لم تشارك فسوف تعيش نذلا تعِساً حتى النهاية .

٢ (عقلى) — أنا غير قادر على شىء

١ (عقل بالى) — أنت جبان لا أكثر ولا أقل

٢ (عقلى) — ومن أنت ألست جزءاً منى ؟

اختلط علىّ الأمر وحاولت أن أوقف الحديث الدائر فصاح صائح من داخلى

— تحرمنى حق الحيـاة وأنت تعلم ذلك ، ثم تعتبرنى مجرد جزء منك لأساهم فى تحمل مسئولية جبنك ، لا . . لن أدعك تهنأ على حال . . سوف أحرمك حق الوجود ونعمة العمى معاً .

قلت فى خوف ومناورة :

— ماذا تريد منى الآن ؟

قال فى تحد صريح :

— تدعنى أذهب لأشاركهم ـ أو على الأقل لنرى ماذا يقولون .

سآخذه على قدر عقله ولسوف نرى .

— هيا ... ولـكن حذار

....

توجهت إلى أكبر مجموعة منهم ـ أكاد أقول مضطراً ، وحاولت أن أهدئ من مشاعرى وأستدعى كل قدرتى على « الفرجة » حتى لا يدفعنى حماسى إلى ما لا أدرى بعد أن أصبحت أوقن أنى مجنون مع وقف التنفيذ العلنى ، حاولت أن أضيع فى الزحام حتى لا يلحظنى أحد ، اقتربت منهم ، يغلون بالحماس والثقة معاً ، يتبادلون الأفكار فى هدوء واضح ، يضحكون

— هذا ذل ولن نسكت عليه .

— عارٌ هذه الحياة ونحن مسئولون عنها أمام الأجيال القادمة .

— الانتظار تخدير أمريكى والمؤامرات تدبر فى الخفاء .

— الوعود تلقى فى المواسم والأعياد ولا نجنى إلا تبرير الهزيمة .

— وغدا .. لا يأتى أبداً .

— إما الحرب أو الثورة ، ولنلق بالجميع إلى الجحيم .

— احتلال القاهرة خير من خدعة الكلام عن الإعداد للحرب .

— لا يريدون أن نواجه الهزيمة فى الشوارع خوفاً على أنفسهم .

— آن الأوان أن نعيش رجالا أو نموت .

لم أستطع أن أكمل أكثر من ذلك فقد كانت الكلمات تدخل إلى وجدانى كالرصاص الحارق فى مخزن بارود ، وبدأ البركان يثور فى داخلى فانصرفت محاولا أن أمسخ التجربة كلها بأى سخرية تطفئ مشاعرى حتى كدت أهتف بينهم « تسقط العُنَّةُ ويحيا الجنون » ، وتصورتهم وهم يرددون الهتاف ورائى ، ولكنى تخيلت أمامى أسوار مستشفى الأمراض العقلية فانسحبت فى هدوء ، لم أستطع إكمال مسيرتى بعيداً فالتفت إلى شاب وفتاة يجلسان وحدهما على ركن من قاعدة التمثال بلا تمثال ، وبدا أنهما يتناقشان فى السياسة والحرب أيضاً فاقتربت منهما وسألت .

ماذا تريدون على وجه التحديد ؟

— أجابنى الشاب بحذر وقوة .

— ومن أنت على وجه التحديد ؟ من المباحث العامة أم من المخابرات ، أم أنت مصرى .

— أنا عبد السلام المشد .

قلتها وكأنهم لا بد أن يعرفونى .

ردت الفتاة فى سخرية ولكن فى تقبل .

— تشرفنا .

قال الشاب .

— وماذا تريد ؟

قلت .

— أريد أن أحس بإحساسكم ، أريد أن أعرف أكثر .

قالت الفتاة .

— ألم تعرف بعد ؟ البلد محتلة من سنوات وتأتى لتعرف سيادتك الآن .

قلت .

— هى النكسة والكل يعرفها .

قال الشاب .

— يا فرحتى !! شىء اسمه « النكسة » ، ماركة سيارات جديدة ؟ ولم لا تقول « الاحتلال » ؟

رنت هذه الكلمة فى أذنى وأعادت لى أيام الثانوى والجامعة ، فكرت أن أهتف « الجلاء بالدماء » ، لا مفاوضة إلا بعد الجلاء ، قلت لهما :

— تعنى أنكم تريدون الجلاء .

— نريد أى شىء إلا ما نحن فيه ، هل يرضيك ما أنت فيه .

من أين له أن يعرف ما أنا فيه ، لو كنت راضياً لما كنت الآن فى هذا المكان هارباً من عيادة طبيب نفسى .

— طبعاً لا يرضينى ، ولكنى لا أعرف له حلا .

— الحل هو الثورة .. أو الحرب .

انتهيت إلى أصل الموضوع فتناسيت مشكلتى الخاصة ، واستجمعت حكمتى القديمة وقلت :

— ولكن لا بد من الاستعداد للحرب ، وإلا فنحن ننتحر .

قالت الفتاة :

— نحن ميتون فعلا .. ولا انتحار لميت .

قال الشاب :

— ألا تحس يا هذا ، كيف تستطيع أن تواجه أولادك كل صباح ، كيف تتمتع بزوجتك والبلد محتلة منذ سنوات .

انزعجت من هذا التلميح ، ولكنى استبعدت أن يكون قد بلغه شىء عن عجزى ، وكدت أسأله هل من الوطنية أن أكون عنيناً حتى يزول الاحتلال ، أحسست بزهو خفى لأنى لا أتمتع بزوجتى فى ظل الاحتلال ، ارتسمت على وجهى ابتسامة سرية ، ولكنى أحسست بحب غامر يملؤ قلبى تجاههما ، لم أتردد فقبلت الشاب داعياً .

— ربنا يحميكم .

فوجىء الشاب بهذه الحركة وبدا عليه إحساسه بصدق ، إلا أنه قال رافضاً بيده :

— كفى ابتهالات ودعوات ، هذه مسئوليتكم قبلنا ، أنتم جيل الهزيمة والعار ، أنتم الذين سرقتمونا وخدعتمونا ثم لا تملكون لنا إلا الدعوات المباركات .

تمنيت أن تبتلعنى الأرض حالا ، ماذا يريدون منى أن أصنع ، ما الذى جاء بى إلى هنا ، هل كنت ناقصاً اتهامات أو إهانات أو امتهاناً ، هذا الشباب المغرور الحالم ماذا يصنع إلا الهتاف والصراخ ثم يعودون إلى حظائرهم بعد أيام ، كنا مثلهم فى يوم من الأيام وصنعنا الثورة فماذا صنعوا هم .

فقلت مدافعاً :

— لكل جيل واجب ، وقد صنعنا الثورة .

قالت الفتاة :

— قل .. لقد سرقتنا الثورة ، خدعتمونا يا رجل ، أين الثورة .

قال الشاب :

— فى كتب « التربية القومية » .

كدت أصيح فيهم : يا أولاد الكلب ، وأنا مالى ، كفانى ما بى ، ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ .. يحملونى مسئولية الأحداث هكذا مرة واحده وكأنى صانع الثورة ، وحاميها ، والمسئول عن انحرافها فى وقت واحد .

قلت معتذراً ممهداً للانسحاب :

— سرقوها وكذبوا علينا مثلما كذبوا عليكم .

لم تمهلنى الفتاة .

— أنتم رضيتم الكذب وإلا ما سكتم عليه .

يا نهار أسود ، يبدو أنى جئت إلى حتفى برجلى ، أخشى أن يحاكمونى

علناً مثلما كنا نسمع فى الصين ، العالم أصبح صغيراً والعدوى تنتشر بأسرع مما نتصور ، ملكنى خوف حقيقى حتى نظرت إلى عربة البوليس المليئة بالعساكر ذوى الخوذات وداخلنى شيء من الاطمئنان واليقين بلا مبرر : لا إعدام بلا محاكمة ، ولا ظلم فى عصر الشرطة ! وعلى كل واحد أن يدفع جزاء ماعمله فقط ، لا أكثر ولا أقل .

واتتنى الشجاعة من منظر الشرطة المدرع فانطلقت أكمل دفاعى طالباً البراءة :

— لم نكن نعرف أن هناك تنازلات فى ٥٦ ، لم نعلم أنهم يمرون فى شرم الشيخ ، ويوم علمنا حاربنا .

قالت الفتاة .

— لا تقل حاربنا ، قل حوربنا ، وانهزمنا ، وقالوا نكسة .

قال الشاب :

— وما زال الكذب يعمل قراطيساً للب والفول السودانى .

الإثارة أكبر من قدرتى ولا بد من الابتعاد عن هذا الجو الحماسى قبل أن يفلت منى الزمام ، رنت فى أذنى كلمة « السودانى » فاستدرجتنى إلى تذكر تلك المرأة وجذعها الأبنوسى المنصهر تحت جنونى المختلط بالنشوة ، فامتلأت فخراً بفحولتى رغم الكلام عن النكسة والاحتلال والهزيمة ، زهوت بنفسى لأنى حققت فى دقائق معدودة ـ دون مفاوضات تذكر ـ ما كان يحلم به كل من الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان ، والصاغ صلاح سالم ، بلا خسائر فى الأرواح .

انتبهت على قول الشاب ..

— ولكن لكل شىء نهاية .

قالت الفتاة :

— وهذه هى بداية النهاية : الحرب أو الثورة .

. . . .

انصرفت خجلا من أفكارى الجنونية الشبقية فى هذا الجو السياسى المحمل بالثورة، ولكنى حمدت الله عليها، إذ لولاها لانضممت إليهم ولا يعلم إلا الله أين كنت سأقضى بقية عمرى ، إن كان فيه بقية ، أثاروا فىّ حماساً كنت أحسب أنه مات إلى الأبد ، حماساً كان كفيلا ألا يدعنى إلا على شاطىء القنال حياً أو ميتاً مهما كانت العقبات ، رعبت من هذه الثورة فى داخلى وحاولت أن ألغى كل ما حدث ، كانت المشاعر مرعبة ضخمة تحمل معها خليطاً من الخزى والمسئولية معاً ، أنا لا أستطيع أن أتحمل كل ذلك وأنا على هذه الحال ، كنت أحسب أن فشلى على السرير هو أعلى درجات الخزى ، ولكنى عرفت الآن ما هو أعلى منه وأكثر سحقاً .

. . . .

ذهبت أجرجر رجلى إلى بيتى وأصعد الدرج وكأن سيقانى هى أكياس الرمل المعدة لإطفاء الحرائق بعد الغارات ، وبينما أنا أنتظر أن يفتح بابنا لمحت الأستاذ غريب من نافذة المنور وهو منكفىء على كتاب بين يديه ومنهمك فى القراءة ، ملكنى غيظ تصاعد بسرعة فائقة حتى ملأ كل كيانى « ملعون أبوك » .

أحسست برغبة حقيقية فى قتله ، فرعبت من تدهور حالتى .

* * *

الفصل العاشر

الحلقة

لم أكد أضع رأسي على الوسادة حتى اجتاحت المظاهرات البلاد تطالب بالجلاء التام ، أو الموت الزؤام وبوحدة وادى النيل ، وأنتقل من المدرسة الثانوية بدمنهور حتى كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول ، ويحملنى الطلبة على الأعناق مرة ، وتطعننى أجسادهم مرة ، والجو يرجع صدى الهتافات « الجلاء بالدماء » « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » وأخطف خوذة شرطى وألعب بها الكرة ، وأتحمس للهتاف بوحدة مصر والسودان لأسباب خاصة ،« بيفن .. بفين ،يسقط بيفن » ، صدقى الخائن ، يسقط بيفن » تخرج الجموع إلى الشوارع وتجتاح كل المقاومة البوليسية وتتجه إلى كوبرى عباس والناس تنضم إلينا بالمئات ، النقراشى باشا يأمر بفتح الكوبرى على الجموع فيتساقط الشباب بلا عدد ، الجموع تدفعنى إلى الحافة ، ولا أكاد أهوى حتى أستيقظ مفزوعاً قبل أن ترتطم رأسى بعوامة الكوبرى .

وتنقلب زوجتى إلى جنبها الآخر وتعطينى ظهرها كأنها تقول « على إيه يا فالح » أمط شفتى استهتاراً ، أشعل سيجارة ، أستمر فى صحوتى أفكر فى مصر وفى لقائى ونقاشى مع الطلبة فى ميدان التحرير .

هل يمكن أن أصنع شيئاً أنا شخصياً ـ عبد السلام المشد ـ لهذا البلد الآن ؟

هل هناك أمل فى أمثالى ؟ . .

هل ينقذنى ذلك من بعض ضياعى ؟

وتأتينى الأجوبة كلها بالنفى واليأس ، المكتب ينتظرنى فى الصباح، والسرير بما يحمل من مذلة وكوابيس فى المساء ، وما بين هذا وذاك يتفلسف الأستاذ غريب ليُفشل كل الحلول قبل أن تبدأ ، هذا هو يومى المكرر فكيف السبيل إلى المساهمة أو الإيجابية ، وتتردد فى ذهنى الاتهامات الصادقة التى وجهها إلىّ الطلبة والتى لا أعرف طريقة أمينة للرد عليها .

«أنتم رضيتم الكذب والا ما سكتم » .. كيف السبيل حتى لا أسكت أنا شخصياً « عبد السلام المشد » فى هذا البلد فى هذه اللحظة من الزمان ؟ نحن ميتون فعلا . . ولا انتحار لميت ، . . كيف السبيل لإزالة العار أو للحياة ؟

وتمر على ذهنى كلمات مثل « الثورة » و « الانقلاب » و « الحرية » ، ولكنى كلما حاولت أن أترجمها إلى شيء محدد يخص « عبد السلام المشد » بلحمه ودمه ووظيفته فى الحسابات ، وشقته ذات الثلاث غرف وهو يتقلب فى الفراش الآن خوفاً من الارتطام بعوامة كوبرى عباس بعد أن فتحه النقراشى باشا بنذالة الجبناء ـ تذهب منى كل معانى الكلمات ،.. وما ذا كان يمكن أن يفعل حتى لا يسكت ، ولا يتهمه الشباب بالسرقة والخيانة والكذب وما ذا يمكن أن يفعل الآن ؟ هذا العبد السلام المشد على وجه التحديد .

وددت لو أنى رجعت إلى هؤلاء المتحمسين أسألهم ماذا يمكن أن أفعل « أنا » شخصيا وبالضبط ، أم أنها مجرد ألفاظ واتهامات بلا حساب ولا بديل ؟

هل هى لعبة عيال وأضغاث أحلام ؟

حتى لو كانت كذلك فهل يعفيني هذا من مسئوليتي وإحساسي بالعجز واليأس ـ ويزداد احتقاري لذاتي ، ليس فقط للمساهمة في الصمت والسرقة ، ولكن أيضاً للشعور بالعجز والخيبة ..

هل تكون كل هذه الثورة الصامتة صورة جديدة لمحاولتي للهرب من مواجهة عجزي الآخر ؟

ولكن هم ؟ هل يهربون أيضاً من عجز ما ؟

١ (عقل بالي) — ولو ، فهم يمارسون الصدق على كل حال

٢ (عقلي) — لعبة عيال . . كل شاب منهم قد أطلق شعره ولبس المنطلون القذر الضيق ، وجلس مع صاحبته ومقعداتهما متلاصقتان يلقيان التهم جزافاً .. هذا عبث وتخريب .

١ (عقل بالي) — ولكن هذا الذي تسميه عبثاً وتخريباً هو الذي أثارك وأيقظك وأرجع لك الحماس القديم والأمل في الحياة .

٢ (عقلي) — ولكنه واجهني بالعجز وتركني أكثر تحطيما

١ (عقلي بالي) — الإحساس أيا كان .. أحسن من الموت تحت شعار العقل والحكمة .

٢ (عقلي) — ولكني مريض والشعور بالعجز يزيد من مرضي .

١ (عقلي بالي) — الآن تدعى المرض ، فإذا جاء وقت العلاج تدعى الصحة .

٢ (عقلي) — ماذا تريدني أن أفعل تحديداً ، أنت مثلهم لا تكف عن الصياح بلا فاعلية .

١(عقل بالى) — تتحمل المسئولية وتسمى الأشياء بأسمائها

(عقلى) — ضيعتنى حتى ضاعت منى الأسماء ، أنسيتنى إسمى، والآن تريد أن أسمّى الأشياء بأسمائها ، أية أسماء وأية أشياء ؟

١ (عقلى بالى) — بدأنا فى الفلسفة لنهرب من المسئولية

٢ (عقلى) — ماذا تريد منى .

١ (عقلى بالى) — إما أن تثور بفاعلية الآن .. أو تُعالج

٢ (عقلى) — يقولون الثورة أو الحرب ، وأنت تقول الثورة أو العلاج ، تستدرجنى للتهلكة لأنك تعرف خوفى من العلاج وإن كنت أحسب الآن أنه خوفك أنت ، تريد أن تظل تعبث بى ليل نهار ، وتغرينى بالهرب من العلاج ثم تتهمنى الآن .

١ (عقل بالى) - أنت الذى تهرب بالمرض ، فإن كان ثمة مرض فثمة علاج ، وإلا فهى المسئولية والثورة .

٢ (عقلى) — هل أثور وحدى على نصحى افنـدى ، أم على عم جمعه، أم على زوجتى

١ (عقل بالى) — تتشطر بأن تثور على المرأة السودانية ! ! ؟

٢ (عقلى) — لقد ثرت على عجزى الجنسى فكدت أجن حين نجحت ، وكاد أن يحدث ما لا يحمد عقباه .

١ (عقل بالى) — كل عجز لا ينتهى إلا بثورة

٢ (عقلى) — وأين الطريق

١ (عقل بالى) — يوجد ألف طريق

د (عقلى) ـــ لا يا عم .. سوف أعالج فوراً .. ، الطريق الذى أعرفه أفضل من مجاهلك .

* * *

لم يبق أمامى إلا هذه المحاولة الأخيرة ، تذكرت حديثى مع إبراهيم الطيب والعلاج فى مركز أبحاث عصرى عن معنى الله والجنس والموت ، أو عن رفيق للألم والعجز والضياع ، أو عن بديل للثورة والمظاهرات الانتحارية ، كل الظروف تضطرنى للمحاولة قبل تدهور الحال .

أصبحت لا أستطيع أن أنكر رغبتى فى القتل أو الدعارة ، فإذا نجحت فى السيطرة عليهما بعض الوقت عاودنى الصداع المتفجر أو الإحساس الميت ، فإذا ما واجهت داخلى لحظات رعبت من التفتت أو الجنون .

....

....

ذهبت إليه هذه المرة وفى نيتى أن أحاول صادقاً ، فالحلقات تضيق علىّ والأمور تكاد تفلت من يدى حتى أفقد السيطرة على بقية أجزائى .

عرفنى المرض وابتسم حين حاولت أن أعطيه كشفاً جديداً وذكرنى بأنى حجزت قبل ذلك ، حمدت الله على أنه لم يسألنى عن سبب خروجى فى المرة السابقة ، وإن كنت قد أعددت سبباً وجيهاً للاعتذار .

دخلت عليه فلم أجد ما يسترعى الانتباه ، وحين بدأ الحديث مباشرة بلا مقدمات أو استجواب أحسست وكأنى أكمل الحديث مع إبراهيم الطيب وليس مع طبيب مختص ، كان عادياً تماماً ، وحكيت له عن مصيبتى السوداء .

— .... ولكن هذا شىء عادى يمر به كل إنسان يحاول أن يعيش فعلا ليجد هدفاً يدفعه للاستمرار ، وهو ليس مرضاً أو جريمة .

— ولكن حالتى قد وصلت إلى مراحل خطيرة .

— كيف لك أن تميز بين الخطورة والبساطة ، لابد من إعادة تحديد معانى الكلمات ـ هات ما عندك إذا شئت مباشرة دون إطلاق صفات رنانة قد تختلف فى معناها .

قلت فى نفسى لابد من تفجير سلسلة المفرقعات مرة واحدة بلا حذر أو حساب .

— رأيت فى أول المرض أمام عينى أحداثاً وأشخاصاً ثبت أنهم لم يتواجدوا أصلا ، وأظن أن هذه هلوسة لا تحدث إلا لمجنون .

— تستعمل ألفاظاً ضخمة يا أخى .

— ولكنها الحقيقة التى كتمتها عن كل من سبق من أخصائيين وأنا أقولها لك حتى لا تتكرر الأخطاء .

— .... هات ما عندك .

— أشعر أحياناً بقدرة جنسية هائلة حين أطلق لجنونى العنان ، ثم أعجز عن واجباتى الزوجية خوفاً من بيع نفسى لها .

— .... ثم ماذا .

— أحيانا أحدث نفسى وكأنى عدة أشخاص .

— لعلها خطوة نحو الالتحام الأكمل .

— الذى على البر شاطر .. تجربتى مرعبة وأنت لا تعرفها ..

— ليس تماماً .

— أنت .. أنت شخصياً .. هل رأيت شخوصاً ؟

— .. ما دمت إنساناً .. مثلك .. فأنا معرض لكل شىء .

- مثلى ..؟ قل لى من أنت .

— «أنا» ما ترى ببصيرتك النافذة .

هذا شىء طريف وجديد علىّ ، الطبيب يسألنى أن أخترقه ببصيرتى ، هكذا بلا مقدمات ولا معلومات ، نظرت إليه طويلا ، واستحضرت كل جنونى حتى أصل إلى أعماقه .

سألته فجأة :

— هل أنت منا ، أم منهم ؟

أجابنى بنفس الهدوء الحى :

— أفضل أن ترى بنفسك .

— حين دخلت وقابلتك داخلنى إحساس لأول وهلة أن الطبيب لم يحضر بعد ، وحين رأيتك تنتقل إلى جوارى وتتحرك فى الحجرة أثناء الحديث وتضحك بلا تردد زاد شكى .. حتى كدت أخرج إلى الممرض لأتأكد أنك الطبيب وأنك لست واحداً منا دخلت إلى هنا خلسة لتخدع أمثالى مثلما نشاهد فى مسرحيات هذه الأيام . وإذا شئت أن تثق فى بصيرتى فأنت منا .

— ومنهم ..

— ولكن ما أصعب اللعبة .. أن تجمع بين هذا وذاك

— كتب عليك أن تلعبها ولا سبيل للتراجع .

— لم أنجح فى هذه المحاولة ، تصورت أنى من كوكب آخر وأن لى شبيهاً إنسانياً يلعب دورى البشرى على هذه الأرض ، ولكن اللعبة لم تستمر ، ترى هل نجحت أنت كل الوقت ؟

— نجحت ؟ فى ماذا ؟

— فى « الفرجة » على البشر ثم خداعهم بالتصرف مثلهم .

— الفرجة عار الرؤية .. ولكن الحياة شىء آخر !

ما هذا الكلام السهل الفارغ . والبلد محتل والجوع والخراب على الأبواب والذل والمهانة تتغلغلان فى خلايا كل إنسان حى ، ترى أين هو من كل هذا ، أكمل دون تردد

— هيا نحاول سوياً ونبحث سوياً

— وماذا سنبحث سوياً ؟

— نبحث عن طريقة نحوّل بها إحساسنا ورؤيتنا إلى عمل ومسئولية ، فعلا وانتشاراً

— وهل هذا طب ؟ .. هذه سياسة ياعم .. أنا مالى

— الوجود الإنسانى التزام دائم .. وبحث دائم

— ولكن الأستاذ غريب دائم البحث أيضاً

— وحده ؟ بلا تجربة ؟ ولا آخرين ؟

— نعم .

— له الله .

— الله . . ؟

أحسست أن الحديث ينزلق بنا إلى مناقشات لا تحل ولا ترتبط ، وتذكرت حديث نفسى « إما العلاج أو الثورة » وكنت أتمنى أن يكون العلاج خدعة تعفى من المسئولية مثل المرض تماماً ، وبدأت أمتلىء بالغيظ من حكمته المتمكنة ، فقررت أن أبدأ بالهجوم الاستطلاعى بلا لف أو دوران ، سآخذ من ذقنه وأفتل له .. أين هو فعلا من الناس والآخرين .

— والبلد ؟

سكت وكأنه قد أدرك إلى أى منطقة أستدرجه ثم قال :

— البلد هى أنا وأنت ..

— وأنت شخصياً ؟ ماذا تصنع للبلد وهى تغلى وتُذَل ، هل عندك غير الفرجة والكلام وجمع النقود ؟

أطرق حتى كاد العرق يتفصد من جبهته ، هزتنى حيرته وأحسست بألمه وكدت آسف على ذلك حتى البكاء .

قال فى هدوء متردد :

— لا أعرف على وجه التحديد ، لكنها محاولات مستمرة للإتقان واكتساب وسائل القوة من خلال العمل اليومى . . ولكن يبدو أن هذا لا يكفى . . ساعدنى .

تذكرت عم محفوظ ؛ ذهبت لأتبارك به فقذف إلى السكرة وجعلنى أنا البركة ، وها هو الطبيب العالم يقع فى الحيرة ويطلب منى المساعدة .

— وكيف أستطيع أن أساعدك وأنا بكل هذا العجز .

— لا تنكر على نفسك إحساسك وثورتك ، لا تهرب بإصرارك على الحديث عن العجز ، ومن منا لا يشعر بالعجز أمام هول الواقع ، إلا أن الألم الذى يصاحب هذا الشعور هو طاقة الحياة .

— جئتك لأتخلص من الألم ، لا لأزداد ألماً وحيرة .

— إذا كنت تقصد ذلك فعلا ، فقد أخطأت الطريق .

— تطردنى ؟ تتخلى عن واجبك لأنى أواجهك بمسئوليتك .

— لا أخدعك .

— ولكن الألم العاجز ساحق ، وهو وقود الجنون لا الثورة .

— أو الموت .

— سمعت مثل هذا من إبراهيم الطيب .

— محاولة جادة للحياة لا تخلو من معارك ... هذه مسئولية وجودنا الإنسانى .

— مالى أنا وما للإنسان ، أنا عبد السلام المشد جئتك مريضاً وأريد الشفاء .

— لا أعرف سبيلا آخر .

— يعنى إذا شفيت أنا . . سينصلح حال الإنسان فى كل مكان .

— ربما .

— جئتك لأهرب من العار الذى أيقظه فى هؤلاء الطلبة المهووسون ، عار بلد محتل وإذا بك تريد أن تحمّلنى عار البشرية جمعاء ، لا بد وأنى أخطأت الطريق .

— يجوز .

أقفل هذا الرجل المدعى علىّ الأبواب قبل أن أفتحها ، كلما وصلت إلى ما يبرر عجزى ألقى فى وجهى القفاز يثير الرغبة فى العراك ، جئته ليساعدنى وإذا به هو أيضاً يقول فى بساطة « ساعدنى » ، مثلما ألقى عم محفوظ البركة فى وجهى حتى كدت أصدق أنى أنا المبروك ، أحاول أن أختفى منه تحت سابع أرض فأجده ينتظرنى هناك لأحلق معه فى السماء السابعة ، أية مصيبة أن تكون رحلتك بكل هذه المشقة من أعمق درجات الضياع إلى أعلى درجات المسئولية ، هذا ليس طباً ، لا بد أن هذا الرجل أجن منى ومن المرأة السودانية ومن كل جنون الأرض والسماء ، أو أنه كذاب هارب ، هل عرف كل شىء ؟ هل يفرض على معرفته هذه ، هل هو يقتل وحدته برفقة أمثالى ؟ لحساب من ؟ من هو على وجه التحديد وكيف عرف كل ذلك ؟ لو كانت معرفته من الكتب لعرفها كل المختصين مثله ولصادرت الحكومة هذه المهنة ؟ هل مر بمثل ما نمر به ثم اختبأ فى ثوب طبيب ؟

— وهل هناك أقراص وألاعيب مثل الآخرين .

— كل شىء ممكن .. حتى تتحقق الثورة .

ثورة ؟ أية ثورة ؟؟ لقد قالت لى نفسى فى يوم « ميدان التحرير » إما العلاج وإما الثورة ، وهأنذا أقع فى مصيدة جديدة حيث يصبح العلاج هو الثورة .

صمت طويلا حتى عاودنى رعبى القديم ، كنت أخاف العقاقير فقط فأصبحت أخاف الشفاء من أى نوع ، قربه منى أخطر علىّ من كل احتمال آخر ، لا بد من وقت للتفكير قبل اتخاذ قرار قد يكون بلا رجعة .

انصرفت وأنا أحاول أن أتهمه بالجنون والهرب والارتزاق .

* * *

كلما مرت الأيام كلما ازدادت حاجتى إليه وازداد خوفى منه ، إلا أن مجرد علمى بوجوده «هناك» كان يطمئننى بشكل ما ، حتى أنى كنت أحوم حول عيادته لأطمئن أن سيارته بالباب ، ثم أنصرف قبل أن أضطر إلى العودة لزيارته .

لا . . ليس هذا هو حلى أنا ، حتى لو كان حله هو ، لا توجد قوة على الأرض يمكن أن تستدرجنى إلى أن أغامر هذه المغامرة المرعبة .

ولكن أين البديل ؟

الشعور بالعجز يزحف على فى كل مجال رغم نجاحى الظاهرى فى مجال العمل واختفاء أغلب الأعراض ، واستسلام زوجتى يأساً أو انتظاراً لفرج يأتى من المجهول .

ولكنى لا أستطيع أن أنسى : لا حديث الطلبة فى ميدان التحرير ، ولا حديث الطبيب الذى أكاد أجزم بجنونه ، ذهبت إليه أريد التخلص من هم هذا البلد الذى أحاط بى دون ذنب جنيته ، فما عمرى اشتغلت بالسياسة ولا فكرت فى ذلك أبداً ، ومع ذلك فقد أشعرنى أنى المسئول الأول والأخير ، وقد كنت أحسب أن الطبيب سيرجع لى عقلى ويقنعني بأن كل هذا كلام خادع ، فإذا به يحملنى هم الإنسان فى كل مكان .

خطر ببالى أحياناً أن خير سبيل لاستعمال جنونى بشكل « خلّاق » — كما يقولون — هو أن أنمى تجربتى مع المرأة السودانية ، أحيي العظام وهى رميم ، وأخترق أسوار النساء اللاتى يخفن المتعة وينكمشن وراء الترددوالبرود ، وكنت أشعر أن هذا عمل جليل أفضل من هتافات الطلبة وشعارات هذا الطبيب المجنون ، وكان خيالى يرسم لى أحياناً صورة لعلاقات راسبوتينية تسبح فى أنهاو اللذة والخدر ، وربما وجدت بذلك حل الإنسان الجديد بأن أصنع نسلا أرقى من خلال الجنس المجنون ، أليس هذا ألذّ من تخريف ذلك الطبيب الحالم ، وكنت أفيق من هذا الخيال على واقعى العاجز ، أو واقعهن الأعمى ، ولا أستطيع إلا أن أسمى الأشياء بأسمائها .

أحسست أنى أنتهى إلى وضع قريب مما وصل إليه الأستاذ غريب ، فأنا أنتظر شيئاً مجهولا لابد أن يتم بين يوم وليلة ، يهبط من أعلى أو تتفجر عنه الأرض ، يجيب على الأسئلة الحائرة ويضع حلا لكل هذا الضياع ، ولكن الأستاذ غريب ينتظر قبلى من سنين وقد ينتظر إلى الأبد ، فهل كتب علىّ نفس المصير ؟

منذ زمن لم أزره .

* * *

— هيه ؟ ماذا وجدت

— التاريخ يعيد نفسه

— وهل نعيش — أنت وأنا — فى التاريخ الذى يعيد نفسه ، أم أننا خارج دائرته

— وَعْيُنا به هو الذى يصور لنا أننا خارج دائرته

— والحل ألا نعى شيئاً يا غريب أو أن نستسلم له وهو يعيد نفسه .

— لا أعرف بعد ولكنى أبحث وأنتظر

— طال انتظارك ياغريب وقد جئتك وأنا على وشك الوقوف مثلك ، وما زلت أذكر حديثنا فى أول لقاء ، وكنت يومها أيضاً تنتظر

— لن أخدع نفسى بالحلول الجاهزة

بالمناسبة ، عرض علىّ حل جديدوخفت مثلك من الحلول الجاهزة ، وما زلت أفكر .

— أى حل تعنى ؟

— علاج جديد ، يسميه صاحبه بحث مشترك ؟ أو رفقة طريق ، « أو علاج جمعى » ويتحدث بألفاظ مغرية ولكنه لا يعطى ضمانات .

قال بانزعاج وحذر :

— تقول علاج ؟ وهل أنت مريض ؟ فوجئت أنى لم أذكر له ، طوال هذه المحاورات عبر شهور وشهور ، أى شىء عن تجربتى مع المرض والأطباء .

— اختلفت الأسماء ولكنى أشعر أن الحال لا يمكن أن تستمر على هذا الوضع .

— وما ذا قال لك الطبيب ؟

— هذا آخر ما يهم ، فقد خيل إلىّ أنى وجدت أفلاطوناً عصرياً ، أو مجنوناً هارباً من المستشفى .

— أحب أن أحذرك فهذا طريق خطر ستسجن نفسك فيه بقية عمرك

— ولكنى سجين أصلا

— العلاج زنزانة مفردة بفتحة واحدة وعليها سجان غبي

— ومن أدراك يا غريب ؟

— لى خبرة فى هذا السبيل

لم أدهش ولكنى تحفزت لمزيد من المعرفة

— هل مرضت أنت أيضاً ؟ لدرجه العلاج ؟

— حسبت فى يوم من الأيام أنى مريض وترددت على كثير منهم حتى أنقذنى أحدهم .

— أنقذك ؟ كيف ؟

— واحد منهم كان غزير العلم جم التواضع ، ذهبت إليه بعد أن كدت أعتقد أنى مجنون فإذا به يرجع لى حريتى ، ويدعنى وشأنى ، واقتنعت من خلال صدقه أن من حقى أن أكون كما أشاء حتى لو كنت مجنوناً ، ولن أنسى جميله ما حييت فقد استعدت حريتى وبدأت حياتى .

— بدأت ماذا ؟

— حياتى الخاصة الحرة تماماً من أى أوهام بالمرض أو بالعجز .

— ... أو بالعجز ؟!!

قال متجاهلا تلميحى :

— نعم ...

— وهل يمكن أن تستمر « هكذا » ، هل هذا هو الحل ؟

— ولم لا

— هل خلقنا لننتظر ؟

— ليس ذنبنا أننا خلقنا ، ومن حقنا أن ننتظر .

— ولكنى لا أستطيع .

— ولكنى أستطيع .

بدأ الغيظ يتراكم داخلى مرة اخرى وتوقعت أن ينتهى اللقاء مثل كل مرة بالمشادة التى تصل إلى حد الهجوم والدفاع .

— كيف أنتظر والعجز يسيطر على كل كيانى .؟

— لماذا نسميه عجزا

— ماذا تسميه أنت ؟

سمه ما تشاء :

— الحكمة ، أو الحرية ، أو عين العقل

— أبسط الأمور تزعجنا فى النوم واليقظة .

قال فى حذر :

— نحن مسئولون عن حكمتنا اثناء اليقظة ، اما النوم فهو عالم خاص قائم بذاته .

أحسست أن ما ينجح فى إلغائه بالنهار لا يرحمه بالليل ، ترى هل يحلم مثلى بالمظاهرات والثورة ، قلت أستدرجه وأثيره فى نفس الوقت .

— والبلد ؟

— ما لها ؟

— هل يمكن ان تنتظر الفرج بنفس الطريق إلى ما لا نهاية ؟

— الحل فى النظرية .

كاد عقلى الساخر يعاود نشاطه فجأة حسب عادته فى المناسبات الحادة ،

حيث صاح « النظرية فى التملية » ولـكنى نهرته بلا رحمة .

— أية نظرية ؟

— النظرية المتكاملة .

— ولو أصبحت يوماً فوجدت اليهود يسيرون فى الشوارع

— لست قائداً للقوات المسلحة ولا رئيس جمهورية .

— يا نهار اسود يا غريب ، هل تعنى ما تقول ؟

— لن أخدع نفسى أبداً .

— ولو اعتدوا على نسائنا وحرماتنا .

— ليس لى نساء ولا حرمات ، ولذلك فأنا حر تماماً .

ضبطت نفسى بأقصى ما أملك مما تبقى لى من عقل وواصلت .

— لو أنك قابلت الطلبة ذلك اليوم لمـا استطعت النوم ، شاهدتك منهمك فى القراءة ، ولعنت أجدادك وكدت أهم بقتلك لأبعدك لحظة عن هذه الأوراق .

— وها هم أولاء قد عادوا إلى الدراسة مثل كل عام ، قصة مكررة : يأتى سبتمبر فيدخلون على أمل النجاح وتعليق البنات ، ثم يصيبهم العجز فى ديسمبر ، حين يملون الدراسة ويفشلون فى الحب ، فتقوم الاضطرابات حتى أجازة نصف العام ، ثم يعودون بعدها ليستعدوا للامتحانات ، هذه هى القصة الكاملة والتاريخ دائماً يعيد نفسه .

— أنا لا أصدق حرفا مما تقول ، أنت تشوه كل شىء حتى تستمر كما أنت ، ألا تحسب أن علينا أن نحارب ؟

— لا أمل فى الحرب .

— يا نهار أسود !

— ولاجدوى منها .

لم أستطع أن أستمر وانصرفت مليئاً بالغيظ كالعادة ، ولـكنى كنت أعيد التفـكير فيما قال . . .

. . .

. . .

اقترب منى الأستاذ أسعد صباح الأحد وأنا جالس على المـكتب .

— هل سمعت البيان رقم ٥ ؟

— سمعته ولـكن من يدرى فـكم سمعنا بيانات ؟

— هل تشك فى جدية ما يجرى ؟

— مازلت أذكر ٦٧ ولا أقوى أن أعيش نفس الأحداث والمشـاعر

— ولـكن الأمر مختلف ، نحن الذين بدأنا الهجوم

— مؤتمر « السلاطة » ما زال يخايل ناظرى

— الحرب دائرة من الثانية ظهر أمس والعبور كاد يتم

— صوت أحمد سعيد يرن فى أذنى مساء يوم الاثنين المشئوم من ست سنوات « سقط المـكبر ياعرب » « سقط المـكبر ياعرب » حتى حسبنا أن الحرب ستنتهى فى ساعات ، وكلما رن صوته فى أذنى بعد ذلك ضحـكت حيث يبدو أنه كان يعنى أن الميـكروفون قد سقط من يده .

ـ هل هذا وقت سخرية يا أستاذ عبد السلام يبدو أن الأمر مختلف تماما ، لابد من رفع الروح المعنوية .

ـــ حاسب من رفعها أكثر من اللازم حتى إذا سقطت لا تنكسر مثلما انكسر المكبر من يد أحمد سعيد ، لا أجرؤ على تحمل تكرار ما حدث . . .

ـــ أنت انهزامى متشائم

ـــ سوف أصبح أول المناضلين فى اليوم السابع من الحرب .

— ولماذا السابع ؟

— لن أنسى الأيام الستة ..

— الأمور اختلفت

— إذا كانت حربا بجد فلا بد من الاستمرار ، لم أعد أحتمل خيبة أمل ٦٧ ، ولذلك فأنا أقتل فى نفسى كل أمل .

— لهجة الإعلام مختلفة ، كل شىء مختلف .

— لا أنكر ذلك ، وداخلى يغلى ولكنى أحاول أن أكون واقعياً قدر استطاعتى .

— أنت حر ، لكننا نحارب .

— لابد أن نستمر . .

• • •

• • •

• • •

قال الأستاذ نصحى فى حكمة تحليلية :

ــ هل رأيت يا عبد السلام ، فشل التقمص بالمعتدى ؟

كدت أصعق وتساءلت فى استطلاع خبيث :

ــ فشل ما ذا ؟؟

ــ اليهود تقمصوا النازى ولا بد أن ينتهوا إلى نهايته ، وهـــذه علامات الانهيار.

تعجبت من أنه لايهمد أبداً ، فقلت فى إثارة :

ــ وهل اليهود مرضى مثلى (لم أقل . . ومثلك)

ــ مرضى ومجانين أيضا .. وقل ماشئت فى الشذوذ والعقد .

قلت متمادياً فى الفـكاهة الخبيثة حتى أخفف من توترى وأنا أتميـم بتتبع تعصبه وحماسه للتحليل فى « عز الحرب » .

ــ وحكاية الجنس ، الله يفتح عليك ؟

ـ طبعاً وما الحرب إلا مظهر جنسى .

تذكرت لفورى المرأة السودانية ، لمَ تطل على هـذه الصورة فى مثل هذه الظروف ؟ طردت الصورة بسرعة قائلا :

ـ اسمع يا أستاذ نصحى ادع معى بالاستمرار مهما كانت النتائج ، فرغم شكى فى كل شىء إلا أنى لا أستطيع التحكم فى أمل غامر يؤكد لى أن الأوان قد آن

* * *

لم أستطع أن أتحـكم فى مشاعرى بعد ذلك ، البيانات تتوالى ومعارك

الدبابات متواصلة، مرة اليوم السادس وما زلنا نحارب، وعاد لى شعورى بالحياة بشكل لا يوصف .

. . .

قالت زوجتى كأنها ترقص بعينيها .

ــ الحرب يا عبد السلام

قلت فى يقين وسعادة :

ــ أخيراً

ــ الحمد لله

ــ ربنا يقمم بخير

رأيتها كما لم أرها من قبل واقتربت منها دون تردد

. . . .

. . . .

ضحكت بعد أن نجحنا وكأننا عبرنا القنال معهم وحطمت خط بارليف .

قلت لها مازحاً منتيشاً :

ــ سيولد فى عهد الحرية

. . .

خاتمة

صفقت الباب خلفى ودخلت هائجاً أريد أن أحطم أى شىء فى طريقى ، كاد غريب يقفز من صوت ارتطام الباب ، ولكنه كالعادة - سرعان ما زاد شحوباً وهو يتمالك نفسه ، كان ذلك مساء الأربعاء المشئوم(*).

قلت فى غيظ قاتل:

ـ أمازلت تنتظر يا غريب ؟ ؟

سكت بلا أية نية فى العراك، ولمحت لأول مرة الدموع تتساقط من عينيه فواصلت فى أسى :

ـ كتب علينا أن نعيش كل بضعة سنوات هذه المسرحية المعادة ، الذل ـ الأمل ـ المحاولة ـ الخيبة ـ الكذب ـ الموت

لم يرد وزادت دموعه حتى كدت أهزه من منكبيه ليرد على ولا يدعنى وحيداً أكلم نفسى :

ـ إذاً فقد كنت معنا طول الوقت وأنت تتصنع الوحدة واللامبالاة. رفع حاجبيه « متحضراً » ، وكأنى ضبطه متلبساً بعدم الوحدة .

ـ لا داعى للكلام

ـ ولا إمكانية العمل

ـ انتهى كل شىء

ـ وبدأنا الصراخ والاستجداء

(*) يوم إشاعة استسلام السويس

ــ ولـكن هل سقطت السويس حقاً ؟

ــ وحوصر الجيش الثالث

ــ مهما يكن .. فالقصة مكررة

ــ لم تصدقنى حين قلت لك أن التاريخ يعيد نفسه

ثرت بلا قصد :

ــ ولـكننا حاربنا يا غريب

ــ العبرة بالنتيجة

ــ الحرب لم تنتـه

ــ سنقبل وقف إطلاق النار ، ثم نبدأ الحديث من جديد عن النـكسة الثانية والخيانة .

ــ نحن نخون أنفسنا بالاستمرار فى هذه الحياة لو حدث هذا

ــ ما ذا تعنى ؟

ــ إما أن نعيش أو نموت .. ، أو نموت .. فاهم ! ! ؟

ــ قال لى وكأنه يحاول أن يرجع إلى قوقعته قسراً ولـكن دون حماس

ــ أو ننتظر ؟

ــ لا قدرة لى على الانتظار

* * *

خرجت إلى الشارع مباشرة بعد أن نظرت إلى باب شقتى نظرة أخيرة ، ولم أجرؤ على الدخول لتقبيل أولادى فى هذه الساعة ، كنت أسير فى الشارع بخطى عجلى وكأنى أخشى أن يفوتنى قطارٌ ما على وشك الرحيل، كان قرارى

واضحاً بلا غموض ، لقد عجزت عن الحياة مثل الناس، وهاهو ذا العار يقضى على بصيص الأمل الذى تخايلت به من أيام .

وقفت فى منتصف كوبرى قصر النيل والهواء البارد يصفع وجهى يذكرنى بالحياة رغم كل شىء ، نظرت إلى الماء الساكن كالبركة الحزينة بلا أمل فى فيضان ولا حتى طوفان .

اقتربت وقع أقدام الحارس منى ، ما زال يظن أن الحرب قائمة ، مخدوع غبى ، لن أرد على ندائه فهو لن يلحق بى، مصيرى فى يدى لأول وآخر مرة بلا حاجة إلى ادعاء المرض أو استشارة طبيب .

ارتد بصرى إلى الماء الساكن وشعرت براحة عميقة .

انتهى الجزء الأول . . ويليه الجزء الثانى

« مدرسة العراة »

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٨٩٤ / ١٩٧٧

مطبعة الكيلاني
المدير المسئول رشاد كامل كيلاني
٢٢ سعد غيط العدة - باب الخلق
☎ : ٩١٨٥٩٨ القاهرة

هذه الرواية

من واقع خبرته الطويلة مع نفسه ومع الناس والحياة - يكتب الأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة هذه الرواية الطويلة التى أسماها "رواية علمية" ليتقمص بها أحد من أحبهم وأحبوه - ولو خيالاً - ويحكى على لسانه خبرته مع المرضى والأصحاء والناس والحياة ، ويشير بطريقته الخاصة إلى مشكلتى الوجود والكون - كل ذلك بالتزام علمى حسب تعريفه للعلم وارتباطه بالوعى الموضوعى وبهذا الفتح الذى يعد تطويراً لعمله الأسبق "عندما يتعرى الإنسان : صور من عيادة نفسية" يسر دار الغد للثقافة والنشر بالاشتراك مع دار المقطم للصحة النفسية أن تقدم هذا الأسلوب الجديد الذى نطلق عليه "الفن العلمى" كإسهام حضارى أصيل فى مسيرة الإنسان المصرى - ومن ثَمَّ الإنسان فى كل مكان .

الناشر





دار الغد للثقافة والنشر
القاهرة ٤٧ شارع الفلكى

الثمن ١٠٠ ص